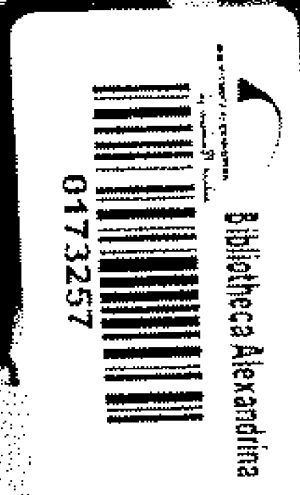
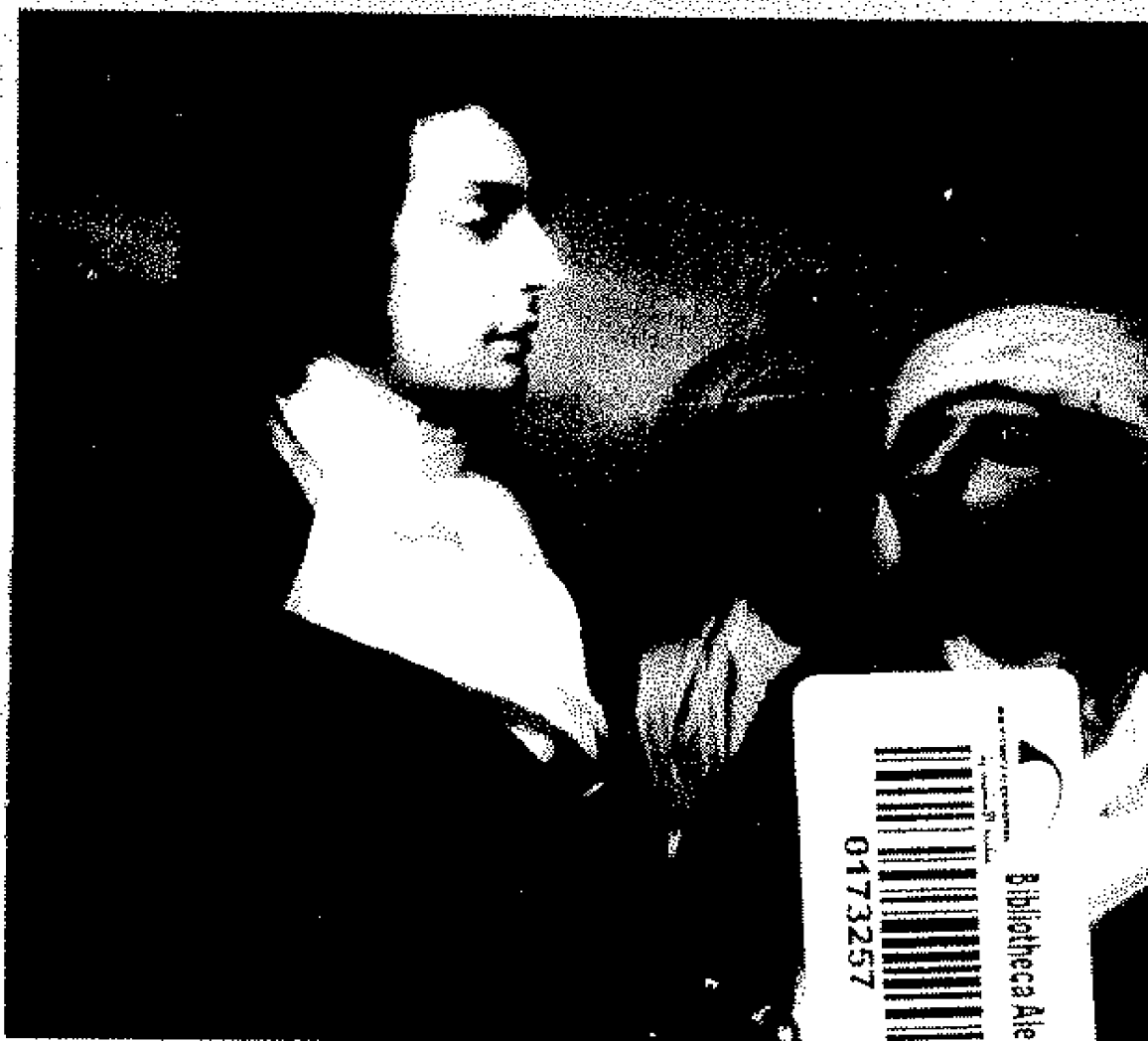


جوزيف ماري موارنيه
مذكرات ضابط
في الحملة الفرنسية على مصر
ترجمة وتقديم: كاميليا صبيحي



المركز القومي
للحفظ والتوثيق



137

المشروع القومي للترجمة

مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر

تأليف
جوزيف ماري مواريه

ترجمة وتقديم
كاميليا صبحي



هذه ترجمة لنص كتاب

Joseph-Marie Moiret

**Mémoires
Sur
L'expédition d'Egypte**

Pierre Belfond

Paris

1984

الناشر بيارييلسون باريس (١٩٨٤ م)

مقدمة

كتب الكثيرون عن الحملة الفرنسية ، ولكن من قرأ ثم كتب ليس كمن رأى رأى العين ، حتى وإن كان ما رآه وما كتب عنه ينم عن وجهة نظر شخصية لا تخلو من مبالغة أو مغالطة .

فهذه مذكرات ضابط شارك في الحملة الفرنسية . كان يقتل ويحرق ثم يجد لنفسه الوقت ليكتب عن شئون قلبه . وقد عني بوصف النيل والأهرامات والحيوانات والطيور وظاهرة السراب . كذلك أفرد العديد من الصفحات للحديث عن «العدو» .

ويمتدح الحرب بديهي أن هناك «عدوا» وإلا فقيم القتال ؟ ولكن أى منطق هو الذى جعل الشعب المصرى «عدوا» حسب القراءة من الفرنسية إلى العربية ؟

ومنذ الوهلة الأولى ، وصف «العدو» بأبغض الصفات . فهو كرية المنظر والعادات ، همجى ، ساذج ، بسائس ، تعس ، جاهل ، بل أحيانا متواطئ . فإن ثار ، دُهِش المحتل . وإن استمرت المقاومة ، حق عليه العذاب : حريق ونار ودمار . ولا يهم إن طال الانتقام مسجداً بحجم الأزهر الشريف أو قرية بأكملها أو زوجين من الشيوخ ، لنقرأ فى السطر التالى تعليقاً عن الطيور والطعام ووفوته ورخص سعره . . . فهل لآلة الحرب قلب يبالى ؟

فإن وصف الضابط جنود «العدو» بالبسالة والشجاعة ففى سياق يؤكد أن هزيمته كانت أمراً هيناً على يد جيش لا يقهر . . فأى فخر فى هزيمة الضعفاء !

ولا تتوقف مع الحرب مظاهر الحياة ، فالاحتفال بالمولد النبوى يتم فى الميعاد بل تحت رعاية المحتل الفرنسى وبمشاركته الاحتفال . كما أن الناس تبيع وتشترى وتعقد الصفقات ولا تعباً بنات الهوى لمن تباع الأجساد !

وبقدر ما يبدى الضابط تأففه من شعب مصر بقدر ما يبدو مأخوذاً بحيواناتها هائماً بها ، فالخيول كاليراق والحمير لا يمكن مضاعفاتها بأى حمير أخرى فى العالم .

ومقابل الرصف الكثيب لشعب مصر وعاداته تأنى الصورة المروعة لبذخ البكوات والممالك فتكون المقارنة فادحة . ولكن هل يكفى التأكيد على أن كل هذا كان من كد وعرق شعب مصر لنسلم بأن يد الفرنسيين كانت أرحم !

ولعل البيانات الصادرة عن مراكز القيادة الفرنسية هى أهم ما جاء بهذا الكتاب . فمن خلالها نرى تباين لسغة القادة الثلاثة للحملة ، ونتبين الصراعات الداخلية بين صفوف الجيش الفرنسى ، كما يلقي أحد هذه البيانات الضوء على سبب من أسباب البلاء الذى حاق بالأسطول الفرنسى ، والمتمثل فى تعددية السلطة على متن السفن ، الأمر الذى لعب - فيما يبدو - دوراً مهماً فى إضعاف قوتها ، وكان بمثابة الدودة الداخلية التى نخرتها .

ولكن هل كره هذا المحتل مصر كما أكد الصفحة تلو الأخرى ؟ وهل رآها حقاً مقيتة هى وأهلها ؟ لو أن الأمر كذلك لما كانت هذه الفقرات عن جمال بعض المواقع المصرية وعن عراقة وعظمة آثارها وحضارتها ، وكأن من كتبها جاء سائحاً يريد الاستمتاع ورصد ما يرى ، وليس مجرد محارب يترصد بمن لم يشأ أو يختار أن يكون له «عدوا» ، ولما كانت أمانى العيش والإقامة بأراضيتها الخصيبة ، لما كان حلم امتلاك سزرعة تنتزع من يد

المماليك المستمتعين وحسدهم بخيرات البلد . لو أنه لم يحب مصر لما أراد زراعة أشجار «مُعْمرة» لتقيه يوماً قيظ الشمس بظلالها الوفيرة ، ولما مارس النيل سحره عليه ولما لان قلبه لجماله . وإن كان هذا الجمال لم يمنع الغار من تلويشه والتلهي - باستمتاع - باصطياد جثث المماليك الطافية على سطحه لنهب ما تحمله من نقود .

ووسط أحلام القوى الزائفة ، تطل المخاوف من لحظة وعى بوجه الحقيقة ، حينما تتحرر شخصية الإنسان من صورة المحارب لتنفس عن أحلامها ومخاوفها وضعفها البشري المشروع . حينئذ يسقط قناع البسالة والشجاعة ليفسح المكان للغة اليأس والألم والإحباط . ويطل «العدو» بوجهه الحقيقي : الجوع والعطش والخوف من الطاعون والأوبئة ، والخشية من عدم رؤية الوطن مرة أخرى . لقد كان العطش أقسى على المحارب من أهوال الحرب ، كان يحصد الأرواح مثلما تفعل الحروب والآفات . فقط من هذه اللحظة ، رأى الإنسان في الحقيقة ، وعرف أن ما حدث كان ضد الإنسانية .

كاميليا صبحي

تمهيد

كل ما نعرفه عن جوزيف ماري مواريه هو أنه ترك الكنيسة للالتحاق بفيلق آكيتان . ثم ما لبث أن انضم للحملة الفرنسية على مصر وكان برتبة كابتن .

كان مقررًا ، فيما يبدو ، أن تصدر هذه المذكرات عن دار نشر «موريسو» نسبة لأحد كبار الناشرين في العصر الرومانسي . وقد أعد المخطوط بالفعل للنشر ، ولا ندرى على وجه اليقين الظروف التي حالت دون هذا .

وقد هاجر أحفاد مواريه إلى الأرجنتين . وعرض مؤخرًا أرشيف العائلة للبيع في بيسونس ايرس ، وانتهى الأمر بأن اشترت المخطوط دار كلافروى ، وهى دار متخصصة فى الكتب التاريخية وتقع بشارع سان أندريه ديزار بباريس .

هذا النص الذى كتبه جوزيف ماري مواريه ، يغطى الحملة الفرنسية بأكملها منذ إبحارها من تولون عام (١٧٩٨م) وحتى عودتها إلى فرنسا فى السادس عشر من نوفمبر من عام (١٨٠١م) .

فى هذا الكتاب ، يعطى مواريه صورة دقيقة للعمليات العسكرية التى دارت سواء فى مصر أو فى فلسطين . وقد أتاحت له رتبته فرصة الاقتراب من الجنود ، فراح يكتب بعناية كبيرة كل ما شغلهم ، كما عمد إلى وصف حالتهم المعنوية . وفى الواقع لم يغفل مواريه عن شىء ، بدءًا بحالات العصيان وحتى الأحلام الاستعمارية التى راودت هؤلاء الجنود . كما أفرد العديد من الصفحات لوصف الأقاليم التى اجتازتها الحملة ووصف عادات سكانها .

وقد كان فى علاقة الكابتن مواريه بامرأة مسلمة فرصة أتاحته له إعطاء وصف دقيق لما كان عليه وضع المرأة فى هذا العصر والمكان .

كما صور مدينتا الإسكندرية والقاهرة بكل ما فيهما من صخب ، وقد كانتا موضع اهتمام دائم من الفرنسيين ، لاسيما وهم بعد يكتشفون صرامة الإسلام وعالم الحريم .

أما عن الأعمال العسكرية ، فتستوقفنا بشكل خاص روايته لمعركة الأهرامات والاستيلاء على القاهرة مرتين على التوالي و مقاومة الجيش لحرب العصابات التى كان يشنها البدو ، إضافة للحملة على سوريا .

لم يتمكن كابتن مواريه من بلوغ عكا نظرا لإصابته بالطاعون وبجروح خلال وجوده بالعريش . كما أنه لم يذهب بعيدا فى صعيد مصر . وفيما عدا هذا ، فقد شارك فى جميع المعارك حتى سقوط الإسكندرية .

تورد هذه المذكرات أيضاً عدداً كبيراً من البيانات الرسمية التى تلقى مزيداً من الضوء على ما يرويه المؤلف . أما القيمة الكبرى لهذا العمل فتتمثل فى الفقرات التى يشير فيها إلى حالة الجنود وقد نال منهم العطش ووقعوا صرعى الطاعون والرمم بمصر ، كما وقعوا ضحية عدو شديد البأس يصعب النيل منه .

لاشك أن أنصار هذه الملحمة التى صنعها نابليون والمتحمسين لها سيجدون فى إحياء هذه المذكرات ما يعادل من حيث القيمة والأهمية «مذكرات كابتن كواتيه» .

الناشر

(١٩٨٤م)

تنبيه

من الناشر الذى كان يصدد إصدار هذه المذكرات ، السيد موريسو (١٨١٨م)

كاتب هذه المذكرات هو جوزيف مارى مواريه ، نقيب خلال الحملة ، وكابتن سابق مسئول عن الكساء بالسواء الخامس والسابعين مشاة الملقب بـ «الذى لا يقهر» . كتب هذه المذكرات يوماً بيوم بقدر ما كانت تسمح له الظروف ، خطها على قصاصات ورقية مربعة جمعناها ورتبناها بحسب تاريخها .

وقد دأب قيصر على تسجيل أعماله العسكرية على هذا النحو فى دفاتره الخاصة . ولكن قيصر كان يحظى بعون يفوق ما حظى به مجرد ضابط فى الحملة الفرنسية ، كما أن معلوماته كانت أوفر وعلاقاته أكثر اتساعاً ومصادره أكثر تنوعاً ، ناهينا عن التفوق فى المكانة والعبرة .

افتقد مواريه لكل شيء : الوقت ، والإلمام بتفاصيل جميع العمليات العسكرية والدوافع التى كانت تحكمها ، كما افتقد وجود سكرتارية تعاونه ، وكذا أية مصادر خارجية للمعلومات .

ولعل ما يدهشنا هو أنه على الرغم من مهامه العسكرية وتغييره الدائم لمواقعه وكثرة غارات العدو قد وجد من الوقت ما يكفى لكتابة هذا القدر من الروايات والتفاصيل . وقد كاشفته يوماً عما جال فى خاطري بهذا الشأن ، فأجابنى بأنه كان يكتب كل ما يجرى حوله سواء فى جبهة القتال أو المخيمات أو المعسكرات . وقد توفرت له أحياناً أخبار جيدة للاستخدام ، بينما لم يحظ فى أوقات أخرى إلا بالأخبار الرديئة . وعوضاً عن ريشة الكتابة التى لم تتوفر فى كثير من الأوقات كان يلجأ لقطعة من البوص

يخط بها مذكراته ، الأمر الذى نلاحظه بالفعل فى مخطوطاته نظرا لاختلاف أشكال الحروف ودرجات الأحبار المستخدمة فى الكتابة .

وفى ظل هذه الظروف ، بديهى أن نشين أن الرغبة والوقت كانا ينقصانه لتحسين أسلوبه وإضفاء صبغة البلاغة على نصه . لقد كان يكتب كل ما يراه ببساطة شديدة ، ولكن بدقة ونزاهة وتجرد . وقد يرى المهتمين بالأدب أنه لم يُعَنَّ بأسلوبه كما يجب ، وربما قسوا عليه فى نقد هذا العمل كما فعلوا بالمذكرات التاريخية التى كتبها يوليوس قيصر ، والتى تعرضت لانتقادات آسينيوس بولليون ، الذى عاب عليها عدم الاعتناء بالأسلوب وتعمد إخفاء الحقائق .

ولمن سيتناول هذه المذكرات بسوء أبادر بنشر ما كتبه واحد من أكثر أهل روما فصاحة ممتدحا مذكرات قيصر ، إذ كتب يقول : «لقد ترك قيصر مذكرات تاريخية لا تقدر بثمن . كتبها بأسلوب بسيط طبيعى لا يشوبه التصنع ، كما جاءت مستجدة من أى زخرف . فهو لم يكتب تاريخا وإنما قدم إسهاما للمؤرخين لتذكيرهم بما كان» .

وفى تقديرى أن هذا يسرى أيضا على موارد . فقد جرد بدوره أسلوبه من أى تصنع أو زخرف . وأراد إمداد من سيأخذون على عاتقهم مهمة كتابة تاريخ الحملة الفرنسية ببعض ما قد يساعدهم فى القيام بمهمتهم . وعليهم هم العناية بأسلوبهم وبتجميع الوقائع وتنسيقها مع ما يستمدونه من مصادر أخرى . وقد يقول قائل إن آخرين قد أوردوا نفس هذه الأحداث . ولعل هذا من حسن طالع المؤرخ ، فكلما زادت مصادره وشهوده ، اتسمت رواياته بالمصداقية وكانت مؤكدة . ثمرة وقائع ، فيما يبدو لى ، فانت على بعض المؤلفين ولم يوردوها ولكننا سنجدنا فى هذا الكتاب ، الأمر الذى سيثير لا شك فضول القارئ .

فجميع البيانات التى أدلى بها الجنرالات الثلاثة الذين تتابعوا على قيادة جيش الشرق منذ رحيله عن تولون وحتى عودته إليها نجدها فى كتابه . هذه البيانات حتى لو لم تمهر بإمضاءات إلا أنه لن يشق علينا التعرف على كاتبها من خلال طيعة كتابته . فبيانات بونابرت تكشف عن دهائه السياسى وإخفائه نواياه ، كما أنها تبشر ، وكأنها نبوءة ، بنجاحات قادمة تمائل انتصاراته الماضية ، فكأنه والقدر يسيران فى ركب أبدي واحد . وفى بيانات كليبر^(١) نتيبن صراحة المحارب الواصل من شجاعته ، والذي يحاول مع هذا المواءمة بين مجد جيوشه وانتصاراتها ورفاهيتها ، ساعيا قدر الإمكان لدرء دماء جنوده . أما فى بيانات مينو ، فنلمس حكمة فيلسوف لا يحفل إلا بالمصلحة القومية ، ويجنح لإعمال العقل بدلا من اللجوء للتهديد والوعيد بمقتضى السلطة المخولة له .

صحيح أننا حينما نقرأ ما نشر عن الحملة الفرنسية على مصر ، فإننا نضع أيدينا على حجم العمليات العسكرية التى جرت ، وعلى تحركات أجنحة الجيش ومركز قيادته والخطط التى أعدها مستشارو الحرب فى سرية كاملة لضمان النصر ، والاحتياطات التى تم اللجوء إليها عند اللزوم حينما بدا الحلم بعيد المنال . كما نقدر النتائج العظيمة التى تحققت بفضل حذر القيادة وقيمتهم الخاصة . نقدر جسارتهم بل حتى عجزهم فى بعض الأحيان . واعترف أن المعلومات لا تنقصنا فى هذا الصدد سواء من خلال نشرات الجيش أو التقارير المرفوعة إلى الحكومة أو إلى الجنرالات ، إلى جانب ما ورد فى كتابات رجال الفن والعلماء . لا نجعل بالفعل أغلبية هذه الكتابات ، ولكننا لن نجد فيها ما راود الجنود من أفكار وما صنعوه

(١) قاد كليبر الحملة فى مصر بعد رحيل بونابرت ، ويعد مقتله فى الرابع عشر من يونيو عام (١٨٠٠) خلفه مينو الذى تفاوض على استسلام جيوشه وترحيلها على متن سفن انجليزية فى سبتمبر من عام (١٨٠١) . (هوامش من الناشر) .

من أفعال ، وآرائهم عن قاداتهم أو بشأن بعض الأحداث إضافة إلى آمالهم ومخاوفهم وأفراحهم ومعاناتهم اليومية .

وبحكم طبيعة عمله كان مواريه أقرب إلى الجنود البسطاء منه إلى هيئة الضباط من ذوى المناصب العليا . فكان يصغى لحكمهم على الأمور ، ولا يحدثهم بل ولهمساتهم فى بعض الأحيان . والحق انه لم يأل جهدا فى سبيل إطلاعنا على المناقشات التى دارت بينهم .

وفى لحظات السعادة كما فى لحظات التذمر والاحتجاج لم تغب صورة الوطن قط عن خيال هؤلاء الجنود . ولم تبدر منهم شكوى إلا حينما تصوروا أن فيما يفعلونه خسارة جمة للوطن . وسرعان ما كانوا يستسلمون ويرجعون عما يشعرون به بمجرد توضيح الأمر لهم ، وبمجرد معرفة أن سبب وجودهم فى تلك الأراضى البعيدة هو مسجد الوطن ومصلحته . حينئذ كان كل شئ يهون ، كانوا يتحملون أقدارهم بشجاعة وجلد ، ويدركون أن مجدهم مرتبط برفعة بلادهم .

ومن جانبهم ، لم يكن القادة يجهلون ما كان يدور فى خلد جنودهم . لذا حرصوا فى جميع بياناتهم على التأكيد على هذا الدافع المزدوج المتمثل فى «مجد ورفعة الوطن» لحثهم على مواصلة القتال وتشجيعهم . لم يخطئوا حينما أكدوا أن مسجد الوطن أمر مضمون ثم لم يحققوا رفعة مع هذا . فهم لم يدخروا وسعا ، ولم يبخلوا بجهدهم ولا بوجودهم ذاته . ولو أن الحكومة احتوت شعبها كأبناء ، أو أنها تمتعت بالاستقرار وعرفت كيف تبخل بدماء جنودها لطلبوا لها المجد والرفعة .

وعلى الرغم من تعدد الأعمال الصادرة حول هذا الموضوع ، فإنني أمل أن يحوز هذا الكتاب إعجاب عدد كبير من القراء لاسيما أصدقاء الكاتب وهم كثر ، إضافة لرفقاء السلاح السابقون الذين لم يباغتهم الموت حتى الآن ، ومعارفهم . فهؤلاء المحاربون السابقون سيجدون لاشك متعة

فى قراءة أحداث شهودها ، بل اشتركوا فيها بصورة أو بأخرى . ولسوف يتعرفون على ما فيها من حقائق وظروف وملابسات وأماكن ، وسيتذكرون الوقت الذى حدثت فيه .

سيقول أحدهم : «كنت فى ذات الكتيبة مع المؤلف فى معركة الأهرامات ، وكذلك فى معركة القبة» ، ويقول آخر : «أصبت فى معركة شبراخيت» بينما يقول ثالث : «كنت فى سوريا وتعرضت للحصار فى عكا . وكنا على جبل طابور حينما شئت جمعنا نفر من البرابرة» ثم يقول رابع : «كنت ضمن فرقة ديزيه وقد اجتزنا النيل حتى بلغنا منطقة الشلالات ، ورحنا نتأمل بإعجاب الأطلال المتبقية من معابد وقصور قديمة بمدينة طيبة العتيقة بواجهاتها الأربع الشامخة» .

ولا يغيب عنا ولع العسكريين القدامى بإدارة دفعة الحديث دوما فى اتجاه الحملات العسكرية التى خاضوها . فما أن نذكرهم بحادثة ما حتى لا يدعونا نسمها ، بل يزدون عليها ألف رواية أخرى ، ولا ينضب لهم قط معين ولا ينسون أبدا دورهم فى تلك العمليات الكبرى ، فتلك الذكريات هى التى تعيد الماضى الى أذهانهم ، وكأنها تعيد اليهم عنقوان الشباب .

حدث أننى كنت بصحبة بعض المحاربين من أيام لويس الخامس عشر ، وحدثتهم عن المساريسال دى ساكس أو دى لويندال وما كسدت أفعل حتى اعتدلوا فى جلستهم واستحذوا على دفعة الحديث ، واستغرقوا فى وصف طويل طنان لمعركة فونتانوى وسقوط بيرج اوب زوم بدقة يصعب أن نجد لها مثيلاً فى أكثر كتب التاريخ توثيقاً .

وبعد أن اطلعت على جميع تفاصيل الحملة على مصر من خلال ما جاء فى مذكرات صديقى ، تحدثت فى هذا الشأن مع عدد من العسكريين الذين شهدوها بدورهم . ومن فرط دقة ما ذكرته لهم ظنوا أننى كنت معهم . وبعد أن بينت لهم حقيقة الأمر ، قصوا على الأحداث ، فجاءت

مطابقة لما عرفته بالفعل . وبالطبع لم تكن المعرفة هي هدفى من هذا الحديث ، وإنما أردت أن أمنحهم متعة استرجاع الذكريات وهي لا تضاهيها متعة أخرى . فكان هذا من دواعى مودتهم الدائمة لى .

أتوقع ان يكون لهذه المذكرات نفس التأثير ، إذ لا يفضل الجنود ، غالباً ، الإكثار من الوصف فهذا يضيف على العمل صفة العلمية التي تتجاوز إمكانياتهم . وهذا ما يجعلنى أعتقد بشدة أننا سنجد من يقرأنا لاسيما من هذه الطبقة ، إضافة لمن لم يحالفهم الحظ للاطلاع على الأعمال الأخرى . فبعض الكتابات تشبه الأثواب ، فئة تفضل لون أو نوع بعينه ، بينما تفضل الفئة الأخرى شيئاً آخر . ولمن يريد معرفة السبب فى عدم نشر هذا العمل منذ وقت مضى ، أقول إنها الرغبة فى عدم الإساءة إلى حكومة كستب عن رئيسها بصورة شديدة الصراحة والصدق . واليوم وقد أصبح بالإمكان إجلاء الحقيقة ، ما عاد ثمة سبب للصمت ، ولم نعد نخشى سطوة الرقباء .

بقى أن نعطي نبذة تاريخية صغيرة عن العسكرى الذى أمدنا بهذه المذكرات . ولد مواريه فى كورتناى بدوفين ، الواقعة بين كريميسو وموريليس ، من عائلة نبيلة هي عائلة جدته لوالده وهم آل كورتوناى على اسم إمبراطور لاتينى من قسطنطينية شارك فى الحملات الصليبية . كذلك حمل بعض الأمراء هذا اللقب ، وفى عام (١٦٠٣م) أى إبان حكم هنرى الرابع تقدموا بطالب للاعتراف بهم بموجبه ضمن الأسرة المالكة . وربما جاء مواريه من ذات النسب ، ولكنه بعيد كل البعد عن الزهو ببريق نبلى عتيق ، فهو مثل بوالوه لا يعترف بمجد حقيقى إلا إذا نتج عن شجاعة ونزاهة شخصية ، مجد يكتسبه من خلال قيامه على الوجه الأكمل بواجباته كضابط ومواطن وأحد رعاة الوطن .

درس مواريه الأدب على يد راعى كنيسة قريبة من تلك التى ولد فيها ، وكسان الراعى متمكنا من اللغة اللاتينية تماماً ، فسعى بثمنية مواهب

تلميذه الطبيعية حتى أنه بعد ثلاث سنوات تأهل مواريه لدراسة الفلسفة في مدينة ليون في مدرسة القساوسة الدومينيكان .

ولكنه لم يمض حتى النهاية في هذه الدراسة . فقد كره العودة كل عام لتسببية ثلاثة أشهر هي مدة إجازته في بيت والده ليقع تحت سطوة زوجة أبيه . كما كان يخشى نهاية دراسته الوشيكة التي ستضطره إلى تحمل الطبع السيئ لهذه الزوجة انتظاراً للوصول بعد عدد من السنين إلى السن المطلوبة لممارسة مهام وظيفته بالكنيسة . وهي الوظيفة التي أعدها لها ، والتي لم يكن يشعر بميل كبير نحوها . ومن ثم ، عقد العزم على الانضمام للحقل العسكري . فقد التقى بأحد المجندين بفيلق أكيتان في ساحة بلكور ، وكان مشهوراً في ليون بمهنته . لفت مواريه نظره بهيئته وتأنقه وبشاشته وحلو حديثه ، فاستحوذ عليه ولم يتركه إلا بعد أن جنده وضمه لصفوف فيلقه ، حيث استقبل بحفاوة . ثم ما لبث أن أصبح نقيباً .

وفي بداية الثورة حينما اندلعت الحرب في سان سافوا بقيادة الجنرال مونتسكيو ، كان مواريه ضابط صف . ثم ما لبث أن أصبح عريفًا بحرياً بعد ذلك بوقت قصير . وتدرج في الرتب حتى أصبح مسؤولاً عن الكساء . ومارس مهام وظيفته دون أدنى تبرم منذ عودته من مصر (وقد كان طوال الحملة على هذه الأراضي برتبة نقيب) حتى ترك الخدمة . وحينما تيقن من اعتزام نابليون مد القتال إلى أقصى الشمال^(١) سعى للتقاعد وحصل عليه ولكن بأدنى معاش مقرر ، وكانهم أرادوا معاقبته على طول خدمته وجراحه التي لم تمكنه من بلوغ أقصى العالم .

وقد كان يشار لفيلقه برقم (٧٤) وهو الذي تكون منه فيما بعد اللواء الشهير رقم (٧٥) وكان واحداً من أشد اللواءات تميزاً في حروب إيطاليا ولقب فيما بعد بـ «الذي لا يقهر» . وقد استحق هذا اللقب

(١) المقصود هنا هو الحملة على روسيا عام (١٨١٢م) (الناشر) .

بأعماله المجيدة مما أهّله للاستمرار في مونتينيوت وزيجو وميليسيمو^(١) حيث أرغم أحد الفيالق النمساوية على الاستسلام ، وتم الاستيلاء على معاداته . وقد خدم هذا اللواء طويلاً تحت رئاسة الجنرال لاهارب وكان من الفرق المتقدمة ، وأثبت باستمرار جدارته بهذا اللقب في أركسول وفي مصر في مختلف المعارك ، وكذلك خلال حصار عكا في سوريا بقيادة الشجعان شامبرتو وموجرا .

وقد كان في استطاعة مواريه أن يترقى لرتبة تفوق رتبة الكابتن نظراً لتعليمه وخدماته الطويلة الجليلة . وكان معنى هذا أن يترك فرقة المكونة في مجملها تقريباً من أصدقاء له في أكيتان . غير أن هؤلاء الأصدقاء اعتبروا من الشرف الإبقاء على مكان خدمتهم الأولى ، فأخذوا على أنفسهم عهداً ألا يفترقوا أبداً .

لقد ظل أسير كلمته ، واعتقد أن عدم الوفاء بها والجري وراء المال والامجاد ليس من الشرف في شيء :

ولو أنه انتقل إلى فيلق آخر تابع لفرقة جديدة لأصبح كومتان ، ولكنه ارتبط بالعهد الذي قطعه على نفسه .

وكيف له مغالبة عاطفة رسخت في أعماقه مع الزمن وأكدتها عهوده ؟ لقد حاول البعض إغراءه عدة مرات ، بل لوحوا له بالآمال العريضة . فكان يقول : « فيلقى أعرفه ، أينما حل ، يكلل بالانتصارات الخالدة ، فما مصيرى إن لم أكن يوماً طرفاً فيها ، أأحرم من نصيبي من هذا المجد ؟ لاشك أن عذابات الندم ومشاعر الغيرة ستودي بي إلى حتفى ولسوف يدفع بي يأسى إلى شتى نفسى كما قال هنرى الأكبر لكريتون الشجاع » .

(١) هي الانتصارات التي أحرزها بونابرت على الجيوش النمساوية بقيادة بوليو في أبريل عام (١٧٩٦م) (الناشر) .

مذكرات ضابط

في الحملة الفرنسية على
مصر

كتبها مواريه

النقيب في اللواء ٧٥

الرحيل عن تولون

فى تولون وأنحائها تجمعت فى شهر فلوريال من العام السادس من التقويم الجمهورى^(١) فرقة تضم مجموعات من الجنود يصل قوامها إلى ما يقرب من عشرين ألف جندى من المشاة وسلاح الفرسان والمدفعية . بينما رسى فى ميناء هذه المدينة أسطول قوامه ثلاث عشرة سفينة حربية وسبع عشرة فرقاطة وعدة سفن متعددة القلوع ، وسفن حربية وزوارق حاملة للمدافع وأخرى تسير بالمجاديف وعدد من السفن التجارية ، انتظاراً لاكتمال الفرق . بينما جرى إعداد سفن نقل أخرى عديدة فى باستيا وكورس وسيفيتا فيشيا بهدف اللحاق بالأسطول الحربى بتولون .

وقد بلغ عدد المشاركين فى الحملة من جميع هذه القوات حوالى ثلاثين ألف مقاتل ، إضافة إلى البحارة والقائمين بشئون السفن والعلماء والفنانين والقائمين على خدمة الجيش والضباط .

مثل هذه الاستعدادات التى جاءت فى الوقت الذى ترددت فيه أنباء عن عمليات هجوم على إنجلترا ، لم تلبث أن أثارت تكهنات عديدة لدى الجنود ، حتى ظن كل منهم ان له عقلية ثاقبة وخبرات عسكرية خاصة تأهله للتكهن بالهدف من هذه الحملة . فقد خمن البعض أنها تهدف الاستيلاء على سردينيا ، بينما قال البعض الآخر إن الهدف هو صقلية ومالطا حتى يتحقق للجمهورية السيطرة والسطوة على البحر الأبيض

(١) طبقاً للتقويم الجمهورى الذى استخدم بعد قيام الثورة الفرنسية ، قسمت السنة إلى الشهور التالية : فنديمير - بريمير - فريمير - نيفوز - بلوفيوز - جرمينال - فلوريال - بريريال - ميسيدور - ترميدور - فروكتيدور . وقد ألغى العمل بهذا التقويم عام (١٨٠٦) . (المترجمة) .

وتسلب من بريطانيا . وراح آخرون يأكدون أن البداية ستكون بعبورنا مضيق جبل طارق ثم يرفع الحصار عن ميناء قادش لنلحق بأسطول أسبانيا الحربي وننضم إلى أسطولنا في برست لشن هجوم على إنجلترا .

وقد اعتقد البعض أنه ذاهب إلى مصر ، ومنها إلى الهند الشرقية بهدف تدمير المصارف الإنجليزية . راود هذا الإحساس أغلب الشباب المتعلم الذي كان يطلق عليه لقب العلماء ، إضافة إلى الفنانين .

كانت تلك هي الأفكار التي أرقّت الأذهان ووضعت الرأي العام في حالة من عدم اليقين . اشترك الجميع في تلك التكهنات لصدق اهتمامهم بمجد وهناء الوطن .

ورغم هذه الظنون ، ظل الجيش المكلف بتحقيق هذا الهدف المضاعف ، المتمثل في جلب المجد والهناء لفرنسا ، محتفظًا برباطة جأشه الطبيعية . ولم تترك لهم ثقستهم في جنرالهم موضعًا لشك في نجاح هذا المشروع أيا كان كنهه . لقد ملأنا بونابرت فخرًا وحماسًا ، وكانت كلماته كافية .

البيان الأول

١٠ مايو ١٧٩٨ البيان الأول لبونابرت

مركز القيادة بتولون

٢١ فلوريال من العام السادس

من بونابرت ، قائد جيوش البر والبحر لمنطقة البحر الأبيض المتوسط .
أيها الجنود :

كتم أحد أجنحة الجيش الذي حارب إنجلترا ، قاتلتم في الجبال والسهول وواجهتم الحصار ، ولم يبقَ أمامكم إلا خوض معركة بحرية .

لقد كانت فيالق الرومان التي اتخذتم منها أحياناً مثلاً تحتذونه ، وإن لم تبلغوا شأوها ، تقود المعركة تلو الأخرى في قرطاج في ذات البحار ، كما في زاما ، وكان النصر دوماً حليفهم ، لتحليلهم بالشجاعة والصبر على الشدائد ، والتزامهم النظام والتوحد .

أيها الجنود ، أوروبياً بأسرها تضعكم الآن نصب أعينها . أمامكم أقدار جسام ، ومعارك ستخوضونها ، ومخاطر ومصاعب لا بد من التغلب عليها بالمزيد من العطاء ، من أجل رفعة الوطن وسعادة الأفراد ومجدكم .

أيها الجنود والبحارة والمشاة والفرسان وحاملو المدافع اتحدوا ، وتذكروا أنكم في حاجة لمؤازرة بعضكم البعض يوم القتال . أيها الجنود والبحارة ، لقد أهملناكم بعض الشيء الفترة الماضية ، ولكن الجميع يقف خلفكم اليوم ويؤازركم ، ولسوف تكونون لاشك جديرين بالجيش الذي تنتسبون إليه .

إن عبقرية الحرية ، التي منحت الجمهورية منذ ميلادها السيادة على أوروبياً ، هي ذاتها التي سوف تمنحها إياها اليوم ، على البحار والأقطار الأكثر بعداً .

بونابرت

بعد قراءة هذا الخطاب ، تصاعدت صيحات الفرح ، وامتزجت بالأناشيد الوطنية وعلت أرجاء السفن في انتظار ربيع طيبة ، لم يطل انتظارنا لها ، ففردنا الأشرعة وبدأ الإبحار يومى ٢٩ و ٣٠ فلوريال من السنة السادسة .

١٨ - ١٩ مايو من عام (١٧٩٨م)

أبحر الأسطول الصغير أولاً ، وهو مكون من السفن الحربية فرانكلين واكيلون وسبارسيات التي كنت على متنها ، ومن بعض الفرقاطات الأخرى ، وانتظر بالقرب من جزر يريس للانضمام لبقية الأسطول في ساعة متأخرة من اليوم التالي ، نظراً لهبوب رياح عكسية . وسرعان ما اتخذ قبطان كل سفينة موضعه وأبحر . وقد خيبت الطرق التي سلكناها كافة تكهنات بحارتنا ، وغيت عنهم الغاية التي نستهدفها . فإذا سرنا بمحاذاة الشاطئ قالوا إنها جنوة . وإذا تأينا عنه فالذهاب إلى سردينيا . هكذا راحت المزاغم تختلف في كل لحظة . بيد أن كل هذا اللغط ما لبث أن توقف حينما صدر لنا أمر بالاتجاه صوب سردينيا . وراح الجميع إثر هذا يتصايحون : «إذا ستم عملية الإنزال هذا المساء ! ومع صباح الغد سنكون أسياذ هذه الجزيرة» . وكم كانت دهشة هؤلاء العرافين حينما صدر أمر بالمضي صوب عرض البحر بعد عدة أيام أمضيها في تلك المحطة ! وما لبثت اليأسبة أن غابت من جديد عن ناظرينا . وعاد ضباط البحرية يصيحون : «الآن ، لم يعد ثمة شك ، نحن نتجه إلى صقلية» .

ما لبثت أن سرت أنباء تفسيد رؤية قلع إنجلترا في الأفق . وسرعان ما انتشر هذا الخبر وراحت تتناقله الأفسواء همسا ، حتى خشينا أن تكون قافلة «سيفيتا فيشيا» التي كان مقرراً أن تلحق بنا عند سردينيا قد سقطت في أيدي العدو . وقد أدى ظهور تلك الأشرعة في الأفق إلى تدعيم مخاوفنا . وصدر أمر لأسطولنا بتفقد الأمر . فانطلقت السفينة سبارسيات واكتشفت أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد مراكب شراعية فصلتها بعض الرياح عن الأسطول . ومع هذا دام القلق وتزايدت المخاوف .

بعد حين بلغنا مشارف صقلية . وقد ظننا البحارة محطة الرسو نظراً للسرعة التي كنا نسير بها ، وراحوا يقولون : «الآن تأكد الأمر ، لا بد أننا

ذاهبون إلى مالطا . ربما تصدق تكهناتهم هذه المرة ، سوف نرى .

وبينما نحن نسير كيفما شاءت الرياح وآلهة البحار ، لمحنة مرة أخرى في الأفق سفنا لم تبد لنا فرنسية . لابد أنها المفررة الإنجليزية المتقدمة ! أصدر الأميرالاي أمرا بالاستكشاف . فانطلقت سفيتنا من جديد ، ولمحت أربع سفن دمركية تحمل القمح لجزيرة مالطا . فاعترضنا مسيرتها ، بما جعلنا نعتقد أن تلك الجزيرة هي غايتنا . بل أصبحنا شبه متأكدين من هذا .

هيات لنا الرياح الاقتراب من هذه الجزيرة الشهيرة التي رحنا ننظر إليها وكأنها الأرض الموصودة وخاتمة مشوارنا . في هذه الأثناء ، لمحنة مراكب شراعية كثيرة . قال أحدهم : إنه الأسطول الإنجليزي ، بينما طمأنه آخر بأنها سفن فرنسية ، وما لبثت شكوكنا أن تبددت بعد أن تعرفنا على السفينة لاكورايجور المكلفة بحراسة قافلة سيفيتا فيشيا التي ظلت محط اهتمامنا الدائم منذ أن ارتحلنا .

أخيراً لحقت بنا وهي في خير حال دون التعرض لأي هجوم أو تكبد أي خسائر ، فكانت سعادتنا غامرة . وعلى الرغم من الوجود القوي للإنجليز في البحر الأبيض إلا أن الحظ حالفنا ولم نلقهم . لقد قالها الجنرال : «الأقدار تقف إلى جانبنا» فكان قوله حقاً . كان هذا رأى الجيش أيضاً حينما بلغنا الجزيرة مساء الواحد والعشرين من فلوريال الموافق التاسع من يونيو .

وقد استغللنا ظلمة الليل لإنزال بعض الفرق على الشاطئ ، وأقمنا هذه العملية في اليوم التالي . وحينما رأى المالطيون مناورتنا ، اتخذوا وضع الاستعداد للدفاع ، وراحوا يمحطوننا بوابل من القنابل والقذائف

المدفعية والرصاص . ولم يندهش جنودنا ولم تفتر عزيمتهم ، بل مضوا قدماً تحت حماية زوارق الإنقاذ المدفعية ، وهرعوا إلى معاقلة العدو ، وراحوا يقتلون ويأسرون كل من اعترضوا طريقهم أو قاوموهم .

غير أن العدو تفهقر ليتخذ لنفسه مواقع جديدة النظراً لمزيد من الهزائم . أما الفرنسيون ، الذين اعتادوا طرق الحديد وهو ساخن ، فلم يكتفوا بهذه الانتصارات الأولية ، بل مضوا قدماً ، كدأبهم دوماً ، لملاحقة العدو وحراسهم على جنوبهم ، يحصدون الانتصارات الواحدة تلو الأخر .

وبعد قتال دام أربعاً وعشرين ساعة اضطر المالتيون للاستسلام . وترك الفرنسيون أسلحتهم ، وسلمسونا مدينة وجنيرة مالطا دون قيد أو شرط . (ويطلق على المدينة اسم قاليت^(١))

دخلناها في الرابع والعشرين من بريريال الموافق الثاني عشر من يونيو عام (١٧٩٨م) وما لبث الأسطول أن تبعنا في اليوم التالي ، أى في الخامس والعشرين منه . ولم تكن دهشتنا بسيطة ونحن نرى أنفسنا وقد أصبحنا سادة مدينة تتمتع بهذا القدر من القوة ، نظراً لموقعها على ضفاف البحر ، محاطة بمخاريس من المدافع المنتصبة ومحصنة بأبراج منيعة .

لقد كان هؤلاء المدافعون بشس الجنود ولم يكن قائدهم يماثل لافاليت في عظمته . وبالتأكيد لن يسلبنا أحد هذه الجزيرة وقد أصبحت تحت الحماية الفرنسية ، اللهم إلا إذا اجتاحتها المجاعات أو خائنا أحد .

أما حاكم مالطا البارون هومبيش فقد رضخ لنا بعد أن وعدناه بنفقة إعاشة قدرها ثلاثة آلاف فرنك ، تدفعها من خزانة الجمهورية الفرنسية ،

(١) لأن مدينة مالطا تقع وسط الجزيرة واسمها قاليت .

مع إعطاء سبعمائة فرنك للفرسان السفنسيين الأصل إلى أن يتقرر مصيرهم
فى مجلس رئاستنا .

وصف شعب مالطا

سرعان ما أدركنا من خلال طباع شعب مالطا أننا لم نعد فى قلب
أوروبّا ولا وسط الحضارة . فسقامة وجوههم المكفهرة الكثيبة ، ونجنبهم
نظراتنا ومجتمعاتنا جعلتنا نشعر أنهم لا ينظرون إلينا بعين الارتياح .

كانت جميع البيوت مغلقة . كما أشاعت الشوارع المهجورة الحزن
والأسى فى نفوسنا . يا لهذا البلد الكريه !

لا يمكن أن يكون فى العالم مكان أشد بشاعة من هذا . ولكننا سوف
نرى فيما بعد كم كنت مخطئاً .

كانت النساء المتشحات بغطاء رأس أسود فى غاية الكآبة ولم يكن
يثرن سوى مشاعر الاحتقار أو الازدراء على أحسن تقدير . فعقدنا كل
آمالنا على رحلتنا إلى مصر . فكم ألهمت قصص التاريخ خيالنا ، بجعلها
كل فتيات هذا البلد فى سحر وجاذبية كليوباترة . وقد كان وصولنا إلى
مصر وإقامتنا فيها سيّئاً فى إفاقتنا من أوهامنا حتى أننا صرنا نتحسر على
شواطئ بو وتيبر وريين واودير .

وكم لعتنا الوصف المخادع لمؤلف كتاب «خطابات عن مصر» ! ولكن
لنرجع إلى قصتنا وخط سيرنا .

فبمجرد أن وضعت مالمطا على الخطة التي أعدها الجنرال المسئول ،
حتى تركنا بها حامية قوامها ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف شخص بقيادة
الجنرال فوبوا ، ثم مالبثنا أن أبحرنا يوم التاسع والعشرين من بريرال
الموافق ١٧ يونيو .

وقد استسلمنا طوال مسيرتنا لنفس التكهات والأحاديث التي أثارت
خوابنا في طريقنا من تولون وحتى مالمطا . فراح البعض يقول «سوف
نعود أدراجنا إلى صقلية» فيرد آخرون «لا ، ألا ترون أن الاتجاه الذي نسير
فيه يقودنا صوب كاندى؟ فتستطرد مجموعة أخرى قائلة «إنكم لمخطئون ،
نحن نتجه إلى مصر» . كان هذا هو أكثر الآراء سوادا وقد كان له أساس
من الصحة . ثم وضع الجنرال حداً لجميع منازعاتنا وقلقتنا بالبيان التالي :

١٢ يوليو (١٧٩٨م) البيان الثاني لبونابرت

مركز القيادة على متن السفينة «اوريون» ، ١٤ ميسيدور من العام
السادس .

من بونابرت ، عضو المجلس القومي ، والقائد العام
أيها الجنود :

ستقومون بغزوة سيكون لها أبلغ الأثر على الحضارة والتجارة في
العالم . وستكون أكبر ضربة توجه لإنجلترا فسي انتظار أن تفضوا عليها
بالضربة القاصمة . ستكون المسيرة شاقة ، وستخوضون العديد من
المعارك ، وسيكون النصر حليفنا لأن الأقدار في صالحنا .

فالماليك ، الذين يفضلون التجارة مع الإنجليز دون سواهم ، والذين
أمعنوا في إذلال مفاوضينا ، واشتد طغيانهم على سكان النيل التعساء ،
سيصبحون بعد وصولنا ببضعة أيام ، أثرا بعد عين .

اعلموا أن الشعوب التي نحن بصدده العيش معها هي شعوب محمدية ،
وأول أسس إيمانهم هي شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .
لا تعارضوهم ، وعاملوهم مثلما عاملتم اليهود والطلائقة ، راعوا مفتى
ديارهم وأئمتهم كما راعيت الأقباط والرهبان ، ولتنظروا إلى احتفالياتهم
وطقوسهم التي شرعها القرآن ، ولمساجدهم ، بنفس عين التسامح التي
أوليتموها للأديرة والمعابد اليهودية ، لدين موسى والمسيح .

لقد كانت الفيالق الرومانية تحمي جميع الأديان . وسوف تجدون في
هذه المنطقة عادات تختلف عن تلك التي عهدتموها في أوروبا ، فعليكم أن
تألفوها . وتعلموا ، أن الشعوب التي نحن بصدده التوجه إليها تعامل المرأة
بصورة تختلف عنا ، فقط تذكروا أن المختصب أينما كان ، إنسان
مشوحش . وأن النهب ، وإن لم يكن إلا فئة قليلة من الرجال ، إلا أنه
يسربلنا بالعار ويدمر مواردنا ويجعلنا أعداء الشعوب التي من مصلحتنا أن
نتخذها أصدقاء .

أول المدن التي سوف لمحاتها ، شيدتها الإسكندر . سيكون لنا في كل
خطوة ذكريات عظيمة ، خليقة بإثارة فخر الفرنسيين .

بونابرت

بعد أن تيقنا بهذا الحديث من أن مصر هي هدف هذه الحملة ، رحنا
ندعو إلى أن تكمل حملتنا العظيمة المجيدة بالنجاح . أخيراً سوف نرى هذه
الأرض العتيقة ، مهد العلوم والفنون ، يالها من فرحة ! سوف نشهد
هذه الوديان التي قاد فيها بنو إسرائيل قطعانهم . تلك الآثار الخالدة
صنيعة قدرة الفراعنة ، هذه الأهرامات ، والمسلات ، وأطلال المعابد
القديمة ، هذه المدن ، هذه البقاع التي شهدت مفاخر المقدونيين والروم

والمسلمين وأقدس ملوكنا ! كم من الأشياء كفسيلة بأن تلهب خيال وشجاعة ضابط فرنسي حظه من العلم قليل ! ليتنا نصل سريعاً ، فكم نحن بشوق كى نطأ بأقدامنا هذا الثرى ، مثلما فعلت من قبلنا جمحافل الجيوش المقدونية والفيالق الرومانية . هذا التراب الذى شهد معارك الحروب الصليبية المقدسة . كم نتوق للتفوق على الأبطال الوثنيين ، وللثأر لدماء المسيحيين أسلافنا .

هكذا ، رحنا نتفاخر بأننا سنعيد الحضارة إلى هذا البلد ، ونعيد السيادة للعلوم والفنون ونحقق الوفرة والرخاء والخصوبة والسعادة . سوف تعوضنا تلك المستعمرة الجديدة عما تكبدناه من خسائر من جراء الدهاء الإنجليزى ، وما سلبنا إياه من بقاع فى العالم الجديد . كيف السبيل إلى التعيير عن تلك الأوهام الجميلة التى راحت تداعب أذهاننا فى هذه اللحظات وتحتل الجانب الأكبر من أحاديثنا ؟ هذه الرياح التى بدت مواتية لرغباتنا دفعت بنا صوب هذه المدينة التى لاحت لنا فى الأفق مآذنها وأبراجها . فأرسل الجنرال فرقاطة فى رحلة استكشافية . وسرعان ما رأت سفينة مصرية قادمة فلم تتسحاشاها ، بل دنت منها . وبعد الاستطلاعات التقليدية فى مثل هذه الظروف اقتيدت السفينة الإسكندرية قهراً إلى سفينة القيادة .

لم يكن أمام القائد المصرى سوى الانصياع ، فقدم إلينا ، وأنبأنا عن الأسطول الإنجليزى الذى ظهر قبل يومين أمام ميناء الإسكندرية . حينئذ ، تجددت مخاوفنا «ماذا لو أنها اعتترضت إنزالنا مزيداً من القوات ؟» .

ها هى أشعة إنجليزية ! لا بد أننا سنلقى مقاومة متصلة ، بل وربما مشؤومة . صاح بونابرت : «أيها الحظ ، أفتخلى عني ؟ أمهلنى خمسة أيام فقط . . . ا» .

تابعنا مسيرتنا يحدونا عزم شديد . وبلغنا شواطئ مصر دون معوقات . ولم تكن السفينة التي بلغنا بها سوى سفينة فرنسية يطلق عليها اسم «لا جوستيس»^(١) جاءت لتنضم للأسطول . وقد كانت حينئذ في طريقها لاستدعاء قنصلنا في الإسكندرية .

عند حلول الليل ، أرسينا بمجازاة الشاطئ زوارق مزودة بمدفعية على جوانب الإسكندرية . وتحت حمايتها بدأت بعض الوحدات التابعة لمختلف الفرق تباشر عمليات الإنزال على الرغم من مقاومة الفرق المصرية وجزء من شعب الإسكندرية . تلك الفرق تسمى بالماليك^(٢) ، وهي من سلاح الفرسان وتعمل لحساب البسكوات وفي خدمتهم . كلها تغطي صهوة خيول أسرع من الريح ، وأفرادها مسلحون دائماً بخدرة وروج من المسدسات وسيف فائق الجودة . لا يوجد من يستطيع التغلب على هؤلاء الخيالة . وعلى الرغم من مهارة فرساننا إلا أننا لا يمكن أن نضاهيهم بهؤلاء بسبب فارق الخيول .

تقاسم كل من الجنرال بون وكليير ومينو قيادة القوات المؤلفة من ألف وثلاثمائة رجل تقدموا صوب الإسكندرية دون مدافع أو فرسان . بينما استمر باقي الجيش في عمليات الإنزال ، وراحت قوات المدفعية تنظم صفوفها في اتجاه الإطلاق . وقد بادر ثلاثمائة من الخيالة العرب الراضين في الأماكن المرتفعة الواقعة حول المدينة بإطلاق أولى طلقات بنادقهم ، ثم انسحبوا في عجلة عند رؤيتهم وحداتنا الثلاث . ومالبث بونابرت أن بلغ أسوار مدينة العرب ، التي يسمونها المدينة العتيقة ، وهيأ نفسه لبدء المفاوضات ، حينئذ كشفت سرية عن مدفعتها بصورة مباغتة وفتحت النيران على جنودنا ، فحق عليهم جلب النصر لنا .

(١) ومعناها «العدالة» (المترجمة) .

(٢) مملوك كلمة تعنى مكتسب ، مشترى .

رددنا على طلقاتهم بسقصف عنيف ، وطرحنا أرضا هذه الحشالة من
الفلاحين الذين كان الماليك يحتمون بهم . ولم تلبث قواتنا المدفعية أن
ساندتنا بقذائفها . وصرعان ما فروا من أمامنا واحتشدوا بعيداً ولحقوا بفرق
كانت للتو قادمة ، الأمر الذى بث الطمأنينة فى نفوسهم وشجعهم على
خوض قتال جديد . ومن جانبنا ، ظلت تتلقى بصفة مستمرة إمدادات
إضافية ، وانتظرت بكل الثبات عدواً ظنوا أنه لا يقهر نظراً لسرعة خيوله .
هجم العدو للمرة الثانية ولقى هزيمة أنكر من الأولى فانسحب ،
وحاول عدة مرات النيل من كتائبنا التى راحت فى كسل لحظة تزداد عدداً
وعدة . وما لبثنا ان اقتحمنا المدينة واستولينا عليها عنوة . فتسلق
البعض الأسوار ، بينما اقتحم آخرون الأبواب .
وقد عسكر البعض منا خارج المدينة ، والبعض الآخر داخلها .
أما مركز القيادة فاتخذ من سكن كبراء المدينة مقراً له .

سقوط الإسكندرية :

دخلنا الإسكندرية فى الخامس عشر من ميسيدور من العام السادس ،
الموافق ٣ يوليو .

بث الإنجليز الفزع فى أرجاء المدينة قبل وصولنا ، وصورونا
فى صورة الغارى المتوحش الدموى المغتصب عدو الشرائع جميعها ، كما
توقع سكان الإسكندرية أن نتقم منهم شر انتقام بعد أن قاومونا وشعروا
أنهم استحقوا انتقامنا . كل هذا جعلهم يعتقدون أن الدمار سيلحق
بمدينتهم بعد أن تم الاستيلاء عليها ، وأننا سنعمل فيها الحديد والنار طبقاً
لقانون الحروب .

وكم كانت دهشتهم بل إعجابهم حينما رأوا اعتدالنا ورقتنا وإنسانيتنا التى طالما شككت فيها بعض الدول . كما لمسوا احترامنا لدينهم حتى وإن شاع عنا أنه لا دين لنا ، إضافة للحماية التى كفلناها للأشخاص والممتلكات . كل هذا أسهم فى بث الطمأنينة فى نفوس هذا الشعب المفزوع المخذوع ، لا سيما بعد أن استمعوا إلى البيان التالى الصادر عن القائد العام .

الإسكندرية - فى ١٥ ميسيدور من العام السادس من بونابرت عضو المجلس الوطنى والقائد العام للجيش إلى الشعب المصرى

منذ زمن بعيد ، دأب المماليك الذين يحكمون مصر على إهانة الأمة الفرنسية ، وإذلال تجارها . وقد حانت لحظة العقاب . فمنذ أمد بعيد وهذه الخثالة من العبيد الذين تم شراؤهم من القوقاز وجورجيا ، يمعنون فى طغيانهم ويستبدون بأفضل أجزاء العالم . ولكن الله ، والأمر له ، قد قضى بأنه آن الأوان لنهاية ملكهم .

يا شعب مصر ، سيقولون لكم إننى جئت للقضاء على دينكم ، فلا تصدقوهم . بل قولوا لهم إنما جئت لأرد لكم حقوقكم ، وأعاقب مغتصبيكم ، وإننى لأوقر الله ورسوله والقرآن أكثر من المماليك .

قولوا لهم : إن الناس جميعا سواسية أمام الله ، وإن الحكمة والمعرفة والفضيلة هى فقط التى تقيم بينهم الفروق . فأين هى تلك الحكمة والمعرفة والفضيلة التى تميز المماليك ليكون لهم كل ما من شأنه جعل الحياة رغدة ناعمة ؟ فما من أرض طيبة أو عبد جيد أو نخيل أصيلة أو ضيعة جميلة إلا وكانت ملكا للمماليك .

فإن كانت مصر ضيعتهم ، فليطلبعوننا على الحجة التي منحها الله لهم . ولكن الله عادل رحيم بعباده .

على جميع المصريين أن يأخذوا على عاتقهم مهمة إدارة جميع المناصب . وعلى أكثرهم حكمة وعلمًا وفضيلة أن يحكموا ، وسوف يهنا الشعب . لقد كان لكم يوما مدن كبيرة وخلقجان واسعة ، وتجارة عظيمة . فمن قضى على كل هذا إلا طغيان وظلم المماليك ؟

أيها القضاة والمشايخ والأئمة ، قولوا لقومكم إننا سنكون أصدقاء المسلمين بحق . ألم نقض على السبابا وفرسان مسالطا ؟ لأن هؤلاء الأعداء اعتقدوا أن الله أراد منهم قتال المسلمين . ألم تكن دوما أصدقاء للسلطان ، سدد الله خطاه ، وأعداء لأعدائه عبر القرون ؟ ألم يكن المماليك دائما على العكس من هذا متمردين على سلطته بل ولا يعترفون به ؟ ذلك أنهم قوم تقودهم أهواؤهم .

فأما من كان معنا ، فسوف يسعد سعادة جمّة ! سوف تزدهر ثرواته ويزداد رفعة . وأما من بقى حياديا فسوف يهنا كذلك ! فأمامه وقت كى يتعرف علينا وسوف يكون فى صفنا .

ولكن الويل ، كل الويل لمن سيجنحون إلى صف المماليك ، ويتسلحون ليقاتلونا . فلن يكون ثمة أمل بالنسبة لهم . فالموت سيكون حليفهم .

المادة الأولى :

على جميع القرى الواقعة فى نطاق الأماكن التى سيجتازها الجيش أن توفد نائبا عنها يعلن ولاءه لقادة الفرق العسكرية ويتعهد بإعلاء رايات الجيش .

المادة الثانية :

جميع القرى التى ترفع السلاح فى وجه جيوشنا سيكون مصيرها
الحرق .

المادة الثالثة :

على القرى الخاضعة للجيش أن ترفع راياته إلى جانب رايات
السلطان .

المادة الرابعة :

على المشايخ القيام بتشجيع جميع ممتلكات وبيوت ومحال الممالك ،
مع العمل على عدم تعرض أى منها للنهب .

المادة الخامسة :

يستمر المشايخ والقضاة والأئمة فى الاضطلاع بمهام وظائفهم . ويلزم
جميع السكان منازلهم ، وتقام الصلوات - كما هى العادة - ولييسهل
الجميع إلى الله وليشكروه على هلاك الممالك ، وليهتفوا : «المجد
للسلطان ! المجد للجيش الفرنسى الصديق ! الويل للمالك ! والخير كله
لشعب مصر !» .

بونايرت

كان لهذا البيان أثر سريع محمود ، فقد بدد المخاوف حتى أن الشعب
أظهر لنا مودة عن ذى قبل ، وعرض علينا خدماته ومساندته . وسرعان ما

احتلت سفن القافلة الميناء . أما سفن الأسطول فبلغت مرسى أبوقير لتتم إنزال سلاح المدفعية . وقد انتشرت فرق القذائف فى جميع النقاط الحصينة بالميناء ، بل إن العرب البدو الذين قاوموا المقرزة فى الصباح ، أرسلوا ثلاثين شخصا ممثلين عنهم يهدون الخبز للجنرال تعبيراً عن تحالفهم . وقد تناول الجنرال الفرنسى هذا الخبز ، ليثبت حسن نواياه ، بل وأهداهم بعض الهدايا . ومضى العرب وكلهم عرفان بالجميل ، وإن لم يمنعهم هذا من نهب جميع الفرنسيين الذين صادفهم فى طريقهم .

البدو

وقبل أن أمضى فى حديثى ، أعتقد أنه لا مانع من أن أعطى للقارئ فكرة عن شعب مصر . يسود الاعتقاد بأن العرب البدو هم السادة السابقون لهذا البلد ، وأن المماليك قد طاردوهم مثلما فعلنا نحن أيضاً . وهم دائمو السكنة فى خيام بالصحراء . قادتهم أمراء يعقبهم المشايخ من حيث الأهمية ، وهم يدعون أنهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم وهاجر .

ليس لهؤلاء البدو من مهنة إلا السرقة والنهب والقتل وقطع الطريق . فالويل للمسافر الذى يقع بين أيديهم لا سيما إن كان الأضعف ! وهم يمتطون فى كل مكان صهوة خيول عربية مثل المماليك . ولا يفوقهم أحد فى الرذائل . وأشد ما أدهشنى أن كل بدوى يمتطى حصاناً ومسلح ببغدارة رمسدين وسيف فائق الجودة . وتصابه دائماً أمة شابة ، تمسك بعنان الجواد بيد وتبعه مترجلة لا تتركه أبداً ، أيا كانت سرعة الجواد .

السكندريون

أما سكان الإسكندرية ، وهم أول من وقعت عليهم عيني من الأفارقة ، فتلک هى الصورة التى انطبعت فى ذهنى عنهم :

بصفة عامة هم أشداء ، مفتولو العضلات ، طوال القامة ، بشرتهم بين السمرة الحمرة والداكنة ، لا يستر أجسادهم سوى بعض الأسمال البالية التي تلتف بصورة غريبة حول أجسادهم . ويضعون على رأسهم خرقا ملفوفة كعش العصافير ويسمون لها «عمامة» . وهم لا يرتدون جوارب أو أحذية . كما يسير البعض كما شكلتهم الطبيعة ، فيبدون صنيعتها كاملة . تلك هي الطبقة الفقيرة من الشعب ، وهم مزارعون يعملون لدى المالك الذين يملكون كل شيء من بيوت وأراضٍ وممتلكات يحصلون منها على عائد سنوى كبير . ولا يختلف رداء الأغنياء عن الفقراء إلا بجودة وجمال الثوب . فهم يضعون فوق ثوبهم رداء من الحرير الثمين يشبه رداء الرهبان الفرنسيين ، مع الفسارق بأن رداءهم باهظ الثمن . وسراويلهم فضفاضة حتى أنها تحتاج - على الأقل - لعشرة أو اثني عشر ذراعاً من القماش لتفصيلها . أما أحذيتهم فعبارة عن خف مغربى ضخم .

وينم شكل وخامة عمامتهم عن ثمنها الباهظ . وهم يحلقون شعرهم كلما نما ، ولا يتركون سوى خصلة صغيرة أعلى الرأس . ويعلمون هذا بأن محمداً سوف يأتيهم فى لحظاتهم الأخيرة ليجذبهم منها ويقودهم إلى الجنة . أما لحاهم ، فيطلقونها ولا يحلقونها أبداً .

وترتدى المرأة رداء طويلاً أزرق اللون لا يغطى إلا مساحات قليلة من جسدها وهو يكاد يكشف تماماً عن صدرها فيجعله دائماً معرضاً لنظرات الجميع . ولكن الأمر يختلف بالنسبة للوجه ، فهي تمعن فى إخفاؤه بطريقة سوداء مثبتة عند العنق ، وأخرى تعلو الرأس مثبتة بمشابك للشعر ، بحيث لا تبدو منها إلا عيونها ، وكأنها نخوذات فرساننا الشجعان بمقدمتها المتحركة والتي كانوا يضعونها خلال المباررة بالرماح . وثوب المرأة غالباً من الرداءة بحيث إنه لا يستر ما هو بحق جسدير بستره أكثر من الوجه . والمرأة تسير حافية مثل الرجال ، وبشرتها تعادل فى سمرتها بشرتهم . وفى كافة

القرى ، تسير الفتيات فى سن الثانية عشرة إلى الرابعة عشرة عرايا ، فقد بلغ بهم الفقر مبلغه حتى أصبحوا على هذا القدر من الفحش الذى يصدى عاداتنا وتقاليدها .

أما بيوت هذا البلد فهى متواضعة مشيدة بالطمى ، ولا يوجد ما يفوقها قدارة . وسكانها لا يملكون من أثاث وأدوات سوى بعض الأواني الفخارية وقصعة وبضع ملاعق ومغارف خشبية . وهم يجهلون الدواليب نظرا لنقص الأخشاب والنجارين . ويتغذى هؤلاء القوم على بعض من لبن الماعز ، وقطع من العجين المخبوز فى الشمس . أما القمح الذى يعرفونه ويزرعونه مرتين فى العام ، فلا يتم الاستفادة منه إلا فى المدن لعدم وجود طواحين . وقد حرم عليهم محمد الذين يتعبدون شريعته استخدام النييل ، وبالتالي فهم لا يشربون سوى الماء ، وفى بعض الأحيان ، على سبيل التسرية ، يشربون مشروباً مصنوعاً من عصير بلح النخيل ، يكاد يقترب فى مذاقه من مشروب العرق سوس الذى نعرفه .

هذه هى العادات المتبعة فى الريف بل فى المدن التى تضم شوارع مظلمة فى معظمها بغطاء أو بسقيفة من سعف النخيل أو بلحاء الشجر .

وقد أدهشتنى كذلك طريقة المصريين فى الطعام . فموائدهم عبارة عن قطعة كبيرة من الجلد على هيئة دائرة يفرشون بها الأرض على قطعة من الحصير . يجلس الرجال أصحاب المقام الأعلى حول تلك المائدة مربعين أقدامهم كما يفعل الحائكون فى بلادنا .

أما من هم دونهم فيسركعون أو يجلسون القرفصاء . وهم لا يستخدمون الشوك على الإطلاق بل ويمسكون عدم استخدامها من العادات إذ يقولون إن شفاعته محمد ستحق لمن يأكلون بأصابع اليد الثلاثة . وعلى هذا ، فهم يتناولون جميع اللحوم بأصابع اليد اليمنى دوماً ، فاليسرى مخصصة للاغتسال بعد قضاء الحاجة . . . واللحوم تقطع

وتسترك حتى تنضج تماماً مما يسهل فصل نساثرها بسهولة ،
فلا تستخدم السكاكين بدورها . كما أنهم يقدمون الشريد واللحم المسلوق
والحمر والقديد الحلوى والسلطات والفاكهة فى نفس الوقت . وهم لا
يشربون إلا إذا استدعت الضرورة القصوى شرب الماء . وما إن فرغوا من
الطعام حتى ينهضوا حامدين ربهم ، ويشربون الماء ويغسلون أيديهم
بالصابون . ثم يتناولون القهوة ويدخنون الغليون .

أما العامة ، فيأكلون بصورة أقل . فهم يأخذون حفنة من اللحم
ويضعونها فى قصعة خشبية كبيرة مع الأرز الذى يكورونه فى قبضة يدهم
ثم يضعون هذه الكرات فى فمهم فتملؤه عن آخره . فإذا تبقى شيء فى
أيديهم أو على ذقونهم ، ينفضونه فى القصعة ولا شيء غير هذا . وبعد
أن فرغوا من الطعام ، يشربون جرعات كبيرة من الماء من جرة يتبادلونها
فيما بينهم . وبعد أن يغسلوا يدهم بالتراب بدلا من الصابون ، يقومون
كذلك بتدخين الغليون أو شرب القهوة .

أما اليخنى الذى يعد فى قدر عادى جداً ، فليس سوى أرز تم غليه
بعض الوقت فى ماء ساخن أو فى حساء اللحم مع الزعفران والزبيب
والبارلاء والبصل حتى ينضج بعض الشيء ، فيغطى جيدا ويوضع بالقرب
من النار حتى يتم نضجه ويزداد حجمه . حيث يضاف إليه القفل وبعض
السكر أحيانا . وهم يضيفون الأرز أيضا للشريد المكون - عادة - من قطع
من الضأن أو الماعز أو الدواجن ، وهذا ما يسميه جنودنا «عك» ، وهى
كما نرى ليست بالوجبة الجذابة .

ولطالما تحدث المؤلفون السابقون عن الحياة أكلى الثعابين ، وأقصر
وجودهم بعض الرحالة المعاصرين . ولكن فيما يخصنى لم أر سوى رجال
عرضون ثعابين توازى فى ضخامتها تلك الساق التى يلفونها حولها ، وقد
وضوهم على المكوث فى حلقات دائرية دون أن يصيبهم من هذا أدنى

ضرر . وهم فى هذا يشبهون رعاة الدببة فى فرنسا . ولكننى أبدا ما رأيتهم يمزقون الثعابين بأسنانهم ويلتهمونها .

كما أنهم فى مصر لا يحثرون الأرض . فحينما يتراجع النيل ، وبينما الأرض ما تزال رطبة ، يتم بذر الحب على الطمى دون حاجة لزراعته .

واننى أترك لفطنة القارئ فرصة تخمين إن لم تكن إقامتنا فى مالطا على فظاعتها أرحم بكثير مقارنة بهذا البلد . أعتقد أنه من غير العسير عليه إدراك أن الإسكندرية التى أملنا أن تحمل لنا أفضل الذكريات وأكبر المتع لم تكشف لنا إلا عن هذا البؤس الكريه وعن هذا القبح وهذه القذارة . كل هذا جعلنا نفتقد بشدة طيب العيش فى وطننا ونتوق للعودة إلى أوروبا . فلقد خرجنا للأسف من وضع سيئ لنقع فى أسوأ منه . فالنساء على بشاعتها فى مالطا بدت لنا وكأنها إلهات الجمال مقارنة بنساء الإسكندرية . فبقدر ما احتقرناهم فى ذلك الحين، بقدر ما أصبحوا فيما بعد محط رغباتنا .

ورحنا نقول كم تدهور الحال برعايا وريبيات كليوباترة ، الجميلة ! ألسنا على حق فى خوفنا من أن تزداد الأمور سوءا إذا ما استمرت فى هذا التدهور ؟ صحيح أن رضانا لم يكن بحجم انتصاراتنا !

لم يبق فى الإسكندرية من آثارها القديمة سوى عامود السوارى فى الجنوب وملتصا كليوباترة واحدة مازالت قائمة أما الثانية فممتدة على الأرض . وقد جلست عليها ورحت أتجول فوقها وكأننى قزم صرع عملاقا وراح يطؤه بقدميه باستمتاع بالغ . ياله من رمز معبر لمصير المفاسخ الإنسانية .

أما عامود السوارى فيشبه إلى حد كبير عامود ميدان فاندوم بباريس ، مع الفارق بأن تاجه كورنشى وجزعه مكون من كستلة واحدة . ويعتقد السيد

دولوميسو ، أن هذا العامود أقيم فى العهد الذى تلى حكم قسطنطين ، فتاجه وقاعدته يحملون - فيما يرى - ملامح تدهور الفن المعماري فى هذا العصر ، أما الجرزع فيتمى فيما يسدو لعهد سابق كان الفن فيه فناً خالصاً .

وتشير المسلة القائمة للمكان الذى شيد فيه قصر كليوباترة . . ففى هذا المكان ، قامت الملكة المشهورة بجمالها ومواهبها وحيلها بإيقاع انطونيو فى حبائلها ، فقوضت نشاطه وغيت وعيه وأوقعتنه فى أحضان الشهوات واضطرته للهروب فى رحلة نيلية بينما كان واجبه يقتضى أن يوجه أشرعه شطر روما التى كادت تغلق دونه بعد فعلته تلك . . بالقرب من تلك الأعمدة ، حملت ملكة مصر المتعجرفة وهى جالسة على عرش من الذهب لقب حرم انطونيو الذى ضحى بمجده من أجلها . وقد انغمست فى الملذات حتى فقدت سطوتها . . وأسلمت نفسها لأفعى سامة عقرتها ، بينما غمد انطونيو سيفه فى جسده ليمنح بموته الأجيال اللاحقة نموذجاً فريداً وعبرة لعواقب شهوات العشق الوخيمة .

كنا سادة مالطا بموقعها الهام ، بينما لم يبق من الإسكندرية سوى أطلال مدينة كانت ذات يوم مزدهرة ومشهورة ، ونقائص شعب من العبيد منعدى العقول ، سرعان ما أيقنا استحالة أن نجعله أكثر تحضراً أو أن نعيد إليه مجده القديم . بل إن هذه الحملة التى قمنا بها، لم تكن تساوى - فى رأينا - ما تكبدناه فى سبيلها من فقد لبعض رجالنا . فقد أصيب مائة مقاتل ولقى السيد مارس ، وهو قائد لواء ، مصرعه هو وبعض ضباط الصف والعسكريين . كما أصيب الجنرال كليبر ومينو والمساعد أول بسكال بجروح على درجة من الخطورة .

الخامس من يوليو عام (١٧٩٨م)

تحركت الجيوش فى السابع عشر من ميسيدور لمطاردة المماليك ، وقد سار الجيش فى ثلاثة اتجاهات : الاتجاه الأول صوب اليمين أما الوسط فأخذ طريقه إلى دمنهور بينما سار الثالث شمالاً بمحاذاة البحر متجهاً إلى رشيد . وكنت ضمن هذه المجموعة الأخيرة ، ومن ثم لا أعرف على وجه اليقين ما دار على الجبهتين الآخرين إلى أن نجتمع لاحقاً . وكل ما أعرفه هو أن البدو العرب ظلوا يلاحقون جيوشنا ويتحرشون بها يومياً طوال مسيرتها ، ولم يسلم من أذاهم كل من اضطرت ظروفه سواء بسبب التعب أو المرض ، للتخلف عن الصفوف والبقاء فى مؤخرتها . لقد عانوا كثيراً بدورهم مثلما عانينا من الحر والعطش ونقص مواد الإعاشة على الرغم من عقدنا اتفاق سلام مع البدو . وتحذر الإشارة إلى أن هذا الاتفاق لم يعرف به الجميع بمجرد توقيعه ، وكان لابد من بعض الوقت قبل أن ينتشر الخبر ويصل إلى جميع الأنحاء القصية . ونظراً لجهل بعض القبائل بوجوده وفحواه فقد ظلوا يمارسون أعمال قطع الطريق علينا وعلى المماليك كلما سنحت الظروف .

غادرت فرقتنا ، وهى فرقة كليبر ، بقيادة الجنرال دوجا الإسكندرية يوم ١٨ ميسيدور بهدف الاستيلاء على رشيد ، وهى بلدة واقعة على الفرع الغربى من النيل فى أحد روايا الدلتا . وما كدنا نبتعد عن الإسكندرية بمقدار ساعتين حتى وجدنا أنفسنا نسير فى صحارى من الرمال ، لقينا فيها جميع صنوف التعب والألم والعطش .

سرنا تحت وطأة شمس لا تغيب حيث لا سكن ولا مصدر لمياه عذبة يروى ظمأنا ، يلفحنا لهيب شمس حارقة وسماء مشتعلة . وقد علمت جماعة من رفاقنا من بعض المسافرين أن ثمة مصادر مياه عذبة بالقرب من

البحر فأخذنا نحفر الأرض ولم نجد سوى ماء أجاج لا يفى باحتياجاتنا . .
ولقى العديد من الجنود مصرعهم عطشاً ، بينما مات آخرون من جراء
شربهم لتلك المياه دون اعتدال أو تروى . ولم نعثر على مياه صالحة
للشرب إلا حينما دنونا من أبى قير .

أقمنا مخيماتنا بالقرب من هذه المدينة الصغيرة ثم واصلنا السير فى
صباح اليوم التالى . كان علينا اجتياز فرع صغير للبحر يفصل رشيد عن
الإسكندرية .

لم يكن هذا اليوم شاقاً مثل البارحة ، فقد اضطررنا للتوقف انتظاراً
للمراكب التى ستعبر بنا ولم تكن قد وصلت بعد . وما إن اجتزنا البحر
حتى أقمنا خيامنا ، ومكثنا بالقرب من هذه الشواطئ حتى رحلنا عنها
يوم ٢٠ منه فى الساعة الثالثة صباحاً . وقد لاقينا فى هذا اليوم أسوأ ما يمكن
أن يفعله بنا العطش والحر . وما إن بلغنا رشيد حتى وقع أغلينا صرعى
التعب ، والتهمنا كافة المرطبات التى وقعت تحت أيدينا من ماء وأعشاب
ورطب . وقد باعنا اليهود بعض رجايات من نبيذ ردى بثمان باهظ .

أما رشيد ، التى بدت لنا لأول وهلة مدينة رائعة الجمال ، ما لبثت
بعد شهور من إقامتنا فى مصر أن رسخت فى أذهاننا تلك الفكرة السيئة
التي كونها عن هذا البلد .

رشيد

هى مدينة مشيدة بصورة عشوائية شأنها فى هذا شأن كافة المدن
المصرية . وهى ليست جديرة باسمها إلا بتجاريتها المزدهرة مع الدول
المجاورة ، وكذلك مع أوروبا التى تتواصل معها من خلال البحر الأبيض

المتوسط والتقاءه بالنيل . غير أن كل تلك الميزات لم تؤثر قط فى عادات سكانها التى لا تختلف فى شىء عما سبق أن وصفناه .

أقمنا فى رشيد يوم ٢١ من ميسيدور ثم غادرناها عند منتصف الليل . وقد تزودنا فى هذا اليوم ببعض المؤن من خبز وأشياء أخرى لازمة لسفرنا .

وقد لقينا من المنغصات قدراً أقل بكثير مما تكبدناه سابقاً . وقد أمدنا النيل باحتياجاتنا من المياه العذبة التى كان حرماننا منها قاسياً من قبل . كما أمدتنا الأرض التى رواها النيل وجعلها خصبة بفضل فيضانه بموارد لم تمدنا بها الصحراء التى اجتزناها لتونا .

أقمنا مخيماتنا يوم ٢٢ منه على ضفاف هذا النهر ، على بعد خمسة فراسخ من رشيد . ثم رحلنا فى اليوم التالى ، فبلغنا الرحمانية حيث لحقنا بمجموعتى الجيش الآخرين .

يوم ٢٤ ، تفقد الجنرال بونابرت الجيش بكامل هيئته وجعله يأمل فى عودة سريعة إلى فرنسا والانقضاء على إنجلترا ، فأأسانا هذا الوعد كل همومنا وأوجاعنا التى لسقيناها فى مصر . بل وجعلنا نواجه بنفس راضية كل ما كان ينتظرنا .

ما كدنا نصل إلى الرحمانية حتى تصدى لنا المماليك بهجماتهم الجزئية المتكررة . وقد حاول اللواء الخامس عشر الملقب بالتنين أن يهاجمهم غير أن سرعة خيولهم حالت دائماً دون الوصول إليهم وقتلهم بالسيوف .

فى نفس هذا اليوم ، لمحنا بالقرب من معسكرنا بعض المراكب المصرية المحملة بالمؤن للقاهرة ، وقد أرادت أن تسير فى النيل فتصدت لها كتيبة بحرية وأرغمتها زوارق محملة بالمدافع وسفن قلاعية مسلحة على العودة أدراجها . وقد لاقت هذه المراكب المصرية فى طريق عودتها زوارق

فرنسية أخرى أرادت أن تجبرها على الاستسلام أو على القتال ، فتظاهرت بالاستسلام ، ثم ما لبثت أن حاولت الفرار . فما إن انكشف خداعهم حتى أطلقنا عليهم وابلاً من المدافع والقذائف . ولكن الأمر خرج من أيدينا ، فقد لاذوا بالفعل بالفرار .

سرت منذ عدة أيام شائعة تفيد بأن المماليك وقد عرفوا في القاهرة بوجودنا في الإسكندرية ، قاموا باعتقال جميع الأوروبيين المقيمين بالمدينة ويعتزمون ذبحهم ، مما جعلنا نسرع في تحركاتنا .

معركة شبراخيت

استعدنا تمام الاستعداد لملاقاتهم . . وبعد اتخاذ بعض التدابير ، قام القائد العام بتكوين تشكيلات مربعة من وحداتنا وجعلها تتقدم تدريجياً . وقد حاول العدو القيام بعدة هجمات بسلاح فرسانه ولم يكن النجاح حليفه . فما كان منه إلا أن ولى الأدبار ثم عاود الرمح بخيوله في محاولة لاختراق صفوفنا . وأخيراً ظن العدو أنه وجد ثغرة يتفد منها عبر النيل ليصل إلى جيوشنا ، وما لبث أن اندفع بسطيش فخور بما اكتشف . ولكننا كنا أعدنا العدة لكل شيء . فما كاد يتقدم بضغ خطوات حتى عاجلناه بوابل من الطلقات النارية رشقه بها تشكيل فرنسي أعدناه فى كمين ، فسقط العديد من فرسان العدو صرعى على التراب المخضب بالدماء . بينما فر الآخرون وراحوا يحتسمون بزوارق ضخمة كان عددها ثمانية أو عشرة متمركزة على النهر ، وبالمدفعية المتمركزة على الشاطئ . غير أن تشكيلاتنا البحرية من جانبها أردتهم قتلى بطلقات المدافع . وما لبث أن ردت الزوارق المدفعية بقيادة مراد بك ، وبدأت المعارك البحرية . تأرجحت كفة النصر حتى كاد أن يكون حليف سفن العدو ، التي

كادت أن تتمكن من أقوى سفننا القلاعية ، لولا الظهور المفاجئ لبعض سفننا ، وتصديها لها بقوة حتى تمكنت منه . بينما تقدمت بعض التشكيلات تجاه سريتنا المدفعية الأرضية ، واستولت على المدافع .

وبعد أن شن العدو عدة هجمات متفرقة غير مجددة قرر أخيراً القيام بهجمة مكشوفة . تحرك سلاح فرسانه وانقض علينا بسرعة البرق ، فتركته وحدتنا يقترب حتى بلغ حداً معيناً ففتحت عليه تيرانها ورشقه بوابل من القذائف .

تحول الأمر إلى مجزرة مروعة ، ولم ينتظر الباقون ما سوف تسفر عنه الهجمات الأخرى التي كان مصيرها على أية حال هزيمة نكراء ، بل فروا سريعاً . ولا شك أن جيشنا مدين بهذا النصر لجلده وشدة عزيمته . فعلى الرغم من نقص الخبز والمضطبات إلا أن الجندي استطاع أن يستمسك بالصبر ، ولم تحول معاناته دون إظهار شجاعته التي طأها برهن عليها بالأدلة الدامغة . وقد زاد من سعادته بهذا النصر أمله في تحسن مقدراته .

وحرصاً من الجنرال على تلطيف هذه المقدرات ، جعلنا نسير بمحاذاة النيل حتى تكون مصادر المياه العذبة في متناولنا طوال الطريق . لم يكن من السهل علينا الحصول على الخبز ، الذي كان عملة نادرة . فالفلاحون المصريون لا يستهلكونه إلا بقدر ضئيل ، بل إنهم لا يعرفون كيف يستخدمونه . ولم تكن غللك ما نسد به رمقتنا سوى بعض القول الرديء ، وقد توفر لدينا - أحياناً - بعض اللحم الجاموسي الرديء ، مما اضطرنا إلى اللجوء إلى لحم الخيول عوضاً عنه .

بهذه الموارد الضئيلة ، واصلنا السير أيام ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ دون مواجهة أي أعداء سوى البدو الذين كانوا يتبعوننا من الخلف كما تتبع أسماك القرش السفن في البحار ، لذبح ونهب من تأخر أو تكاسل عن

الصفوف . بل إنهم كانوا يرمحون أحيانا بمحاذاتنا ليلقنوا اللذين ينزلون عن جموع الجيش نفس المصير .

وليس من العسير تبين كيف أن حالة الضيق الشديد التي لاحقتنا طويلا هيأت الظروف لحالة من القوضى والبليلة والسلب والنهب . ولم تنجح يقظة الضباط دائما في تجنب هذه الفعال . وقد فاق الضباط آنذاك في معاناتهم الجنود الذين كانوا يوفرون غذاءهم عن طريق السلب والنهب والعنف ، مما كان يضيع على الضباط أية فرصة لشراء ما يحتاجونه بسقودهم . وقد كانت قواعد اللياقة تمنعنا من تناول الطعام مع رؤسائنا ، فكانت النتيجة أنه بينما راح الجنود يتغذون بالحمام والدواجن ومسروقات أخرى ، اقتصر طعام الضباط لعدة أيام على حصة فول مقررة غير كافية .

لم نعان من قبل في أى مكان العوز والتعب على هذا النحو . ما بين سير أجبارى على رمال حارقة وحرمان من النبيذ والخبز والأغذية المفوية ، ثم إقامة المخيمات والمبيت طوال الليل وسط أعداء لا هم لهم سوى مفاجئتنا . . فلا يبقى لنا ساعة تغمض لنا فيها جفون أو ترتاح فيها الأجساد .

ألم تكن كل هذه العذابات مجتمعة كافية لإنهاكنا وجعلنا نفر من كل شيء ؟ حتى أن العديد من العسكريين تساقطوا تحت وطأة الجوع والعطش بينما أطلق البعض النار على رأسه يأساً^(١) .

وقد سألنا قارئ نافذ الصبر : «وما الذى حملكم على تحمل كل هذا ؟» وردى أن مثل هذه الأمور لا تخضع لمشيئة لأمثالنا . وعلى الجيش أن يكون مطيعاً وسليماً . وليس له أن يناقش أوامر قادته أو أن يتساءل عن عدالة الحرب التي يخوضها .

(١) شاهدنا أخوين يتمانقان ويمسكان ببعضهما ويلقيان بأنفسهما في النيل .

ولكن لتترك هؤلاء المغرضين جانباً باعتبارضاتهم التي لا طائل من ورائها ولنكمل أحداث رحلتنا وقصتنا .

السادس عشر من يوليو (١٧٩٨م)

فى الليلة من ٢٨ إلى ٢٩ من ميسيدور ، وقد أنهكنا الحر والتعب والنعاس ، ألقينا بأجسادنا على الأرض متكئين برؤوسنا على حقائقنا . وما كدنا نذوق طعم النوم إلا وتنبهت أسماعنا لصوت هذه الصيحة المحذرة : «إلى السلاح ! إلى السلاح» . فانتفضنا من مراقدنا ومارلنا نصغى لهذه الأصوات الكثيرة المقبضة ترددها حناجر خاترة القوى وكأنها قادمة من القبور لتعلن لنا عن مذبحه عامة حتى ظننا هدير مياه النهر أنات وملائنا الذين يلفظون أنفاسهم الأخيرة . ثم بدأت طلقات السيران تتردد حولنا بل وتصل إلى معسكرنا . . كسل شيء ضاع . . ولكن لنبدل غالبا حياتنا . التقطنا بنادقنا وقد انشغلنا بهذه الخاطرة ، وفى نفس اللحظة ، تهيأنا للمعركة والدفاع ، لم يكن لهذا الإنذار عواقب وخيمة . كل ما فى الأمر ، أن بعض الممالك راحوا يحومون حول معسكرنا ، فلمسحهم جنودنا فى الخطوط الأمامية وكانوا يأملون أن يفاجئوهم وهم نيام . ولكن بعد أن طنت رصاصاتنا فى آذانهم ، بينت لهم أن الجميع ليسوا نياما فى معسكرنا . وقد عاود هؤلاء البرابرة محاولاتهم الطائشة مرات عديدة فى هذا الليل الدامس . . حتى فر النوم تماما من أعيننا .

السابع عشر من يوليو (١٧٩٨م)

فى اليوم التالى الموافق ٢٩ ميسيدور واصلنا مسيرتنا إلى القاهرة دون أن تزيد حصتنا من الطعام على ثلاث قطع من البقسماط للفرد .

وقد استولينا على إحدى مراكب العدو السائرة فى النيل ، فأمدتنا بكميات إضافية من البقسماط السيئ . كان شديد الملوحة ، ومعجون بدقيق ردىء ومادة دهنية نفرت منها الجرذان فتركتها . لا شىء غير هذه الظروف كان ليحملنا على الأكل منه . على أية حال ، لم يكن هناك مجال لحدوث أى سوء هضم ، فحصة الفرد لم تكن تتجاوز الاثنتى عشرة أوقية .

كنا لنجهل متى سنأخذ المزيد فرحنا نستهلك واحدة كل يوم حتى نفاد الكمية ، أى أننا بلغة الحرب «رشدنا من استهلاكنا» . أما عن نفسى ، فقد قسمت الكمية إلى ثلاثة أنصبة ، كل واحد مكون من أربعة أوقيات ، حتى تكفينى ثلاثة أيام . وكنت أحرص قبل أن أكله على نقعه فى الماء مدة ساعة - على الأقل - حتى يلين وتخف ملوحته قليلا .

فى هذا اليوم ، وصلنا إلى وِردان^(١) حيث عسكرنا فى الثلاثين من الشهر وسط غابة من النخيل . لم يكف البقسماط الذى أمدونا به لتجديد قسوانا وتقوية أجسادنا التى حرمت طويلا من الأغذية اللارمة . وبما أن الحاجة أم الاختراع فقد تمكن الجنود من إيجاد وسيلة لطحن بعض القمح وصنع خبز مثل الذى نأكله فى أوروبا ، مما خفف عنا وطأة الوضع بعض الشىء . علاوة على هذا وجدنا فى البطيخ مرطبا شهيئا وفيرا ، لنجدنا عدة مرات منذ أن تركنا الإسكندرية . والبطيخ نوع من الشمام يحتوى على عصير سكرى مغذ . وأستطيع أن أجزم بأن نصف الجيش مدين له ول مياه النيل العذبة بحياته .

فى وِردان ، أتى القائد العام يتفقد مواقع الجيش ، وانخرط فى صفوفنا يتجاذب أطراف الحديث مع الجنود دون تكلف ، حتى أنهم لم يخشوا إبداء تبرمهم ، بل راحوا يحيطونه علما بمبلغ بؤسهم .

(١) كان هذا فى وِردان حينما قام الأب سيكار بحرق أكوام من المخطوطات القديمة المحفوظة فى حافظة كبيرة ، بدعوة أنها كتب سحر .

ولم يكن كل هذا غائب عنه ، ولكنه أراد جس نبض الجيش بلهافة .
ولم يدخر وسعا في إبداء الوعود ليخفف عنهم ويحشهم على الجسد .
وراح يقول : «اصبروا بضعة أيام أخرى ، وستجدون وفرة في كل شيء
في عاصمة مصر: الخبز الأبيض ، اللحم الطيب ، النبيذ الفاخر ، السكر ،
القهوة التركي» .

لم يكن أمامنا إلا الرضى بوعوده . وبمجرد أن ارتاح الجيش بعض
الشيء في وردان ، تلقى أمرا باستئناف رحلة أرجاعه إلى القاهرة . كان
هذا في الأول من ترميدور من السنة السادسة ، الموافق التاسع عشر من
يونيو . كان عناء هذا اليوم الأول أهون من الأيام السابقة . . فقد خفف
يوم الراحة من إرهاقنا بعض الشيء . ولكن الحال تغيرت في اليوم التالي ،
فكان الشمس كانت تضاعف من حريقها كلما تقدمت بنا المسيرة حتى أننا
لم نعد نتنفس سوى هواء حارق ، وفقدنا المزيد من زملائنا سيئى الحظ .

معركة الأهرامات

لم يمر ثالث أيام هذا الشهر دون ملاحظة بعض القوات المتقدمة لجيش
مراد بك . لقد دفعناهم أمامنا من قرية إلى أخرى حتى أدركنا جيوشهم وقد
بدأنا نكتشفها في الثانية من بعد ظهر هذا اليوم . كان الحرس خائفا
حتى كدنا نلفظ أنفاسنا . سرنا منذ الصباح في تشكيلات مربعة ، ولم يكن
من سبيل للانفصال عنها لنروى ظمأنا من النيل الذى يجرى بالقرب منا .

اقتضت الظروف كل هذا الحذر ، فقد كنا نعلم أن العدو يملك مفاتيح
مجرى النيل . ومع ذلك ، هرع بعض الجنود من وطأة العطش إلى النهر
على الرغم من معارضة القادة . وما كادوا يشربون بعض جرعات من الماء
حتى ظهر العدو في الأفق . وسرعان ما أعلنت دقائق الإنذار وطار كل

إلى صفه متناسياً آلامه ، و لسم نعد نفكر إلا فى اللحظة التى نثبت فيها شجاعتنا .

احتسمى الممالك بقرية إمبابة وتحصنوا بمدفعية ضخمة على ضفاف النيل أمام القاهرة . . كان البريق المنبعث من زيهم وأسلحتهم يعكس علينا أشعة الشمس فتعمى أبصارنا . وقد امتطوا صهوة خيولهم العربية ، وتسלحوا بمسدسين وارد لندن وغدارة لامعة ، وكانوا يلوحون بسيوفهم البديعة فتتألأ أمام أعيننا .

كان هذا المشهد المهيّب خليقاً أن يلقى الرعب فى قلب أى جندى ، إلا الجندى الفرنسى . كسان واضحا من خلال مناوراتهم استعدادهم للهجوم . ومن جانبنا ، أخذنا استعداداتنا لاستقبالهم خير استقبال . انقضض قائدهم مراد بك بفرقة من الخيالة المختارة على اثنين من فرقنا (فرقة رينيه وديزيه) بينما تظاهر بقية الجيش بالهجوم علينا حتى يمنعنا من أن نهبط لنجدة هؤلاء القادة . ولكن مدفعيتنا كانت لهم بالمرصاد ، فأردت عددا كبيرا منهم قتلى من الهجمة الأولى . ظن العدو أنه ملاق قادراً أكبر من النجاح إن هاجم من الخلف . ولكن التشكيل المربع الذى تكونت منه فرقنا كان بمثابة جبهة مزدوجة استقبلته كما استقبله التشكيل الأمامى . ومن لم يسقط من جراء قذائفنا جريحاً ، انسحب فى عجلة ولم يجرؤ على معاودة الهجوم .

كان هناك ألف وخمسمائة مملوك ، وعدد مماثل من الفلاحين ظلوا يقاومون فى قرية إمبابة . وسرعان ما حاصرت قوات كليبر وبون ومينو المدينة . وقد حاول الجميع عبثاً الدفاع عن هذه القرية ، وقاموا بأشياء خارقة ومع ذلك تقطعت بهم السبل وفقدوا حتى أملهم فى الانسحاب . وقد عرضنا عليهم الاستسلام مع اعتبارهم أسرى ، فلم يستجيبوا وفضلوا الموت .

أما جنودنا ، فسقد وجد الضباط صعوبة في السيطرة عليهم خلال عملية التفاوض ، وما كان منهم إلا أن انطلقوا باندفاع شديد صوب القرية ، وبدلاً من التلهي بإطلاق النار على غير هدف ، إذ بهم يهجمون على رجال المدفعية ويطعنوهم بسنكهم ، ويستولون على مدافعهم . فمن ولى منهم الأدبار واستطاع الهرب قطعت عليه فرقنا اليمنى السبيل ، ورشقته بوابل من الرصاص ، ليصاب البعض ويقتل البعض الآخر . في حين فقد آخرون الأمل ، فاندفعوا وألقوا بأنفسهم في النيل وقد ملأ قلوبهم الحنق .

في هذه المعركة ، نجحنا في الاستيلاء على أربعين قطعة مدفعية ، والكثير من العتاد والذخيرة والمؤن ، علاوة على أربعمئة من الجمال المحملة بالذهب والفضة . ولم يكلفنا هذا النصر الذى أسميناه «الأهرامات» سوى بعض الدماء الفرنسية . وقد قال الجنرال بارتيه : «لم تثبت الخطط العسكرية الأوربية قط مثلما أثبتت اليوم تفوقها على الشجاعة الشرقية غير المنظمة» .

لاحق الجنرال ديزيه العدو المنهزم ، وواجه القوات الخلفية لمрад بك بالقرب من الجيزة عند مدخل وادى النيل . وقد استمرت المعارك منذ الساعة الثانية وحتى منتصف الليل . وبما أن الغلبة فى تلك المعارك كانت لنا ، فقد شغلنا باتخاذ مواقعنا لعبور النيل . وكان متوقعا كما بدى لنا أن نواجه العدو الذى تأهب على الضفة الأخرى من النيل للدفاع عن القاهرة . غير أنه وقد روعه انتصارنا أصبح يخشى تبعات المقاومة ، وما كان منه إلا أن لاذ بالفرار ، بعد أن قام بإحراق عدد من المراكب التجارية ، وبعض منازل الجميلة .

الاستيلاء على القاهرة

قام جزء من قواتنا بعبور النيل والاستيلاء على المدينة في أثناء الليل .
بينما ظل الجزء الآخر رابضاً على الضفة الغربية من النهر كي نكون
مستعدين لأية أحداث مزعجة . وبعد ثلاثة أيام ، عبرت بقية قواتنا النهر ،
ودخلت إلى القاهرة . وتم الإطاحة بحكومة المماليك واستولينا على صعيد
مصر . وحين بلغ بونا برت هذه المدينة ، وجه لسكانها البيان التالي :

يا شعب القاهرة

كم أنا سعيد بسلوككم ، لقد أحسستم صنعا بعدم الانحياز ضدى .
فما جئت إلا للقضاء على سلاطة المماليك ، وحماية التجارة ومصادر البلاد
الطبيعية . ليهذا كل من كان بنفسه خوف ، وليعود كل من خرج عن
منزله . ولتقام الصلاة اليوم كما هي العادة ، وكما أريد لها أن تستمر
دوما . لا تخشوا على نساكنكم وبيوتكم وأملاككم ، وخاصة على دينكم
الذى أحبه .

بونا برت

في هذه المعركة ، لم يلق مصرعه من جانبنا سوى تسعة أو عشرة
أشخاص بينما أصيب مائة آخرون بجراح ، في حين فقد العدو أكثر من
ألف وستمائة شخص . وفي هذا الصدد أجد من واجبى أن أعترف
بشجاعة المماليك . فلو أن خططهم العسكرية كللت بالنجاح لدفعنا ثمن
انتصارنا غاليا ، ولكن قلة خبرتهم كانت خير ضامن لنجاحنا . وقد تميز
قائدهم مراد بك ببسالته ورباطة جأشه ، وإن لم يتميز بموهبته العسكرية .
ويقال إنه أصيب بجرح في رأسه .

أما بالنسبة لنا فلم نكن لنشكو لو أن العرب والحرارة والجوع والعطش لم يصيبونا بأكثر مما أصابنا المماليك .

الهرم الأكبر

لقبنا هذه المعركة بـ «الأهرامات» لأنها وقعت بالقرب من هذه الأهرامات الشهيرة التي يُنظر إليها كواحدة من عجائب الدنيا السبع ، وهي ثلاثة أهرامات : للأكبر واجهات أربع مثل الآخرين ، كل واجهة متجهة إلى واحدة من الجهات الأصلية . قاعدته مربعة ضلعها ١١٠ قامة ، وتبلغ مساحتها ١٢,٠٠٠,٠٠٠ قامة مربعة . كل واجهة عبارة عن مثلث مواز للواجهة المقابلة له . ويبلغ ارتفاعه العمودي ٧٧ وثلاثة أرباع قامة ، أى ما يعادل ٤٦٨ قدماً ونصف قدم . أما حجم كتلته ، فيبلغ ٣١٣,٥٩٠ قامة مكعبة . وهو مشيد بحجر غير عادي في ضخامته ، أقله حجماً يبلغ ثلاثين قدم مربع . وهو نوع من الحجارة شديد الندرة في مصر .

أما قمة الهرم والتي ترى من أسفل وكأنها رأس إبرة ، فمساحتها في الحقيقة مسطحة يستطيع أربعون رجلاً الوقوف عليها بكل راحة ، إذ يبلغ ضلعها حوالي ستة عشر قدماً . ويمكن الوصول إليها بتسلق الزوايا الأربع البارزة التي تسهل عملية الصعود بأسلوب تشييدها الخاص . فإن بلغت القمة ، لم تكن بالنسبة للواقف أسفل الهرم أكثر من قزم . والقمة تكشف مساحة ضخمة من البلد ، لاسيما شرق القاهرة ومجرى النيل الممتد من أعلى البلد إلى أدناه .

ويمكن الدخول إلى الأهرامات من خلال فتحة متقنة الصنع بها درجات تساعد على تثبيت الأقدام . وتستغرق عملية الصعود حوالي

خمس دقائق ، تليها فترة صعود عمائلة فى الوقت حتى نصل أخيرا للحجرة المسماة حجرة «الملكة» ، وهى حجرة مساحتها حوالى ٢٠ قدما مربعة مشيدة بإتقان . غير أن الرائحة المنبعثة من المكان لا تشجع على المكوث به فترة طويلة . ويعتقد أن أجساد ملكات مصر كانت ترقد فيه .

أما عند الخروج ، فتمتد عملية الصعود من سبع إلى ثمانى دقائق من خلال سلسلة من الفتحات التى يعد بلوغها أمرا عسيرا . ثم نصل إلى الحجرة التى يطلقون عليها حجرة «الملك» ، وهى تكاد تكون بنفس حجم الحجرة السابقة ، مع الفارق بأن بها تابوتا حجريا من الجرانيت طوله ست أقدام وارتفاعه وعرضه ثلاث أقدام . ويقال إن هذه الحجرة كانت مخصصة لدفن ملوك هذا البلد .

وأخيرا، وجدنا ممرا لم ندر مدى عمقه، ولكننا أطلقنا به رصاصة ، وخلصنا من خلال الصوت الذى ظل يتردد بصورة متصلة إلى أنه لابد مؤد إلى تجويفات متسعة . لم تكن مدينة ممفيس القديمة تبعد كثيرا عن هذه الآثار التى تعد مفخرة للإنسانية .

وللهرمين الآخرين نفس الشكل وإن كان ارتفاعهما أقل بكثير . تسلقت أحد هذه الأهرامات للنظر إلى الجرانيت المكسوة به . وبالقرب منهما توجد بقايا أهرامات صغيرة عديدة تهدمت . وعلى بعد مسافة قصيرة ، نلمح صخرة كبيرة منعزلة عبارة عن رأس ضخم لتمثال أبى الهول .

أما على بعد أربعة فراسخ وفى مكان يسمى سقارة نجد حوالى ثمانية أهرامات أخرى ذات شكل وحجم يسترعى الاهتمام نوعا . كما توجد مومياوات - أى أجساد محنطة - محفوظة فى هذا المكان منذ قرون عديدة ، تشهد إلى الأبد على احترام قدماء المصريين لأجدادهم وللمقتنيات العزيزة عليهم .

ظل جزء من الجيش معسكرا على الضفة اليسرى من النهر أمام القاهرة ولم يدخلها . وقد عانى أشد المعاناة طيلة يومين أو ثلاثة بسبب نقص الموارد التى لم يكن قد تم تدبيرها وإرسالها بعد . وفى هذه الأثناء ، راح الجنود يتسللون باصطياد المماليك الغارقين فى النيل . . ووجدوا معهم ما بين ثلاثمائة إلى أربعمائة قطعة من الذهب ، مما عوضهم العناء الذى تكبدوه فى سبيل انتشال هذه الجثث من الماء .

دخولنا إلى القاهرة

أخيرا وفى الثامن من ترميدور الموافق ٢٦ يوليو ، تلقينا أمرا بعبور النهر . وبينما نحن نعبره إذ بفلاح يدلنا على أحد المماليك متنكرا فى هيئة شحاذ يرقب تحركاتنا . فتم اعتقاله ، ثم أعدم فى اليوم التالى رميا بالرصاص فى المعسكر الذى أقمناه فى بولاق على بعد ربع فرسخ من المدينة . وقد أتاح لنا هذا الموقع فرصة زيارة القاهرة لنعرف شيئا عن عاصمة مصر .

لم تعد هذه العاصمة كسابق عهدها . هى بكبر باريس وتعاذلها فى الازدحام ، ولكن بأية نوعية من البشر ! إنهم رجال قذرون فى سواد منظفى المداخل عندنا فى سافوا ، كسالى حاملين كصعاليك نابولى . وهم باختصار يشبهون سكان الإسكندرية الذين وصفتهم آنفا .

وشوارع القاهرة ضيقة ، وهواؤها غير صحي . كما أنها غير مهيأة وتنعدم فيها المصابيح فى الليل . وأغلب البيوت لا تعدو أن تكون مجرد أكواخ شديدة البؤس . أما ديار الأثرياء ، فمشيدة بكتل ثقيلة من الحجارة أو الطوب ومكسوة بالبوص المجدول . فإن تهدمت لم يكلفوا أنفسهم عناء إصلاحها وإنما قاموا بتشييد غيرها فى مكان آخر .

أما الضوء الخافت الذى ينير هذه البيوت ، فينفذ إليها من خلال نوافذ ضيقة شديدة الارتفاع لها قضبان . ولبعض هذه البيوت أسطح مسورة .

أما أصحابها فمن البكوات والمماليك . وقد أثروا على طراز آسيوى فاخر من عرق شعب مقهور . كانوا يكسون الخيل بسراج ثمين ، ويلبسون الحرير المكسو بالذهب والماس ، ويحيط بهم كم كبير من الإماء المكدسة فى الحرم ملك أو السرايا ، حتى أن عددهم بلغ مائتين عند أحد البكوات . كانوا يتمسكون باقتناء أجمل الأسلحة ، وأروع الغدارات ، والمسدسات وارد لندن بديعة الصنع ، إضافة إلى السيوف الدمشقية المرصعة ، ذات الأغصدة المصنوعة بلا استثناء تقريبا من الفضة المذهبة . وقد كان ثمن تلك السيوف يصل أحيانا إلى مائتى لوى^(١) .

ولا يمكن بالطبع مضاهاة أفخر البيوت وأكثرها فخامة وثراء بمنازل أكابر باريس ، لا من حيث الذوق والفخامة ، ولا من حيث الراحة . فأسرّتهم عبارة عن أرائك كساؤها فاخر وعليها أغطية ، وهى القطعة الأساسية فى أثاثهم . أما باقى أفراد الشعب فلا يستغرقون وقتا فى إعداد أسرّتهم ، إذ يفترون الأرض ، وينامون على مجرد حصير .

ولا ترقى أفضل وجباتهم لمستوى ما يرضى السذوق الفرنسى . وهم فضلا عن هذا يفتقدون لأكثر ما يدخل البهجة على نفوس مدعوين مثل الفرنسيين ، وأعنى بهذا النبيذ الذى حرمه مشرعهم البربرى .

وقبل قدومنا ، لم يكن فى مصر أية حانات أو نُزُل ، ولم يكن ثمة مرطبات سوى القهوة السادة كعادة المصريين فى تناولها ، وكانوا لا يدخلون فى هذا وسعا ، حتى أنهم كانوا يحسبون ما يقرب من عشرين فتجانا فى اليوم ، وكان هذا يمثل غذاءهم الأساسى .

(١) قطعة ذهب - على اسم لويس الثالث عشر - وهى عملة فرنسية قديمة (الترجمة) .

ومنذ قدومنا الشيء هذا البلد ، أقسام العديد من الفرنسيين نُزلًا ومقاهي ، ولكنها كانت غالية الثمن ، وكنا نعتبر سعر النبيذ معقولاً حينما كنا نبتاع الزجاجاة بعشرة فرنكات ، وكان في هذه الحالة إما مغشوشاً أو من نوع رديء .

أما الوحيد الذي كان يمدنا ببعض البهجة في القاهرة ، فهو ركوب الحمير ، فكنا نجوب بها شوارع المدينة ، أو نزور بها الأنحاء المجاورة . وكان من السهل استئجارها في كل مكان بسعر زهيد . وكانت سرعتها تفوق بكثير سرعة مثيلاتها في أوروبا . ولا يسكن مضاهاتها إلا بتلك التي رأيناها على ضفاف الرون ، من ليون وحتى فالنسا .

ومن أكثر المشاهد طرافة منظر الضباط الفرنسيين والجنود أيضا ، وهم ينقلون البريد عبر شوارع القاهرة على ظهر هؤلاء السعاة .

أما عن المتع والنساء ، فلم نجد في القاهرة ما نهلنا منه في ميلانو وبادو وليفورن وروما وفيرونا وجراز . . إذ لم يكن ممكناً ولا مأموناً مقابلة نساء الطبقة الثرية ، فدونهن أبواب مغلقة بالمزاليج . وهم واقعون تحت سيطرة طغاة غيورين يخشى طرفهم . وعلى الرغم من وجود بعض الدور العامة ، إلا أن قبح وقلادة الغواني وكثرة لغطهم كانت تصيبنا بالخشيان وتجعل أشد الداعرين فسقا وشجاعة يتراجع فزعا ، مما حفنا على الرضا عن طيب خاطر بالحرمان على الرغم من شدة رغبتنا وحرارة الجو .

وفي قلعة صلاح الدين ، شاهدنا بثر يوسف المحفورة في صخرة بعمق ٢٨٠ قدما ومحيط قدره ٤٢ قدما . وهناك درجات سلم مريحة للغاية تمكنتنا من الهبوط للبئر وتصل إلى منتصف العمق تقريبا ، حيث توجد ساقية يديرها ثور لإخراج المياه لتصب في خزان وتجمع بواسطة أوانٍ

مثبتة فى ساقية أخرى تحملها إلى فوهة البئر . وهناك ثور آخر يدير الساقية الثانية حيث توجد أواني كبيرة لتجميع المياه . وعلى الرغم من قدوم هذه المياه من أعماق بعيدة إلا أن مذاقها أجاج منفر فى الفم . ولم تسم البئر هكذا نسبة إلى يوسف بن يعقوب وإنما إلى الوزير يوسف قسراقوش الذى بناها فى عهد محمد على .

كما نرى فى هذه القلعة بعض أطلال لمعبد يسمونه معبد سليمان ، هذه الأطلال مرفوعة على ثلاثين عاموداً من الرخام ذات ارتفاع وسمك يشيران الدهشة . مما يجعلنا نعتقد أن هذا المعبد كان وهو مكتمل باهر العظمة .

وبين القاهرة القديمة والجيزة تقع جزيرة اسمها الروضة تكسوها جميع أنواع الأشجار والمزروعات الأخرى وهى سر ريتها وغناها . وفى الروضة يوجد "المقياس" وهو بئر يساعد على معرفة مدى ارتفاع النيل وقد خطت درجاته بالعربية . و يتنبأ سكان البلد بخصوبة أو جفاف الموسم تبعاً لزيادة أو نقصان درجات المقياس . وعلى قمة البئر ، يرتفع تاج كورنشى فوق أربعة أعمدة رخامية وكأنه غطاء له . وقد أقمنا فى هذه الجزيرة طاحونة هواء لاستعمالنا الخاص .

و بمجرد أن عرف البكوات بهبوطنا مصر حتى رجوا بجميع الأوربيين الموجودين فى مصر فى السجون ، وكانوا ينون تدبير مذبة عامة . ولربما أراد القارئ معرفة مصير هؤلاء التسعاء . وحتى أرضى فضوله المبرر أقول إنهم يدينون بخلاصهم للخرافات ولسداجة هؤلاء الطغاة المصريين . فقد كانت زوجة إبراهيم بك ، ثانى كبار البكوات ، تحظى بتقدير ومكانة عظيمة ، وكان ينظر لها على اعتبار أن لها كرامات ويأتىها وحى من النبى . نشرت هذه السيدة نبوءة ادعت أنها من محمد مؤداها أن الفرنسيين سوف يستولون على مصر عام (١٧٩٨ م) . وقد كفت يد هؤلاء القتل

بقيادة المماليك عن الضحايا السجناء ، وخبأتهم فى بيتها وأحسنّت وفادتهم حتى قدمنا إلى القاهرة ووضعنا حدا لعذابهم ومنحناهم حريتهم . فما كان دافع كرم هذه السيدة ؟ هل هو إيمان حقيقى بوحى نبىها ؟ أم كان وراء الأمر ميل خفى لمحاربين ينتمون لأمة أعجبت بلطفها وأدبها وكانت تنتظر عرفانا بالجميل ؟ هذا ما لا أعرفه وأتركه لفطنة القارئ . وعلى أية حال ، وأيا كانت دوافعها فقد تمكنت من السيطرة على وحشية المحيطين بها بسطوة الخرافات .

وهكذا نرى كيف ساعدنا هذه المرة التعصب الذى عد وصمة فى تاريخ الإنسانية فى كل مكان .

ظللنا بضعة أيام وحتى الثالث عشر من ترميدور الموافق ٣١ يوليو عام (١٧٩٨م) ، فى موقعنا هذا دون حدوث شىء يذكر ، حتى لمحنا مجموعة كبيرة من الجمال على متنها رجال ونساء . ظننا فى بادئ الأمر أنها قافلة تجارية يملكها المماليك ولكننا كنا مخطئين . فقد كانت فى الحقيقة قافلة حجاج قادمة من مكة ومن قبر محمد ، إذ تقتضى عادات المسلمين ذهاب المؤمنين إليها ولو مرة واحدة خلال حياتهم كما يذهب المسيحيون إلى كاليفير والقديس سيبولير والقديس جاك دى كومبوسستيل . أما أشدهم تعصبا فيقومون عند عودتهم بفقر عيونهم ، فما عساه شىء يستحق أن يرى بعد رؤية قبر رسولهم .

كان قوام هذه القافلة قرابة ستة آلاف شخص من الرجال والنساء مع عدد مماثل من الجمال . كان أغلب الرجال يحملون أسلحة نارية وخناجر . وقد اندهشوا لوجود قوات أوربية فى بلادهم ولكنهم اطمأنسوا حينما رأونا أبعد ما نكون عن إهانتهم ، بل على العكس رحنا نمد لهم يد النجدة والعون . وقد ساعدتهم هذا السلوك على المضى فى سلام إلى حال سبيلهم ، كل إلى بيته .

أما القافلة التجارية التي كنا نعقد عليها آمالاً عريضة فلم يتأخر ظهورها أيضاً . كانت ملكاً للمماليك . لذا كان من مصلحتهم أن ينقذوها من رغبتنا الأكيدة فيها . فانطلق بعض من لجحوا في الفرار منا بعد الهزيمة لملاقاة القافلة وتحذيرها ، فاستخذت اتجاهها آخر . ولم يفت هذا على جنرالنا فبعث بقوات لتطويقها والتصدي لهروبها .

وأما البدو الذين كانوا دائماً في خدمة من يجزل لهم العطشاء ، أو بالأحرى من يتيح لهم نيل أكبر قدر من الغنائم ، فقد سعوا لدى كومنندان المفردة الفرنسي ليمسح لهم بالانضمام إليه لمحاربة المماليك مقابل نصيب من الغنائم ، فكان لهم ما أرادوا . ففي بعض الظروف تباح كل الوسائل في سبيل إنجاح مشروع .

وعليه قام البدو بالتعاون مع قواتنا بشن هجوم عنيف على المماليك في أثناء حراستهم القافلة فراحوا يدافعون بصلابة . كان عددهم يفوق عدد الجنود المهاجمين حتى أنهم نازعوهـم بعض الوقت على النصر . غير أن خططنا الحربية جعلته من نصيبنا ، مما حدى بالمماليك إلى الهرب حاملين معهم ما استطاعوا من بضاعتهم . وقد اقتسمنا ما تبقى مع البدو حسب الاتفاق . وحملنا كمية كبيرة من الذهب والبضائع ولاحقنا المنهزمين حتى تخوم الصحراء التي حرصنا على عدم الخوض فيها .

النيل

أتاح لنا الهدوء الذي تركنا المماليك نستمتع به بعض الوقت فرصة حضور العيد أو الاحتفال الذي جرت العادة على إقامته في القاهرة بمناسبة زيادة مياه النيل . في هذا العام ، توافق والتاسع والعشرين من شهر تيرميدور الموافق ١٦ من أغسطس . وهو يسمى «فيضان النيل» ، فمحينما

يصل منسوب النيل إلى مستوى ما فهذا يبشر بوفرة المحصول القادم .
وتحضر كبار الشخصيات بالمدينة هذا الاحتفال ، وخلال له يشقون ،
أو بالأحرى ، يصدرون أوامر بشق قناة ، فتندفع المياه من خلالها وتنتشر
في أرجاء المدينة . في هذه اللحظة تسرى حالة عامة من النشوة والمرح ،
تظهر من خلال الغناء والضحك وممارسة الألعاب الريفية . ونظراً لحرص
الفرنسيين على كسب مودة البسطاء ونيل عطفهم ، فقد عملوا على توفير
الحماية لحالة السعادة والمرح العامة في المدينة ، فأمدوها بالحراسة اللازمة ،
كما حرص جنرالنا على حضور الاحتفال بزي الاحتفالات الرسمية .

عيد محمد

بعد عدة أيام أقيم احتفال بذكرى وفاة محمد^(١) ، وكان للفرنسيين
أيضا دور بارز فيه ، فقد أضفى تواجد قواتنا بأسلحتها وموسيقاها على
المظهر العام أجمل صورة . وقد تم إنارة المدينة بأكملها ، وراح عليه القوم
من سكانها يجوبون الشوارع بما يدل على مكانتهم أو وظيفتهم يتبعهم عبيد
بعضهم مسلح بينما حمل البعض الآخر المشاعل . وقد تقدمت
الفرق الموسيقية الفرنسية والتركية الموكب ، حتى وصل الجميع إلى الساحة
حيث رأينا إضاءة قوية براقعة على هيئة قبر محمد معلقة في الهواء إشارة
لاشك للاعتقاد الشائع بأن هناك قوة مغناطيسية تجذب قبر محمد لقبة معبد
مكة يوم مماته . فكان لهذا المشهد صدى عظيما بين بنى شيعته وكأنه معجزة
كبيرة . والحق أننا ما شاركنا في هذا الاحتفال إلا لاعتبارات سياسية ،
ولم تكن له قط جاذبية احتفالاتنا الفرنسية ، ولكن الإنجليز في هذه اللحظة
كانوا سيمنحونا احتفالا أكثر خطورة وكآبة من الاحتفال بوفاة محمد .

(١) لا بد أن المقصود هو الاحتفال بالمولد النبوي الشريف (الترجمة) .

ولفرط معاناتنا ، سرنا نضخم جميع المواضيع ، حتى أننا لم نعد نخشى أن تُسمع همساتنا والبعض منا يردد : «لأبد أن الجنون هو الذى دفعهم للتفكير فى مشروع هذه الحملة ، وأن التهور هو الذى جعلهم ينفذونها» فيرد آخرون : «بل إن طمسوح الجنرال هو الذى قادنا إلى هنا . فقد جاء ليصنع لنفسه عرشا من عرقنا ودمائنا» . بينما كان من رأى فتنة ثلاثة لم ترد إدانة الجنرال : «إنها خيانة من جانب حكامنا الذين يرون أن الغاية تبرر الوسيلة . لقد خشى المديرون وجود الجنرال فى باريس وخب زملاء مجده وكفاحه له ، فأرادوا إقصاءه وإيانا ، لنُدفع غاليا ثمن الأكاليل التى وضعتها انتصارات إيطاليا على جباهنا» .

كان من الصعب أن نقدر أى هذه الآراء هى الأصوب والأقرب . للحقيقة ، فقد كانت جميعها قوية الحججة . ولكن الزمن الذى ينخر كل شئ ويجعل أصلب الآثار تتآكل بفعله كان أيضا كفيلا بتهدئة أسانا وشجوتنا وتبديد أفكارنا السوداء . فقد استسلم كل منا وأذعن للأمر الواقع ووجد سكينته فى التحلى بالشجاعة والإرادة الحديدية .

ولكن سرعان ما واجهت هذه الشجاعة محنة وضعتها فى اختبار جديد . إنه الرمد ، مرض شائع للغاية فى مصر حتى أنها لقبت عن حق «بلد المكفوفين» . وقد أخذ فى الانتشار بين صفوفنا يفتك بها حتى بلغ الحلق بكثير من العسكريين مبلغه .

وبعد عدة شهور من العمى ، عاد للأغلبية بصرها ، ولحق الناجون بكتائبهم بينما ظل الباقون فى المستشفيات وتم ترحيلهم إلى فرنسا بمجرد أن تهيأت الفرصة . كل هذا بسبب هواء مصر غير الصحى . ففى كل عام منذ أن يعتدل المناخ فى الربيع وحتى قدوم تقلبات الصيف تبدأ أنواع حمى خبيثة قاتلة فى الانتشار . وفى الحريف يصيب مرض الجمرة الخبيثة الأفخاذ والركب فيقضى على المريض فى غضون يومين أو ثلاثة ، أما فى الشتاء

فترك الجندى آثاره المدمرة . ثم يأتى وقت فيضان النيل ، فيصاب أغلب السكان بالديزونتيرية الحادة بسبب مياه النيل الملوثة بالطمى . فخلال الشهرين ونصف اللذين يسبقان الصيف تكون مياه النيل عذبة بسبب السدود المقامة على مداخل النهر ونظرا لسهوب رياح الشمال فى هذا الوقت ، كل هذا يعوق تدفقها بشكل طبيعى ويؤدى بالضرورة إلى فسادها .

هذه الكوارث التى ألت بأسطولنا بعثت الأمل والجرأة فى قلوب أتباع المماليك . فقد بدأ عملاؤهم يملئون النفوس والعقول بفكرة التحرك ، وكان واضحا للعيان أن الإنجليز هم المحرضون .

وما لبث أن ظهرت فى الأفق جمافل البدو جالبة معها التهديد والفرع للسكان الأمنين ، قادمة من كل صوب ومكان لمهاجمة قواتنا الامامية . ولكنهم وقد أدركوا عدم جدوى جهودهم ومحاولاتهم ، فضلوا عدم الانقضاض علينا مثلما يفعل الشجعان ، وإنما رأوا مفاجأتنا مثل الخونة وذبحوا القوات التى نشرناها فى القرى ، كما شنوا علينا حرب قرصنة فى نهر النيل ، كانت نتائجها أفدح بكثير من الحروب المنتظمة الوحشية . وقد سلبتنا العديد من العسكرين الشجعان . فقد قاموا بذبح جنود مفرزتنا فى إحدى القرى ، وكان قوامها خمسة عشر جنديا ، من بينهم معاون جوليان وقائد المفرزة التابعة للمكتيبة الأولى من فيلقى .

فى التاسع من فروكستيدور الموافق ٢٦ أغسطس صدر لنا أمر بإحراق هذه القرية وبأن يكون انتقامنا منها مروعا . فأبحرنا من نيل بولاق حتى وصلنا إليها فى الحادى عشر منه الساعة الرابعة والنصف صباحا ، ولكننا وجدنا القرية مهجورة . فقد تم إعدام كل من كانت له يد ضليعة فى هذه المذبحة رميا بالرصاص ، بينما لاذ بقية السكان بالفرار وقد علموا بقدمونا . فاضطررنا للاكتفاء بإضرام النار فى المكان ليحال رمادا .

لم يجد الجنود سوى كهل وامرأته العجوز ، وقد عثروا لديهم على ملابس فرنسية ملطخة بالدماء ، ليصبوا جام غضبهم وحنقهم عليهم وعلى الحمام الذى ينتشر بكثرة فى أرجاء مصر . هذا هو كل ما حصدها فى هذه القرية التعيسة .

وقد لاحظنا خلال تجوالنا أن الطيور شائعة جدا فى مصر . ويعزى هذا لسببين : السبب الأول ، هو أن الصيد ليس شائعا فى هذه البلاد، أما السبب الثانى ، فيرجع إلى أن السكان لا يأكلون الطيور . لهذا لا يتعدى ثمنها سعر الخضراوات والأعشاب الصالحة للأكل .

وبعد أن انتهينا من حملتنا، أبحرنا ثانية فى النيل للعودة إلى بولاق حيث تلقى الجنرال لانوس أمراً بالتوجه بفرقة إلى منوف . فكان أن رحلنا وبلغنا هذه البلدة فى نفس اليوم .

تقع منوف أسفل^(١) القاهرة مع بداية الدلتا فى مكان يكاد يتوسط فرعى النيل . وقد جعلنا هذا الموقع الجديد نتحسر فى بداية الأمر على مغادرة بولاق ، فقد مكثنا فترة تحت وطأة الشمس الحارقة ، إذ لم نجد أية أخشاب نصنع منها أكواخا نحتسى بها . ولكننا بعد أن تعرفنا أكثر على المكان زال عنا الحلق ، وطابت لنا الإقامة به ، لاسيما بعد أن تركت لنا القوات التى جئنا لمواجهة مواقع نظيفة لإقامتنا .

وقد وجدنا فى هذه المدينة من المؤن ومواد الإعاشة قدراً كافياً وبأسعار زهيدة . وكنا قد بدأنا ننعم بالهدوء الكامل بل طاب لنا العيش بها حينما تلقينا أمراً بمغادرتها والعودة إلى بولاق . وحدانا الأمل فى العودة إلى منوف بعد الاحتفال بعيد الجمهورية الذى بدأنا الاستعداد له ، ولكننا لم نكن على يقين من هذا . على أية حال ، أبحرنا فى النيل فى اليوم الثالث .

(١) تقع منوف شمال القاهرة (الترجمة) .

وقد انهمرت أمطار غزيرة فى الرابع من سبتمبر ، وهو أمر غير مألوف على الإطلاق فى مصر ، إذ لم تحدث مثل هذه الظاهرة منذ مائتى عام ، وكان النيل فى قمة فيضانه ، حتى أن ريان سفيتنا انحرف عن مجرى النيل الطبيعى ، فجنحت بنا السفينة عدة مرات وغرزت فى حقول مغمورة بالمياه حتى اضطررنا إلى تنحيته عن دفة السفينة وقيادتها بأنفسنا إلى بولاق إلى أن بلغناها فقط فى الخامس من سبتمبر الساعة التاسعة مساءً ، بينما بلغها رملأؤنا الآخرون فى التاسعة صباحاً .

ربما جاءت أخطاء الريان نتيجة لرعونته وعدم مهارته ، وإن كان لدى من الأسباب ما جعلنى أشك فى نواياه . فقد حدثت جرائم قتل كثيرة ، مهد إليها الطريق تواطؤ أكثر من ريان خائن ، مما زرع الشك فى نفسى . لهذا استشطت غضباً ورحست أنهدده بعقاب شديد ، ولكنه سلبنى ثورتى بأعداره وتوسلاته التى راح يعيدها على مسامعى . غير أننى تيقظت دوماً لمثل هذه المناورات ، واستفدت بالفعل من هذا .

عيد الجمهورية

فى الثانى والعشرين من عام (١٧٩٨م)

فى فجر الأول من قانديبير من العام السابع حملنا أسلحتنا وتوجهنا إلى ساحة الأربكية^(١) بالقاهرة حيث أُعد كل شيء للاحتفال بعيد تأسيس الجمهورية .

(١) هذه المساحة منخفضة بعض الشيء حتى أن المياه تغمرها لمدة شهرين أو ثلاثة كل عام ، فيستحم الناس بها وينقلون البضائع فى قوارب . وقد قمنا بزراعة الأشجار حولها لتظلنا فى جولتنا ، وكنا نزرع بعض النباتات بعد انسحاب المياه فيصبح المكان كالحديقة .

وقد تم الإعلان عن الاحتفال عشية هذا اليوم ، وافتتح بالفعل فى اليوم التالى بثلاث رشقات للمدفعية تلتها رشقات مماثلة من جميع الوحدات بما فيها البحرية .

كنا قد أقمنا ساحة دائرية قطرها ٢٠٠ قامة وبنّا محيطها بـ ١٠٥ سارٍ يرفرف على جميعها علمنا ثلاثى الألوان ، وقد كتب على كل واحد اسم أحد محافظات فرنسا . وكان هناك صفان من الزينة يصلان ما بين السوارى دليل على وحدة الجمهورية التى لا تنقسم . وقد نصب فى أحد مداخل الساحة قوس نصر يمثل معركة الأهرامات . أما عند المدخل الآخر فكان هناك رواق عليه بعض الكتابات العربية ، لا سيما عبارة «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» . وقد توسطت الساحة مسلة هرمية الشكل ارتقاعها ٧٠ قدماً . وعلى إحدى واجهاتها كتب «للجمهورية الفرنسية» بينما كُتب على الواجهة المقابلة «لطرد المماليك» . أما على الواجهات الأخرى فكانت الكتابات عربية . وقد رُوعى كتابة أسماء الشجعان من كافة الفرق ، والذين لقوا مصرعهم عند دخولنا مصر ، وسط العديد من تذكارات النصر .

وبمجرد أن اتخذنا صفوفنا داخل الساحة ، صدحت الموسيقى عدة مرات مرودة المارشات العسكرية ومقطوعات النصر، إضافة إلى بعض الألحان الوطنية الشائعة فى هذا الوقت ، وأطلقت عدة كتائب النار وقد اصطفت صفين .

خلال هذا الاحتفال ، تقدم أحد مساعدى الجنرال إلى المنصة وقرأ علينا البيان التالى :

مركز القيادة ،

الأول من فاندنيمير من العام السابع للجمهورية الواحدة التي
لا تتجزأ .

القائد العام بونابرت

أيها الجنود :

نحن نحتفل باليوم الأول من السنة السابعة للجمهورية . منذ خمس
سنوات ، كان استقلال الشعب الفرنسى مهدداً ، ولكننا استطعنا الاستيلاء
على تولون ، وكان هذا نذيراً بالقضاء على أعدائنا . بعدها بعام ، قاتلتم
النمساويين فى ديجو . وفى العام الذى تلاه ، كنتم على قمة جبال الألب
وقاتلتم هناك . كان هذا منذ عامين ، بعدها انتصرتم فى معركة سان
جورج الشهيرة . والعام الماضى ، تأكدت انتصاراتكم عند منابع درافا
وايزونسو إثر عودتكم من ألمانيا .

والآن تتوجه أنظار العالم كله إليكم ، بدءاً من الشعب الإنجليزى
المشهور بفنسه وقبحارته ، وحتى البندوى البغيض . أيها الجنود ،
أن أقداركم لجميلة ، لأنكم جديرون بما فعلتم وبالأمر الذى تكون
بشأنكم . سوف تلقون حتفكم بشرف مثل هؤلاء الشجعان المحفورة
أسمائهم على الأهرامات ، وسوف تعودون إلى وطنكم مكللين بأكاليل
النصر وبإعجاب جميع الشعوب .

منذ خمسة أشهر ، يوم ابتعدنا عن الأراضي الأوربية ، ونحن محل
دعم وتأييد مواطنينا . وفى هذا اليوم ، هناك أربعون ألف مواطن يحتفلون
بعهد الحكومات التى تمثلهم ، أربعون ألف يفكرون فىنا ويدينون لأعمالنا
ودمائنا بالسلام الشامل والراحة والرفاهية فى التجارة ومحاسن الحرية
والمدينة .

بونابرت

بعد أن تلى علينا النقيب العام رسالة بونابرت وأتبعها بالصيحة التقليدية «تحيا الجمهورية» مستحثا الجنود ليهتفوا معه ، كم كانت دهشته حينما لم يسمع سوى عدد محدود من الأصوات ، ولا أقول لا أحد ، يردد هذه الصيحة . هذا الصمت العام ، إن تم على أى ما فلانما يتم على حالة عامة من الاستياء . بل إن أحد الجنود ، وقد شعر بحرمانه من أية وسيلة تعييده إلى وطنه ، وأن كل يوم لا يحمل له إلا خبر بمصرع أحد الرفاق ، مع تضاعف شعوره بالحرمان من جميع الأشياء ، راح فى همس يلعن من ظن أنهم سبب نفيه ، بل ذهب إلى حد اتهام البحارة الذين سمحوا بهلاك أسطولنا فى أبى قير بقلّة الخبرة والجبن بل بالخيانة أيضا . ولكن الجيش عبر كل العصور لم يبجل أو يوقر إلا الوطن ولم يتعلق بحكومة دون أخرى إلا لأنهم يحملوننا على الاعتقاد بأفضليتها عن غيرها للوطن .

كان سبب هذه الهمهمات هو الاعتقاد أن آلامنا وتضحياتنا لم يكن ثمة طائل من ورائها لمجد وسعادة وطننا العزيز . وهى همهمات لم تتصاعد عاليا ، بل إن جموع المحتشدين لم يعرفوا أى شئ عنها ، ولا كبار الضباط . . فقد كنا وحدنا من لاحظناها بما أننا كنا بين الصنفوف الأولى والأخيرة من الجيش . ثم إن هذه الهمهمات المبهمة القادمة من البعض وليس من الجموع لم تحط يوما من عزيمته وشجاعة القوات حينما كان يحين وقت الزحف . وهى لم تكن فى الحقيقة تنم عن تمرد أو عصيان أو ثورة ، بقدر ما كانت تنم عن رغبة فى إراحة ما على الصدر من اكتئاب . . فهذا التعس الذى راح يشكو، لاشك أنه يستحق أن نعلمه ، ولكن دعونا نعود إلى ما كنا نحكيه .

دعى إلى الحفل الديوان وكبار زعماء كل بلدة ووالى كل مدينة . وقد حضروا المسابقة التى أقامها الجنرال العام . كانت تلك هى المرة الأولى

التي رأينا فيها الألوان الفرنسية إلى جوار الألوان التركية ، والعصامة إلى جانب قبعات الحرية ، حقوق الإنسان والقرآن على الهيكل نفسه ، المختون وغير المختون في المأدبة نفسها مع الفارق أن الأول كان ملتزما بمشروباته بينما راح الآخر يحب من الشمبانيسا وأنواع النبيذ . ولم يبد لنا المسلمون رغبتهم في انتهاك قانون محمد ، ولكن احتقارهم لإله الخمر لم يمنعهم من الانضمام للمسيحيين لتناول القهوة والمشروبات السكرية ، إذ يبدو أن احتفاءنا بهم ومجاملتنا لهم في ذلك اليوم قد راقى لهم وأرضت كبرياءهم .

بعد أن فرغنا من الغداء ، وفي حوالي الساعة الرابعة رفعنا الحواجز لينطلق سباق الخيول ومسابقات العدو ، وقد حصل على الجائزة الأولى في العدو على الأقدام المدعو باتو ، وهو عريف في لوائنا الخامس والسبعين . أما الجائزة الأولى في سباق الخيول فكانت من نصيب الكوميسير سوسى إذ قطع حصانه مسافة ١٣٥٠ قامة في أربع دقائق فقط .

وما إن بدأ ضوء النهار يخفت حتى أضىء السكان ، فكان منظر المصابيح وسط شرائط الزينة أسراً ساحراً للناظرين . بدأ إطلاق الألعاب النارية في الساعة الثامنة واتسمت بالذوق والفخامة ، حتى أنتى ما شهدت قط أجمل منها .

والحقيقة أن كل شيء مر في أفضل الظروف الممكنة . وقد اختتم الاحتفال برشقة جديدة من القذائف والطلقات المدفعية ، تحركت على إثرها الفرق الواحدة تلو الأخرى لتلحق بمراكزها .

في اليوم التالي ، تلقت وحدثنا أمرا بالرحيل فورا والتوجه إلى دمياط ، فقد كان العدو يتحرشون بحاميتنا المتمركزة هناك ، وقد شنوا عليها هجوما في الليلة من ٢٩ إلى ٣٠ فروكتيدور ، ولكنهم بدلا من أن يفتقدوا

تيقظ فرقنا النائمة ، لقي العديد من قطاع الطرق هؤلاء حتفهم ، الأمر الذى لم يقلت منه الباقون إلا بهروبهم السريع . ومنذ ذلك الحين وهم يتحينون الفرصة بلا جدوى للانتقام منا ، وقد كان هدفهم هو فرض جبايات ضخمة على المدينة كما جرت العادة بعد طردنا منها . وأقول إنها كانت عادتهم ، فعلى الرغم من تيقظ الممالك كانوا يأتون كل عام يحاصرون المدينة وينذرون السكان بوجوب دفع كمية من الأموال ، وكان السكان يضطرون للرضوخ لتجنب التعرض للنهب والموت . وكانوا يعتمدون على هذه الجبايات فى تدبير معاشهم .

رحلت كتيبنا توا لبلوغ دمياط غير أننى انفصلت عنها بعض الوقت مع بعض رملائى للانهاء من بعض الشئون الإدارية العسكرية . وكم كان ألى مبالغ استنكارى حينما بلغنى أن ريانين وليوتنت وأحد رؤساء هذه الكتيبة قد لقوا مصرعهم ذبحا فى النيل على يد البدو . وفكرت أننى ربما لو كنت معهم لجنبتهم هذا المصير التحس بمزيد من توخى الحذر أو بالجهود الشجاعة ، ولكن هلاكى معهم قد أعفانى من التهديدات التى حاصرتنا من كل صوب ومكان . وبالفعل ، تلقينا بلاغا من قائد موقع القاهرة ينبهنا فيه إلى ضرورة التيقظ والتأهب ، فالأتراك يريدون قتل جميع الفرنسيين ، ويقول إن خلاصنا وسلامتنا يعتمدان على شجاعتنا وصلابة دفاعنا .

دفعتنا تلك الأنباء إضافة لتلك التى وردت من دمياط إلى التفكير بجدية فى الأشياء ، واعتقدنا أن مصر وقد انقلبت بكاملها ضدنا ، تريد الهجوم علينا بهدف تحطيمنا تحت ثقل كثافتها الضخمة . وقد كانت هذه النوايا كفيلا أن تجسد الدماء فى عروقنا وتقذف الرعب فى قلب أى جيش آخر . إلا جيشنا ، فقد جابه مرات عديدة المسوت فما رأى فى العواصف التى راحت تتجمع فى طريقه سوى مناسبات جديدة يثبت فيها شجاعته ليحظى بمزيد من الانتصارات ، ثم إن هذه الحياة الكتيبة التى كان يحياها فى هذا المناخ ، جعلته غير مهال بموت أو بحياة .

على أية حال ، تبددت العاصفة هذه المرة ، وهدأت نفوسنا فقد باءت هذه المشاريع المشؤومة بالفشل بفضل يقظة رؤسائنا التي لا تعرف الكسل .
حينما فرغت أنا وزملائي مما أبقانا في القاهرة ، رغبنا في اللحاق بوحدةنا في دمياط ، غير أن القيادة عارضت رحيلنا بسبب المخاطر التي خشي علينا منها في أثناء تحركنا في النيل . ولكن لضرط توسلاتنا أذن لنا بالرحيل . فأبحرنا في التاسع من الشهر مع فرق مختلقة ، وبلغنا دمياط دون وقوع حوادث تذكر ، بفضل رياطة جأشنا واستعداداتنا الجيدة .

الثاني عشر من فندمير عام ٧ الموافق ٩ أكتوبر (١٧٩٨م)

لم يكن إبحارنا المرهق نتيجة لبسقاتنا في حالة تيقظ مستمر لضمان سلامتنا خاليا من المتعة ، لاسيما البصرية ، التي منحها لنا مشهد ضفتي النيل . كان مجراه شديد التعرج فكان كل منحني يمنح لناظرينا مشهداً مختلفاً . شاهدنا الأهرامات على مرمى البصر ، فبدت قممها من على هذا البعد كقمة جبال تلاشت خلف السحاب ، مثل جبل سافوا حينما ينظر إليه من أعلى الفورفير في ليون . كان منظرها يوحى بخشوع ديني ممزوج ببعض الشجن .

رحنا نكتشف أبراج الحمام التي تحيط بنا من كل جانب بشكلها الهرمي وأسراب الحمام تلحق حولها . وكلمنا تقدمنا ، وجدنا أنفسنا نسير وسط جزر يكسوها عشب كثيف شديد الارتفاع حيث يأتي الحماموس ليرعى . وقد نزل إلى النهر راع ممتطي أحد هذه الحيوانات ، وأخذ يفرقع بسوطه ويقود المسيرة حتى تبعه القطيع ونزل إلى النهر وهو يخور ثم اتجهوا

صوب المرعى . خلال الحر تعيش هذه الحيوانات فى النيل فتغمر نفسها حتى الاكتشاف فى مياهه ، ثم ترعى الحشائش الطرية الموجودة على طول ضفاف النيل . أما إناث هذه الحيوانات فتعطى وفرة من اللبن الدسم تصنع منه أجود أنواع الزبد .

ولعل ما يخفف من رتابة منظر هضاب مصر الواسعة المتشابهة هى تلك القرى المقامة على تلال صناعية «أهرامات طبيعية» ، وبعض النخيل والمدائن التى تعلو بعض الأبنية البائسة وهى كل ما فى هذه القرى .

وقد لاحظنا خلال توجهنا إلى دمياط الظاهرة نفسها التى سبق ورصدناها إبان رحلتنا الأولى إلى القاهرة . ففي المساء كما فى الصباح يكون شكل الأراضى طبيعياً ، فلا ترى بيتك وبين القرى الأخيرة التى تجاوزتها سوى الأرض . ولكن ما إن تزداد حرارة الجو نتيجة شدة الشمس ثم تنخفض قليلاً عند اقتراب الليل حتى يتغير المنظر فلا تعد الأراضى على نفس اتساعها وامتدادها ، بل تظهر وكأن بحرًا واسعًا يحوطها لمسافة فرسخ تقريباً . فتبدو القرى الواقعة خلف هذا المحيط وكأنها جزر تحوطها المياه ، تنعكس صورتها أسفلها كما لو أن مياه عاكسة تحيط بها ويخيل إليك عند رؤية أى خيال يمتطى صهوة فرسه على هذه الهضبة وكأنه يجتاز حقلًا مغمورًا بالمياه ، حتى لترتعد خوفاً عليه إن لم تكن على علم مسبق بتأثير الخداع البصرى الخاص بهذا المناخ .

ويسمى العلماء هذه الظاهرة بـ «السراب» وأترك لهم الكلمة لشرحها وتفسيرها : يعزى السيد مونج هذه الظاهرة لانخفاض كثافة طبقة الهواء السفلية . ويرجح أساساً هذا الانخفاض لارتفاع درجة الحرارة نتيجة

تسخين الشمس للرمال التى تتصل بها هذه الطبقة اتصالا مباشرا .
وهى ظاهرة تحدث فى البحر أيضا فى ظروف خاصة ، حينما يُحمَل الجزء
الأسفل من الهواء بطبقة مياه متبخرة تفوق مثيلتها فى الطبقات الأخرى .
فى هذه الحالة ، عند وصول أشعة الضوء المنبعثة من طبقات السماء السفلية
إلى السطح الذى يفصل الطبقة الأقل كثافة عن الطبقات التى تعلوها ، فإن
هذه الأشعة لا تتخلل هذه الطبقة بل ترتد مرة أخرى وتنعكس فترسم فى
ناظرى الشخص الذى يتأملها صورة السماء حتى يحسب أن ما يراه هو
جزء من السماء أسفل خط الأفق ، نفس هذا الجزء هو الذى نعتقد أنه مياه
حينما تحدث هذه الظاهرة على الأرض . فإذا كنا فى البحر ، بدى لنا الأمر
وكأننا نرى فى السماء جميع الأشياء التى تطفو على السطح الذى تشغله
صورة السماء .

ليست مدينة دمياط التى بلغناها فى الثانى عشر من الشهر مدينة
كبيرة ، ولكنها من أبهج مدن مصر وأكثرها نشاطا تجاريا . وهى تتخذ
شكلا نصف دائرى على ضفة النيل الشرقية ، على بعد فرسخين ونصف
من مياه البحر . وتعد بيوتها - لا سيما تلك الواقعة على ضفاف النيل -
شديدة الارتفاع . ويوجد بأغلبها مجالس جميلة مشيدة فوق أسطح
الأبنية . كما ينتشر بها أكثر من مسجد كبير مزين بالمآذن العالية . وهى تقع
على لسان طويل من الأرض يحدها شمالا البحر والنيل غربا وبحيرة المنزلة
شرقا (١) .

غير أن موقعها المتميز لم يجعلها بمنأى عن أعمال قطع الطريق .
كان المماليك يستنزفونها كل عام ويُحصِّلون الجبايات قصرا . فما كادوا
يرحلون حتى وصل البدو ليفرضوا بدورهم الإتاوات على السكان التبعاء .

(١) أبحر القديس لويس من دمياط ٤ يونيو ١٢٤٩ عام خلال حملته الأولى إلى
الأراضى المقدسة ، وفى العام التالى تم أسره فى المنصورة .

ولم يفزعهم وجود الفرنسيين فى الأتحاء هذا العام . بل راحوا بجرأة يفرضون ضرائبهم المعتادة وسعوا لمفاجشتهم ، ولكن هذا لم يفلح . فعلى الرغم من أنهم كانوا يسببون لنا قلقًا دائمًا إلا أن يقظتنا شلتهم . وفى نهاية الأمر حاولوا الوصول الى دمياط عن طريق بحيرة المنزلة ، فتصدينا لهم بأسطول مسلح وقوة حراسة قوية تمركزت حيث اعتقدنا أن عمليات الإنزال ستتم . مما جعل محاولاتهم كلها تبوء بالفشل ، بل تشكل خطرا عليهم . وقد كان اليونانيون المقيمون فى دمياط خير عون لنا ، إذ ظلوا ينبهوننا بلا كلل إلى مناورات البدو وخطط أنصارهم فى المدينة ، وأسدوا لنا خدمة جليلة فى الليلة من ٢٩ إلى ٣٠ فروكتيدور عام ٧ ، حيث استمعوا إلى هذه الصيحة التى أطلقت باللغة العربية من أعلى المساجد : «أيها الشعب ، استيقظ فسوف نذبح الفرنسيين» . فقاموا فوراً بإبلاغ الجنرال فيال قائد هذا الموقع ، ولم يكن لنا أن نفهم أبدا هذه الصيحة الموجهة باللغة العربية بما تنطوى عليه من نتائج مشؤومة لولا تحذير اليونانيين المحمود .

وقد أحسن الجنرال فيال صنعا بعدم إهمال هذا النبأ ، فسقد اتخذت جميع الإجراءات المناسبة وجعل البدو يندمون على فرط اقتربهم منا فى بحيرة المنزلة .

هذا ما حدث لفرقتى . وحتى تعلم أيها القارئ ما كان يحدث فى نفس الوقت على الأصعدة الأخرى ، إليك التقرير الذى أرسله القائد العام لحكومة المديرين التنفيذية .

تقرير الى حكومة المديرين

مركز القيادة بالقاهرة

السادس والعشرون من فانديميير عام ٧ ، الموافق ١٧ أكتوبر (١٧٩٨ م)

من بونابرت القائد العام إلى حكومة المديرين .

المواطنون المديرون

إليكم تقريراً مفصلاً عن مختلف المعارك التي دارت على جبهات مختلفة وفي أوقات متفرقة ضد المماليك ومختلف القبائل العربية وبعض القرى الثائرة .

معركة ميت غمر

كان بدو الدرنه يحتلون قرية دنوهيا التي كانت الفيضانات تحيطها من كل جانب . وقد ظنوا انهم محصنون وراحوا يعيشون فى النيل فسادا بعمليات القرصنة وقطع الطريق التي كانوا يمارسونها . وقد تلقى كل من الجنرال مورا ولانوس أوامر بالتوجه نحوها ، فبلغاها فى السابع من فانديمير الموافق ٢٨ سبتمبر . وقد تفرق البدو العرب بعد رشقهم بالنيران فلاحقتهم قواتنا لمسافة خمسة فراسخ حتى غمرتهم المياه إلى الأحزمة . أما بالنسبة لقواتهم وجمالهم وعتادهم ، فقد سقطت جميعها بين أيدينا . ولقى أكثر من مائتى شخص من هؤلاء التعساء مصرعهم فكانوا ما بين قتلى وغرقى .

والعرب فى مصر مثل الباريه فى مدينة نيس مع الفارق الكبير أنهم لا يعيشون فى الجبال وإنما يمتطون دائماً صهوة خيولهم ويعيشون وسط الصحارى . وهم ينهبون الأتراك والمصريين والأوربيين على حد سواء . ولا يعادل بؤس الحياة التى يحيونها شيئاً سوى شراستهم . فتعرضهم أيام طوال للرمال الحارقة ولهبب الشمس دون مياه تروى ظمأهم ، جعل قلوبهم قاسية لا تعرف شفقة ولا عقيدة . إنه مشهد للإنسان البرى الوحشى فى أبشع صورة ممكن تخيلها .

معركة سدمنت

فجر يوم ١٦ فاندبيير ، تحركت فرقة الجنرال ديزيه ، وما لبثت أن وجدت نفسها فى مواجهة جيش مراد بك وقوامه من خمسة إلى ستة آلاف فارس وهى أكبر فرقة عربية ، إضافة إلى مجموعة من المشاة كانت تحرس خنادق سدمنت ، قام الجنرال ديزيه بتشكيل فرقته المكونة كلها من سلاح المشاة على هيئة كتيبة مربعة يقوم على حراستها مربعان صغيران قوام كل منهما مائتا جندى .

بعد تردد طويل ، عقد المماليك عزمهم وانقضوا ببسالة كبيرة مطلقيين صيحات مرعبة ، وقاموا بالهجوم على الجناح الأيمن بقيادة الكابتن فاليت والتابع للواء ٢١ ، كما شنوا هجوما مماثلا فى ذات الوقت على مؤخرة القوات التابعة للواء ٨٨ وهى فرقة جيدة بأسلة .

وقد قُوبل العدو على كافة الجبهات برياطة جأش . ولم تطلق الفرقة ٢١ النيران إلا بعدما أصبح العدو على بعد ١٠ خطوات ، فتسلاقت مع حرابهم . . أما الشجعان من فرقة الخيالة الباسلة فقد لقوا مصرعهم ما بين صفوفنا ، بعد أن انهالوا بهراواتهم وبلطاتهم وأسلحتهم وبنادقهم ومسدساتهم على رؤوس جنودنا . وقد تسلل البعض منهم منبسطحا على الأرض بعد أن سقطت خيوله صرعى ، حتى لا تطولهم الهراوات فيتمكنوا من بتر أقدام جنودنا ، غدير أن محاولاتهم باءت جميعها بالفشل ولم يبق أمامهم من سبيل سوى الفرار .

واصلت جيوشنا الزحف نحو سدمنت على الرغم من خطورة قذائف المدافع الأربعة التى كانت ترصد تحركاتنا ، ولكن قتالنا كان منظم بشدة ،

فكانت الهجمة خاطفة كالبرق، وتمكنا من الاستيلاء على الخنادق بالعتاد والمدافع .

وقد لقي ثلاثة بكوات من جيش مراد بك مصرعهم ، وأصيب اثنان آخران . بينما قتل في ساحة الحرب أربعمائة من صفوف الرجال . أما خسائرنا فقد انحسرت في ثلاثين قتيلاً وتسعين مصاباً .

بونايرت

ثورة القاهرة

نعلمنا بعض الوقت بهدوء جميل في دمياط جعلنا نعتقد في انعدام قيام أعدائنا بأية مشاريع مشؤومة . فقد تخيلنا أن الفزع الذي تشيره أسلحتنا، والصراخ التي ردعنا بها المرة تلو الأخرى المتمردين ، ستجبر المنهزم دوماً على خشيئتنا . ولكن حكمنا لم يكن صائباً ، فصرعان ما وردت لنا أنباء عن تمرد القاهرة ، ولم يترك انقطاع البريد أي شك في نفوسنا حول صدق هذه الأنباء . علمنا أنه في صباح الثلاثين من شهر فانديمير تجمع سكان القاهرة محدثين شغباً كبيراً في جوامعهم ، ومن هناك توجهوا صوب منازل الفرنسيين . وكان أن خرج الجنرال دوبرا المكلف بقيادة الموقع للتشاور مع قائد الفيلق التركي لردع المتمردين ، فذبحوه هو وطاقم حراسته . وعلمنا أنه على الرغم من الدوريات شبه الدائمة كانوا يقتلون الفرنسيين الذين يلقسونهم ممن لا حول لهم ولا قوة ، وأنهم نهبوا منزل الجنرال كافاريللي بما فيه من أدوات وآلات خاصة بالهندسة الحربية ، وأن بولاق انضمت لهذا الشغب ، وأنهم ذبحوا حيازي الجيش إضافة إلى سولكوفسكى قائد إحدى الكتائب وثمانية عشر مرشداً كانوا في صحبته ، وعبثاً حاول البعض إطلاق المدافع التحذيرية لدب الرعب في قلوبهم ،

ولكن الفرنسيين اضطروا فى النهاية لإطلاق المدافع وقذف المدينة من مواقع عديدة لا سيما من القلعة . وأن نيران مدافعيتنا تركزت بشكل أساسى على المسجد الذى ضيقت دوريتنا الخناق على الثوار به ، وأن البدو حاولوا الدخول إلى المدينة من أكثر من جهة لم يد العون إليهم ولكنهم لقوا ما استحقوا من عقاب من جراء تهوورهم . وبحلول الليل كان الجميع قد خضع وعاد كل شىء إلى سابق عهده فى الأول من برومير فى الساعة العاشرة مساء .

وقد كان للاحتياطات التى اتخذناها لوأد بذور هذا التمرد والشدة التى أظهرناها فى هذه الظروف والمآسى التى جلبتها هذه المدينة على نفسها أبلغ الأثر فى إثارة الرعب فى نفوس من راودتهم أنفسهم أو تهمسوا لكى يحدوا حذو أهل القاهرة . فلزموا حدودهم لحسن الحظ . وقد كنا نعلم جيدا أن الكل كان مستعدا للثورة والتمرد لو أن محاولة القاهرة قد كملها النجاح . كانت نخسائر الأتراك وخيمة ، لاسيما فى بولاق التى دمرها أسطولنا الحربى ، المتمركز أمامها فى النيل .

وما كادت هذه العاصفة تهدأ حتى بدأت عاصفة أخرى فى مصر العليا . فبعد أن تلقى الإنجليز تدعيمًا روسيًا تركيًا ، حاولوا إجراء عملية إنزال فى أبى قيسر بءت بالفشل ، وقد جعلتنا هذه المحاولة الجديدة نرى بوضوح المدبر والمحرك الأول لهذا الهياج العام الذى أخذ يتهددنا من كل صوب ومكان . عملاء الإنجليز الذين تواطئوا مع عملاء المماليك وراحوا يجوبون مصر ، يبدرون الذهب ويجزلون العطاء والوعود ويشيعون الفزع والفساد ويشيرون المصريين والبدو العرب ضدنا . وراحوا فى كل مكان يسرقون فى إشاعة الفرمانات المزموعة من الباب العالى يدعون فيها على لسانه أننا قدمنا إلى مصر ضد رغبة السلطان . وراحوا ينشرون أن الباب العالى قد أرسل أسطولاً حربياً لملاقاتنا وأنه بالاشتراك مع السفن الإنجليزية

قام باستعادة مدينة الإسكندرية . وقد لعب حسن طوبار الدور الأكبر فى هذه المناورات ، وكان حسن طوبار هذا يدعى منذ وقت طويل بحقه فى حكم دميماط وضواحيها . ولم يستطع المماليك الوقوف أمامه فتركوه ينعم دون رادع بغنيمة مقابل جزية كان يدفعها لهم ، وقدرها خمسمائة ألف فرنك . وقد كون هذا المغامر على البحيرة أسطولا حربيا صغيرا مكونا من نفاية المصريين الذين انبهروا بفرماناته ، فكانوا يأتون من حين لأخر لإثارة القلق فى نفوس الناس فى دميماط وأنحائها . وقد دفعنى أسلوب هذه الفرمانات التى تحدثنا عنها والطريقة التى وصفوا بها الجيش الفرنسى لأن أورها هنا بالنص .

فرمان من الوالى

إلى سكان العريش وشعب مصر

نعيطكم علما بأن الباب العالى قد بلغه أمر غزو المحتالين الفرنسيين لمصر ، وهم يدعون زورا أن لديهم تصريحاً بهذا ، وما هى إلا فرمانات سلطانية مزيفة لم يصدرها الباب العالى ، وخطابات مزيفة باسم شخصيات بارزة ، باسمها يريدون طرد الأمراء من مصر وتخليصكم من اضطهادهم .

وهم يخفون نواياهم تحت عباءة الكذب والفسوق . لقد دخلوا إلى الإسكندرية وتمكنوا من الاستيلاء على جميع أنحاء مصر ، ونشروا سمومهم بين سكان البلاد . واليوم انكشفت أقنعتهم . فقد كشفت عن نواياهم الخادعة خطاباتهم المرسلة إلى بلادهم والتى تم احتجارها وقامت بترجمتها السلطات العليا التى حرصت على إحاطة البدو بها علما . ثم إن نواياهم لا تقتصر فقط على حكم مصر إنما تشمل غزو سوريا وبلاد فارس (فليحفظنا الله جميعا من هذا الشر) .

إنهم اليوم يعاملونكم بالحسنى ، ويخدعونكم بتصرفاتهم الحالية حتى يتمكنوا منكم فيحملونكم حينئذ على رد هباتهم مائة ضعف . سوف يصادرون أموال المؤمنين الحق ويستحلون نساءكم ويجعلون أطفالكم عبيداً وسوف تسيل دماؤكم (فليحفظنا الله) ولكن علينا أن نطيع الله الذي يأمرنا ببذل أموالنا وأنفسنا في سبيله .

ويعتضى هذا الأمر ، فإن الباب العالى المقوض بسلطة من ملك الملوك ، سيد الأبطال والمتصرفين ، ملك البحرين والبرين سيد العالم - راده الله مجدا وحلت له شفاعة رسوله ونبيه المختار المتوكل على الله - يعلن الحرب على أعدائه بمقتضى سلطته وتفويضه الخاص والكامل ، عاقدا عزمه وتوكله على الله . ويعتضى السلطة التى خولنى إياها ملكنا ، ورب سعادتنا ، وكذلك كبار شخصيات البلاط ، فقد قمست بتجنيد فرق عديدة قادمة من كل صوب ومكان من تركيا واليونان وبلاد فارس .

وبعد أن تزودنا بكل ما يلزم ، وبالعناد الحربى المطلوب لصرع أعدائنا سوف نغادر بلاط الباب العالى بصحبة هؤلاء الأبطال الذين يماثلون فى عددهم الرمال على شاطئ البحر . ونحن نأمل - بعون الله - القضاء إلى الأبد على هؤلاء المغتصبين الخونة وتخليص المؤمنين من سيطرتهم . وقد أعلنت القوة المسيحية الأخرى الكراهية والحرب عليهم بالمثل ، لتدنيسهم مقدساتها وحرقتهم كتبها وقتلهم قساوستها ومحاربتهم دينها وملكها ، ولإعلانهم عداوتهم لكافة الممالك المسيحية وانقضاضهم عليها كالكلاب . منذ هذه اللحظة تأهبت السفن الإنجليزية والروسية لممد يد العون لاسطول الباب العالى ، سيكون لها مدد على الأرض ، لاسيما وقد ربطت أواصر الصداقة بين القوتين بعد معاهدة التحالف الجديدة التى أبرمت مع الباب العالى .

ولقد وصلنا بحمد الله إلى دمشق بفضل أبطال ظافرين ، ويسعدنا أن ينضموا إليكم سلاح هائل للمشاة وبكل ما يلزم للنصر . أيها المسلمون ، أشيخوا بوجوهكم عن الخونة ، واعتصموا بالله والرسول ، كما اعتصم آباؤكم وأمهاتكم ، وهلموا ، اطلبوا مدد العرب وسكان البلاد ولتتحد قلوبنا ولتتقد حميتكم بنيران الثورة المقدسة وبجهودنا وبنية ملكنا ، فهذا هو واجبنا المقدس تجاه ديننا . ولا تنصتوا للبيانات الماكرة الصادرة عن هؤلاء الخونة والمليئة بالشر والخداع فلم يعد لهم أى أمل . وبوصولنا سوف يصبحون - بعون الله - ضحايا تعساء لمحاربتنا الشجعان . وبمجرد أن تحاطوا علما بهذه الأوامر ، وبمجرد أن تفهموا محتواها انضموا إلى إخوانكم وتصدوا لمقارمة الخونة واحذروا العصيان إن أردتم تجنب العقاب فى الدنيا والآخرة والسلام .

مجموعة إمضاءات

على الرغم من أن مثل هذه البيانات ما كتبت إلا ليكون لها أوجع العواقب علينا ، وكان الهدف منها تحريض وإذكاء التعصب الدينى ضدنا لدى مختلف فئات شعب مصر الذين لا يربط بينهم من رابط سوى شريعة محمد ، وليلعننا الجميع لعداوتنا للأديان حتى الدين الذى تربينا عليه ، نظرا لحروبنا الدائمة مع جميع الممالك المسيحية ، إلا أنها لم تسفر عن الأثر الذى كان يأمله من وضعوها ونشروها وإن جعلتنا نكتشف حجم المخاطر التى تُحصد بنا واستحالة عودتنا إلى وطننا وإبقاءنا على هذه الأراضى التى استولينا عليها إن لم ترسل إلينا فرنسا تعزيزات جديدة ، فحتى إن نجحنا فى مواجهة أعدائنا فمن يؤمتنا ضد الطاعون ، هذه الآفة الرهيبة التى تحتاج مصر سنويا ، ألم تحصد صفوفنا بصورة أكثر فاعلية

وسرعة من أسلحة المسلمين ؟ ثم ماذا لو تعرضت فرنسا ذاتها للهجوم ؟
ماذا لو انتُهِك السلام الذى تركناها تنعم به عند رحيلنا ؟ كيف تمَدنا فى
هذا الحين بغوث ستكون هى فى أمس الحاجة إليه للذود عن نفسها ؟

كل هذه الأفكار شغلت أذهاننا فى تلك اللحظات القاسية ، ولكن ما
لبثت الشجاعة أن طفت على السطح من جديد . ورحنا نقول إن خلاصنا
يكمن فى عدم تشبثنا بأية آمال واهية ، وإن علينا أن نترك للقدر أمر التكفل
بمصائرنا . ورحنا نتفاخر بعد ذلك بإمكانية إقامة مستعمرة لنا فى مصر ،
وبينا حول هذه الفكرة قصوراً ساحرة من الرمال : سنستولى على مضيق
السويس ، ونشيد تحصينات فى الأماكن المناسبة ، ونقيم حاجزا لا يقهر فى
وجه باشا سوريا ووزيره اللذين يتهددانا بالهجوم . وفكرنا أننا بإصلاح قناة
السويس وتهيئتها للملاحة ، سنفتح المجال لتبادل حر بين البحر الأبيض
المتوسط والبحر الأحمر ، وبين فرنسا والهند ، وستصبح مصر مستودعاً
للبضائع القادمة من أوروبا وآسيا ، ولن تضطر سفننا للمرور مضطرة عن
طريق جبل طارق أو أن تتخذ هذا المسلك الهائل حول طريق رأس الرجاء
الصالح . وسوف نجد شباب هذا البلد ونضمهم لصفوف جيشنا وندريبهم
على استخدام الأسلحة ، وسوف يتعلق ذوقهم بنا بعد أن نمنحهم رغد
العيش والأمان والسكينة ، وكذلك باحترامنا معتقداتهم . كما سوف يزداد
تعداد السكان وسط مناخ من السعادة والوفرة ، وسوف نستولى على
مزرعة وضيعة من ضياع الممالك ، ونزرعها على الطريقة الفرنسية ،
وسوف ننظف جميع قنوات الري وبحيرة موسى ، ونصلح من شأن التربة
بزراعة الأشجار المعمرة التى ستقينا أوراقها الظليلة لهيب الشمس ،
وستعود مصر من جديد مخزون غلال أوربا كما كانت يوماً للإمبراطورية
الرومانية ، وسنعيد تشييد الآثار القديمة المتهمة ويفك علماؤنا الرموز التى

تزخر بها ، وسيتمكنون بطريقتهم من كشف اللثام عن هذا التاريخ المبهم القديم ، وستعود مصر من جديد عاصمة للفنون والعلوم .

فأرض هذا البلد بطبيعتها خصبة سخية ستقبل كافة المزروعات من أرز وقمح وبن وسكر وتين وأشجار ، وسوف تزدهر زراعة الغلال على أيدينا حتى لتغنينا عن جميع منتجات المستعمرات التي قمنا بغزوها . وإن كانت زراعة الأعناب والمحاصيل الغذائية غير شائعة فذلك لأن زراعتها قد أهملت . ففي أول الفراعنة لم تكن البلاد تخلو منها وقد افتقد بنو إسرائيل بصل مصر في صحراء سيناء .

ثم كن منا حلم تحقيق هذه الأوهام البراقة حتى بدا لنا أن كل ما يقوم به قادتنا يديننا من هذا الهدف ، فقد وصل جنرالنا بالفعل إلى السويس بقواته مع العلماء الذين انضموا للحملة ، واستولى على المدينة التي تحمل هذا الاسم وبلغ القنال ووضع خريطة لمعالمها القديمة . كما أقام وسائل نقل سهلة تصل السويس بالقاهرة وبليس . وقد كان من شأن الإجراءات التي اتخذها استعادة السويس لعظمتها القديمة . وخلال إقامته بها ، تحالف الجنرال مع عرب الطور الذين قدموا ليعرضوها عليه فتم استقبالهم كأصدقاء للجمهورية . ومن ناحية أخرى كانت المنشآت التي رحنا نقيمها في مختلف المواقع ، وطريقة إدارة البلاد والأعمال التي شرعنا فيها لتحسينها والبقاء فيها وراء ترسيخ اعتقادنا بأننا أصبحنا سادة ضفاف النيل .

وبينما نحن نعقد آمالنا ونشخص بأبصارنا نحو مستقبل غير مضمون ، سرت شائعة سرعان ما تأكدت بقرب رحيلنا إلى سوريا التي حشد الباشا «الجزار» فيها جيوشا كبيرة لملاقاة ، فلم نر في هذا المشروع سوى جبهة جديدة يتأكد فيها مجدنا ، وأعمال لا حصر لها كذلك . لم نهمل أى شيء مما تستدعيه الاستعدادات لمثل هذه الحملة . ورحنا نعمل

بكل طاقتنا لإقامتها خلال شهرى نيفسور وفرعير ، ولم يمنعنا
الموسم الذى كنا فيه من الإصابة بحمى خبيثة انتشرت لا سيما فى
الإسكندرية ودمياط ، فحصلت عدداً من زملائنا . لم يهملهم هذا المرض
اللعين سوى بضعة أيام قبل أن يفتك بهم ،

ومع هذا ، فقد فجعنا بحنكتنا فى وقف فتكه بنا حتى تبدد خطرة
تماما . فى ذات الوقت ، أى بعد قمع ثورة القاهرة ، أعلن بونايرت البيان
التالى :

إلى أهالى القاهرة

حاولت فئة شقية تضليل البعض منكم وقد هلكت . لقد أمرنى الله
بالتسامح والرحمة مع الشعب ، فكنت متسامحاً ورحيماً بكم . لقد
ساءتنى ثورتكم ، فحرمتكم لمدة شهرين من ديوانكم ، ولكننى اليوم أعيده
إليكم ، فقد محا سلوككم الطيب الأثر الذى خلفته ثورتكم .

أيها الأشراف والعلماء وخطباء المساجد ، فلتعلنوا أن من سينصب
نفسه عن قصد عدوا لى فلن يكون له ملاذ فى هذه الدنيا ولا فى الآخرة .
فهل هناك إنسان تعميه الغشاوة عن التأكد من أن القدر ذاته هو الذى يقود
جميع عملياتى ؟ وهل من أحد على هذا القدر من السذاجة حتى ليشكك
أن كل شئ فى هذا الكون الفسيح ليخضع لسطوة القدر ؟

فلتقولوا للشعب قد قدر منذ بدء الخليقة ، أنه بعد القضاء على أعداء
الإسلام وإرخاء الصليان ، سوف آتى من أعماق الغرب لأنفذ المهمة الملقاة
على عاتقى . وضحوا للشعب أن هناك أكثر من عشرين فقرة فى كتاب
القرآن المقدس تفيد أن ما يحدث قد قدر ، وتوضح ما سوف يجىء . فعلى
من لا يلعنونا فقط خشية أسلحتنا أن يغيروا من أنفسهم . لأنهم إن دعوا

علينا فإثما ينشدون هلاكهم . وعلى المؤمنين بحق أن يتضرعوا بالدعاء من أجل ازدهار جيوشنا .

بإمكاني محاسبة كل فرد على أدق المشاعر الخبيثة في قلبه ، حيث إنني أعلم كل ما في أنفسكم . . حتى ما لم تصرحوا به لأحد . ولكن يوما ما سيرى الجميع بوضوح أن ما تقودنى هى أوامر عليا وأن جميع الجهود الإنسانية لن تجدى معنى ولن تضرنى بشيء . وسعداء الحظ هم من سوف يقفون بمشاعر خالصة إلى جانبي .

بونابرت

إما أن العرافين فى القاهرة قد اتخذوا بهذا الحديث غير العادى ، وإما أننا قد كسبناهم ببعض الهدايا البسيطة ، لأنهم تبنا سريعا وجهة نظر جنرالنا بل أسهموا فى تهذئة الشعب ، وإن لم ينجحوا فى تبديد ما فى النفوس . فقد زعموا أن السلطان الفرنسى سوف يختن ، ويضع العمامة ويتبع دين محمد وكذلك جيشه ، وأن قائداً مثله وجميع الأبطال الذين حولته جديرون بأن يطاعوا ، أو أن يحترموا على الأقل . والحقيقة أن أغلب جنودنا لم يكونوا ليرفضوا جنة النبى إن هو وعدهم بأن يزرعوا فيها أعنابا للنبيذ ، وإن أعفاهم من الاحتفال بهذه المناسبة . ولكن نظرا لتأكدهم من عدم حصولهم على جميع هذه الإعفاءات ، فقد اكتفوا بالتفكير فى الهدف من وراء هذا البيان . الذى جعله المارحون مسادة لدعاباتهم ، بينما راح الفلاسفة أو النبهاء - كما كان يسميهم البعض - يسخرون منه أو يرفعون الأكتاف . وكان من رأيهم أنهم لم يحاربوا المعتقدات الأوربية الخاطئة ليتبنوا المعتقدات الشرقية . وإنه ما من سبيل إلا بقول الصديق للشعوب . أما رجال السياسة فعلى عكسهم ، أصروا أن سلامة الجيش تقتضى مثل هذا السلوك ، وأن الرومان حينما كانت

فتوحاتهم تمتد عبر حدودهم ، لم يكونوا ليغيروا شيئاً من عادات وتقاليدهم وقوانين وديانة الشعوب التي ينتصرون عليها ، وأنه بدلاً من جعلها تؤمن بآلهة الكابيتول ، كانوا يمجّدون إله أثينا بدلاً منها . وقد انضم الجيش كله إلى هذا الرأي الأخير الذى كان فى الحقيقة رأى الجنرال . أما عن النبوءة التى ذكرها فى بيانه ، فقد تركنا للزمن فرصة إجلاء أمرها لنا ، وجاءت الأحداث التالية لتكشف لنا جزئياً عن سر هذا اللغز .

قبل التوجه إلى سوريا ، شكلنا كتيبة من الهجانة ، قدمت لنا خدمات جليلة . فالجمال حيوانات شديدة القوة لها قدرة كبيرة على تحمل التعب . إذ يمكنها قطع مسافة عشرين فرسخاً فى اليوم دون أكل أو شرب مع حمل رجلين إضافة إلى العتاد والمؤن . كان يقودها رجال يرتدون الجلباب العربى ، ويضعون العمامة فوق رؤوسهم . وقد أدى هذا إلى تأكيد نبوءة العرافين فى أذهان المسلمين بل جعلنا نكاد نعتقد قرب اعتناقنا هذا الدين .

فى هذه الأثناء ، تلقى كتيبتنا أمراً بالتحرك نحو سوريا . فغادرت دمياط فى الثانى من بلوفيز عام ٧ ، الموافق ٢١ يناير (١٧٩٩م) ، أبحرنا متجهين صوب بحيرة المنزلة . وفى الرابع من هذا الشهر ، هدأنا المسيرة حتى نلحق بنا بقية القافلة عند ترعة أم فارج الواقعة على مدخل النيل القديم المسمى الثانيتى . وبعد وصول القافلة ، فردنا القلوع مرة أخرى ورحلنا فبلغنا مساء قرية طنان الواقعة على شط البحر ومنها واصلنا التقدم فى الصحراء .

وبما أنه لا يوجد أثر لطريق فى مثل هذه الصحارى فقد فسّد خادمى أثرنا وتاه فى هذه الأراضى الرملية . وحسبما حلّ الليل ولم أره ، داخلنى إحساس يقينى أن العرب وراء هذا وأنهم لابد سلبوه الحمار ومتعلقاتى التى عهدت بها إليه وذبحوه . ومضيت فى طريقى وقد

استسلمت لهذه التضحية الجديدة ووصلت وفرقتى فى الساعة الحادية عشرة إلى قطية وهو مكان تجمع القوات التى ستتشكل منها طلائع الجيش إلى سوريا .

وكم كانت دهشتى صباح اليوم التالى حينما رأيت خادماً قداماً بحمولته سالماً غائماً . وكيف استطاع تجنب ضراوة هؤلاء البدو المتوحشين الذين كانوا يعيشون فى الصحراء فساداً فيزيدون من وعسورتها . وهذا ما رواه لى :

«بعدما تركتكم ، وجدت نفسى دون سابق إنذار فى خيمة رعيم للعرب فجلست أستريح فى ظل خيمته ، وإذ به يظهر بعد حين فطلبت منه بالعربية حسن الوفادة ، فأجابنى : «لحسن طالعك أنك جاورت خيمتى فهذا يضمن لك عهدى بالأمان ، وحسن الضيافة واجب مقدس بيننا» . وبعد أن سقاني أنا وحمارى ، صرفنى وهو يصحبنى بأفضل أمنيات السعادة » وقال لى : «امض فى طريقك لا تنحرف يمينا أو يساراً لأنه لو قابلتك أحد من رجالى خارج هذا الخط المستقيم فلن أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك ، وسيكون مصيرك سيئاً» . وبالطبع لا تسألنى إن كنت لم أحد عن الطريق الذى أشار إلى به بعينه ويده ، لذا لم أقابل أحداً وها أنا بينكم كما ترون» .

كان حظه أفضل بكثير من أحد مفارز كتبتنا بقيادة كابتن وملازم ، كانت تحرس قافلة مواد إعاشة . إذ قامت مجموعة من قطاع الطرق بمهاجمتها فى العاشر من هذا الشهر فى الصحراء على بعد فرسخين من قطية . كانت تفوقهم عدداً ، فجرح الكابتن وصرعت ثلاثة رجال وأصابت أربعة عشر آخرين واستولت على القافلة .

٤ فبراير (١٧٩٩م)

السادس عشر من بلوفيور ، فى الحادية عشرة مساء رجعنا من قطية للبحث عن قافلة مؤن وعتاد . وبسبب ظلمة الليل ، ضللنا الطريق فى الصحراء . وبعد أن ظللنا نسير دون انقطاع بدأ الفجر يبرز ، فإذ بنا على مسافة فرسخ ونصف من نقطة البداية . وعلى الرغم من فرط انهائنا ، مضينا فى طريقنا وعدنا فى المساء إلى قطية حيث كان بانتظارنا أمر جديد بالرحيل . فرحلنا صباح اليوم التالى ونصبنا «وطاقنا» على بعد ستة فراسخ من هذا المكان . ولم نجد سوى ماء أجاج نطفئ به ظمأنا الشديد .

التاسع عشر من بلوفيور ، أمضينا النهار فى قطع مسافة ثمانية فراسخ فوق رمال حارقة دون العثور على قطرة ماء لا على الطريق ولا حيث توقفنا . فما كان من أحد الجنود الذين تذرعوا بالصبر حتى هذه اللحظة إلا أن انقض باندفاع شديد على قِرب المياه ومنعنا من توزيعها بالتساوى .

العشرون من بلوفيور ، أهلكنا العطش والمماليك ، وقد وهنت قوانا من جراء ملاحقتهم حتى أن نصف وحدتنا سقطت من الإعياء ، وظل العديد من الجنود راقدين بلا حراك أو حياة . بلغنا أحد الصهاريج فى الليل ، ولما لم يكف هذا العدد الكبير شرعنا فى حفر الأرض المحيطة وقد بدت لنا رطبة ، ولججنا فى استخراج مياه نطفئ بها ظمأنا . وعلى الرغم من رداءتها إلا أنها كانت فى هذه اللحظة أشهى من أفضل نبيذ فى العالم . وبعد أن روينا ظمأنا استعدادنا مرحنا الطبيعى الذى يميز الفرنسيين ونسينا آلامنا السابقة . فعدنا نتبادل الدعابات والتراشق بالألفاظ الفاحشة حتى وصلنا إلى غابة من نخيل بالقرب من العريش على بعد فرسخ من البحر ، فاتخذنا بعض الاستعدادات للاستيلاء عليها . ولكن الهجوم أرجىء للغد . ولا أدري أية غشاوة أقنعتنا أن هذا المكان لا يضم سوى

مجموعة من أكواخ عتيقة يحرسها نفر قليل . وقد دفعنا ثمن سوء تقديرنا هذا غاليا إلى حد ما . فقد قام الجنرال رينيه قائد المفصرة المتقدمة بإطلاق ما يقرب من ثلاثين طلقة مدفعية على هذه الأكواخ ، ولما لم يرد سلاح مشاة العدو ، وقع هو في الفخ . فقد قربنا هذا الهجوم من الهدف فزالَت الغشاوة عن عيوننا وأدركنا بعد فوات الأوان أن أمامنا قلعة منيعة مغلقة ، أمامها حائط مرتفع يخفى قرية أو كمية من المنازل الصغيرة المليئة بالرجال المسلحين . وقد تركونا نتقدم و . ما كدنا ، حتى انهالوا علينا بوابل من الطلقات ، فكانت تأتينا من كل صوب ومكان دون حتى أن نتمكن من تبيين مصدرها . وقد قاتلنا بضراوة ولكننا اضطررنا إلى التسليم ، نظرا لتفوقهم العددي علينا ولتميز موقعهم . وقد كلفتنا تلك المفاجأة - أو ربما بغفلتنا - عن أخذ الاحتياطات الطبيعية - ثلاثمائة شخص أصبحوا غير صالحين للقتال كنت من بينهم . فقد أصبت برصاصة حطمت بعض عظام ساقى اليمنى . أما العدو فقد فقد بدوره عدداً كبيراً من صفوفه . وبعد أن جعل هذا الحادث المزعج عملية اقتحام القلعة أمراً محفوفاً بالمخاطر ، اضطررنا إلى تغيير خططنا والاكتفاء بمحاصرته انتظاراً لإمدادات جديدة . ولم يكن هذا الوضع بأفضل من سابقه ، فقد كانت تنقصنا مواد الإعاشة كما كان يتهددنا ويقلق راحتنا بصورة مستمرة حوالى ستمائة مملوك على صهوة خيولهم ، إضافة لثلاثمائة من المشاة كانوا يحاولون إمداد الحصن بالمواد الغذائية .

ظللنا في حالة استعداد دائمة بأسلحتنا ولكننا لم نكن نعرف أى المواقع نتخذها . كانت الإسعاف هى الشئ الوحيد الثابت رغم تعرضها للخطر ولكن طبيعة أغلب الإصابات لم تكن تسمح للمرضى بأية حركة وقد كادوا يذبحون مائة مرة طوال فترة الحصار . كانت لحظات قاسية كدنا نموت فيها مائة مرة ومرة دون أن نرى نهاية لهذا الاحتصار .

ومع تزايد وطأة المجاعة ، لم يكن أمامنا من مخرج سوى أكل الجمال والخيول وكل ما كان فى متناول أيدينا . بينما احتفظ المماليك تحت سمعنا وبصرنا بقافلة هائلة من مواد الإعاشة .
كان هذا أشبه بعذاب طنطنال^(١) . . لذا حق الاستيلاء عليها :

١٧ فبراير ١٧٩٩

وهذا ما فعلناه فى السابع والعشرين من بلوفيوور . فقد فاجأناهم فى معسكرهم وكنا من القوة والسرعة بحيث لم يكن لديهم سوى وقت ليمتطوا خيولهم ويفروا مخلفين وراءهم كل مؤنهم وعتادهم ، وقد تسبب هروب الكثير من خيولهم فى وقوع فرسانهم بين أيدينا ، وبعد ملاحقة الآخرين قبضنا على اثنى عشر عسكريا وقتلنا أحد كبار البكوات . وقد أصيبوا ببليسة كبيرة من جراء هذه العلفة الساخنة حتى أنهم ما عادوا يحومون حولنا مثل سابق عهدهم .

وقد خففت عنا هذه الغنيمة كثيرا ، وأعانتنا على الصبر بضعة أيام أخرى . ونظرا لرفض المحاصرين تسليم القلعة والرضوخ ، فكرنا فى إجبارهم على هذا . ولغنا الموقع لينفجر فيهم غير أن ألغامهم المعاكسة أحبطت مشاريعنا . ولكنهم اضطروا لبدء المفاوضات بعدما تركهم المماليك ، فى نفس وقت وصول الجنرال حاملا معه إمدادات كثيرة .

ولكن العدو قرر التصدى لهجماتنا بعد رفض مقترحاتنا . فلم يبق أمامنا سوى ذك القلعة ببعض قذائف المدفعية والقنابل حتى رضعوا لشروطنا .

(١) هو عذاب من يشتهى شئ فلا يتمكن أبداً من الحصول عليه كما جاء فى الأسطورة (الترجمة) .

وقد خرجوا علينا فى الثانى من فتسوز الموافق ٢٠ فبراير نحو الساعة العاشرة أو الحادية عشرة مساء ، وسلموا لنا هذه القلعة البائسة التى دافع عنها حفنة من الرجال من مختلف الأمم لم يتعدوا المائة الخمسين شخصا . وقد استطاع الجنرال الاستفادة منهم فقد استقطب زعماءهم لخدمة مصالحنا وجندهم فى خدمته لحسابنا وشكّل منهم سرية كلفها بمهام خاصة .

وقد حالت العملية التى أجريت لساقى من أجل نزع الرصاص منها ، وما نجم عنها من الآلام ، دون لحاقى بلوائى الذى رحل فى الثالث من فانتور ضمن القوات المتقدمة بقيادة كليبر . واضطرت إذًا للبقاء فى وحدة الإسعاف المقامة بالعريش ، هذه البلدة القاحلة المجردة من كل شىء والتى تبعد عن القاهرة بنحو ستين فرسخا وعن غزة بنحو خمسة عشر فرسخا . ولم تكن تصلنا أية مؤن إلا عن طريق قطية ، وما لبثت تلك الموارد أن انقطعت بعد حين ، لتقصها يوما بعد يوم فى قطية ، فإذا بنا من جديد نهب للمجاعات ، ومضطرين لأكل لحوم الخيول التى كنا نأخذها الواحدة تلو الأخرى . وكان دور فرسى قادمًا لا محالة لولا أن أسعفنا وصول إحدى القوافل .

تلقينا أخيرا فى الحسادى عشر من فانتور النبأ السعيد بأن غزة قد تسلمت ومنذ ذلك الحين تحسنت معاملتنا فوزع على كل واحد منا ٥٠٠ جرام من البقسماط وقطعة من لحم الجمل ، فكانت تمثل حصتنا اليومية . وعلى الرغم من ضآلتها وعدم جودة نوعيتها إلا أننا رضينا بها . فأقل قدر من الرفاهية أصبح يترك أفضل الأثر فى نفوسنا بعد كل ما مررنا به من محن قاسية .

وعلى الرغم من آلامنا ومن الملل الذى كان يفترسنا ، فقد نعمنا بقدر لا بأس به من الهدوء حتى أيقظنا الجنرال فى منتصف ليلة العشرين من فانتور . إنذار فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ! هذا نذير بمآسى جديدة

وبهجوم غير متوقع ! وبالفعل دلف البدو الى خيام بعض المرضى أسفل أسوار القلعة واستولوا على كل ما طالته أيديهم من السلاح . غير أن الإجراءات التي اتخذناها فوراً لمواجهةهم لم تسمح لهم بالمزيد من الأعمال . ولكننا حرصنا بعد ما حدث على نقل باقى المرضى داخل القلعة ، وتدبرنا أمرنا لتكون بمنزلة عن وقاحة هؤلاء البرابرة .

وقد اعتقدنا أن مصر كانت وحدها مسرحاً لنهبهم ولكننا أخطأنا ، فقد أثبتت لنا أحداث عديدة أن سوريا تقسم شرف هذا الخطر معنا ، فما من قافلة كانت تستطيع المرور دون التعرض لهجماتهم . حدث هذا للجنرال ولخزانة الجيش على بعد عدة فراسخ من غزة ولكن هجماتهم لم تكمل بالنجاح .

جاءنا نبأ الاستيلاء على يافا عبر العريش فى الرابع والعشرين من فانتور . ويافا بلدة سورية حصينة صغيرة كان يدافع عنها سبعة آلاف شخص . وقد أجبرونا على مدهمتهم والهجوم عليهم ، لاسيما بعد قتلهم مبعوثنا إليهم ، فأطلقنا على جميعهم النار فيما عدا مائتى مصرى عدنا بهم إلى القاهرة . وكانت فرقة كليبر هى من أخضعت هذه المدينة لسيطرتنا . وسرعان ما احتلت قواتنا الحصون التى وجدوا فيها أربع قطع مدفعية ، كان السلطان قد أرسلها إلى الجزائر باشا . إثر هذا توجه الجنرال كليبر إلى حيفا واستولى عليها ، ولم يصل الأمر به إلى حد القتال ولم يحتاج إليه ، فقد فر العدو وغادر المكان حينما علم بقدومه . وقد عثر الجيش فى المكان على كميات كبيرة من المؤن والمواد الغذائية .

كان الهدف من الحملة على سوريا هو الاستيلاء على عكا وهى موقع أساسى للدفاع عن مصر . كانت الانتصارات السابقة فالأ حسناً ولكنها لم تكن لتضمن لنا نجاح مشروعنا . فعكا كانت مقر الباشا ، وكانت أكبر حجماً وأشد تحصيناً وحراسة من المدن التى أخضعناها لتونا . بالتأكيد

سيقاوم هذا المكان مدة أطول وسنفقد فيه أعدادا كبيرة . وسوف نرى إن كان لتلك المخاوف التي تساورنا أساس من الصحة .

أما عنى فقد سئمت أكل البقسماط ولحم الجمال وحفنة الأرز ، وكنت متمسكا بفكرة الرحيل والمشاركة سواء فى المخاطر التى يتعرض لها رملائى أو فى المجد الذى ينتظرهم ، ففكرت الرحيل عن صحراء العريش .

كانت عينائى قد ألفتا منذ فترة مرأى الكثبان الرملية الحارقة ، فأدهشتها المناظر الأكثر إمتاعا والمتمثلة فى الحقول وقد اكتست بأبهى المحاصيل والمنحدرات المخضرة الموشاة بزهور الخشخاش ، وآلاف الزهور العطرية . . وقد شاركنى رملائى انفعالى بالمنظر وشدة فرحتى . وقد علمنا ونحن فى الطريق أن كل هذه الحقول المزروعة والمراعى الخضراء الكثيفة والتلال المزهرة هى لأعراب رحالة هائمين فى المكان ليس لهم من مأوى سوى فجوات حفروها فى الرمال .

كان هذا فى الأول من جيرمينال الموافق ٢١ مارس ١٧٩٩ ، حينما تهيأت لناظرى المتعبين من رتابة مشهد الصحراء هذه الفرصة الطيبة لأول مرة . كنا نعانى من نقص شديد فى المياه طوال هذا اليوم ، وأملنا فى العثور على شئ منها فى الليل بأحد الصهاريج التى أعلنوا عن وجودها فى الانحاء ، ولكننا تخطيناها دون أن ندري ، مما أهدر جهودنا لاكتشافها . وأخيرا وجدناها . . فما كان شئ أجمل ولا أطيب لنا من أن نطفئ ظمأنا وظمأ مطايانا . ثم آوينا إلى حقل شعير نلتمس فيه بعض الراحة وتركنا خيولنا وجمالنا ترعى فيه فأخذوا منه حظهم .

وطوال الليل ، كان يصل إلى مسامعنا صوت البدو وهم يقلدون صبيحة الثعلب ، وهى الإشارة المستداولة بينهم أن أرادوا الاجتماع أو

الاستغاثة لمد يد السعون لهم . ولاشك أن عددنا أحبط من عزيمتهم ،
لأنهم لم يقوموا بأية محاولة ضدنا ، فنمنا ملء جفوننا .

٢٢ مارس (١٧٩٩م)

فى الثانى من جيرمينال وبعد ساعة من السير بلغنا السوارى الواقعة
على الحدود بين افريقيا وآسيا وقد بدت لنا واحدة موجهة نحو البحر
الأحمر والأخرى صوب البحر الأبيض المتوسط بزاوية . وعلى
مسافة أبعد بقليل صادفنا بئر رفح وعلى الرغم من عمقها المذهل إلا أن
مياها غير سائغة للشرب ولكن عطشنا لم يترك لنا خيارا .

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من هذه البئر، وجدنا حصنا وقرية محوطة
بشجر القواكه ، وقد أشاع مرآها البهجة فى نفوسنا ، وكنا كسلما تقدمنا
وجدنا أراضى مزروعة . ثم وصلنا أخيرا إلى غزة وقد غطت جنباتها
أشجار زيتون هائلة فكانت منعة وبهجة للعين . لم يتح لى جرحى المضى
قدما، فدخلت المستشفى فى اليوم نفسه ، أى فى الثانى من جيرمينال
عام ٧ .

لقد كانت رغبتى الشديدة فى مغادرة قلعة العريش الملعونة وراء
اعتقادى بأننى شفيت ، ولكن كم كنت مخدوعا . وقد حاولت ذات يوم
الخروج من مستشفى غزة ولكننى ما إن تقدمت بضع خطوات خارج
حدودها حتى دلتى الوجع والوهن على وجود قطعة رصاص أخرى فى
باطن القدم . فكان لابد من إجراء قطع جديد لاستخراجها بسرعة ما
اندمل بعد بضعة أيام .

ومن شدة ضيقى بهذا الحبس حاولت الخروج مرة أخرى ،
ولكن ثقل جسدى المحمول على القدم المريضة أظهر وجود شظية جديدة

كان لابد من انتزاعها . ولم تكن هذه إلا مقدمة لألم أكبر هدد حياتى وكاد يردى بها . فلقد داهمتنى حمى شديدة فى هذا اليوم نفسه . وما لبث الخراج الذى ظهر تحت إبطى الأيمن أن نبأنى بقدوم الخطر ، وبنوعية المرض الذى أصابنى . وفى اليوم التالى ، الموافق ١٩ جيرمينال ، طلبت أن يأتينى كبير الجراحين فأخبرونى بإصابته بنفس المرض الذى أصيبت به . فطلبت طبيبا ، فأجابونى أنه أصيب بالمرض نفسه . وحينما طلبت حضور المدير والجراح العادى جاءنى الرد نفسه . كان احتياجى مع هذا شديداً للدواء ؛ فطلبت الصيدلى الذى جاهد قدر الإمكان فى سبيل الوصول إلى واعترف لى أنه هو الآخر مصاب بالداء نفسه ، ونصحنى بأن أتقياً وأحاول إفراز العرق قدر الإمكان قائلا إنه سيفعل بالمثل . وقد اتبعت نصيحته فجاءت نتيجةها لصالحى . وبعد أن مرت الحمى والوهن الشديد سألت عن أخبار زملاء السفر الستة فعلمت أنهم ماتوا جميعا إلا الصيدلى الذى ما لبث أن تبعهم إلى القبر بعد أربعة أيام .

اجتاح الوباء وتضاعف وباله وشهدت موت العديد من زملائى الذين أسفت عليهم أشد الأسف ، ولن تمحى صورتهم من خيالى . كان من بينهم خادمى ، هذا الصبى الممتار الذى أحاطنى برعايته التى ربما أنقذت حياتى ، ولكن الحظ لم يسعفه ليضمن لنفسه البقاء ، فمات بدوره تحت سمعى وبصرى فى ظرف ثلاثة أيام لا أكثر . وفى غضون ستة أسابيع ، راح ضحية لهذا الوباء ما يقرب من ثلثى الفرنسيين الثلاثمائة المحتمين بهذه المدينة .

وقد تحولت المستشفى لحجر صحى تحت الملاحظة . وقد غادرتها بعد خمسة عشر يوما ، وبقيت فى غزوة مضطرا حتى أستعيد كامل قواى . وأقول إننى بقيت مضطرا وعلى مضض لأن وضعنا كان حرجا للغاية .

فى هذه الأثناء ، كان كل تفكيرنا ودعاؤنا منصيين على الجيش
المحاصر عكا . وكنا نتحرق شوقا لسماع أنباءه ، وقد علمت من خلال ما
سوف أقصه عليكم موقفهم المؤلم .

٣٢ مايو (١٧٩٩م)

الرابع من بريريال ، امتطى كومندان المقاطعة حصانه واتجه مع قائد
أركانه إلى ميناء غزة القديم يتفقد سفينة يونانية محملة بالمؤن للجيش ،
ودعاني لمرافقته فلبيت الدعوة بكل سرور . وما إن بلغنا شاطئ البحر ،
حتى لمحنا ستة مراكب شراعية آتية من بعيد ، فادخلت بعض الأمل فى
قلوبنا ، لأنها إن كانت بالفعل فرنسية فسوف تحمل لنا بالتأكيد نبال الاستيلاء
على عكا ، أما إن كانت إنجليزية فسيكون معنى هذا أيضا طرد العدو من
المدينة وأنه يقوم بالانسحاب .

انتظرنا فى لهفة قدوم المراكب وقد خدعتنا آمانيها . ولم يلبث الأمر أن
تكشف لنا . دنت منا فرقاطة حتى أصبحنا فى متناول مدافعها ، فبادرتنا
برشقة مدفعية ليست من الأدب فى شيء ، ثم اتجهت سفينة أخرى وبادرت
السفينة اليونانية بنفس التحية فلم يعد أمامها سوى الاستسلام .

لم يكن بحوزتنا أية وسيلة دفاعية ، وبتنا معرضين لخطر محقق مما
دفعنا للعودة الى غزة وكلنا حسرة وغيظ وقد شاهدنا بأعيننا كيف تم
الاستيلاء على المؤن المخصصة لنا .

ورحنا طوال الطريق نفكر فى حتمية وجود جيوشنا فى عكا ،
وأنهم لابد قد طردوا الإنجليز منها نظرا لوجودهم فى هذه المياه البحرية التى
لم يعتادوا ارتيادها أو الظهور بها .

كانت أوهاماً بائسة وتفكيراً واهياً فسقد كان أول ما وقعت عليه عيناي
عند عودتنا إلى غزة هو منظر جندى جريح اعتقدت أنه قدم إلينا من الجيش ،

فصحت عند رؤيته : إيه! استوليتم على عكا ؟ فأجاب : « كلا ، بل نحن ننسحب من سوريا » .

وقع على الأمر كالصاعقة ، ولم أقو على معرفة المزيد . وبعد ساعات قليلة أدركت فداحة مصيبتنا ، إذ توافدت علينا قوافل المصابين ، وعلمت أنه بعد آلاف الأعمال البطولية التي قام بها رجالنا الشجعان وبعد عدة هجمات فقدنا خلالها كمية من جنودنا وضباطنا البواسل من المراتب العليا ، اضطررنا للتخلي عن الحصار . كما علمت أن أسطولاً عسكرياً جاء ليحمداً بالمؤن والسلاح ، ولكن الإنجليز اعترضوا طريقه واستغلوا ما كان مخصصاً لتدمير عكا في الدفاع عنها . فكان في خسارتنا تلك خير عون لهم ، أكثر من المتاريس والتحصينات ، فقد أفقدنا نقص المدفعية الثقيلة القدرة على إحراز انتصارات قوية على هذه القلعة الحصينة^(١) ثم إن الجيش لم يكن كبير العدد حتى يمكن التضحية ببعض رجاله في محاولة تصعيد عام .

وقد قام أحد المهاجرين الفرنسيين الشبان وكان زميلاً لبونا برت في المدرسة العسكرية بقيادة العمليات طبقاً للخطط العسكرية الجديدة ، فكان مشهوداً رملاء الدراسة القدامى وهم يتصارعون لقضايا متعارضة كل التعارض يصيب بالصدمة الشديدة . ولم يكن لتفوت ملاحظته على الجيش الفرنسي ، فقد كان لافتاً بالفعل . وكم كنا نرغب لو أن الكولونيل فيليبو (وهذا اسمه) أبرز مهاراته تلك ضد الإنجليز الذي وهب براعته لهم . لقد كان حري به أن يتنافس بشرف مع خصمه ويتفوق عليه كما فعل في عكا حيث لقي مصرعه كما يقولون .

(١) استولى الفرنسيون بقيادة الملك فيليب اوجست والإنجليز بقيادة الملك ريتشارد قلب الأسد على عكا خلال الحملة الصليبية الثالثة .

وقد تم إعلامنا رسميًا بالانسحاب وعودتنا إلى مصر بالبيان التالي :

مركز القيادة العام بعكا

الثامن والعشرون من فلوريال عام ٧ الموافق ١٧ مايو (١٧٩٩م)

بونابرت القائد العام

أيها الجنود :

اجتزمت الصحراء التي تفصل أفريقيا عن آسيا بأسرع مما يفعل جيش
عربي . لقد قضيتم على الجيش الذي كان في طريقه لغزو مصر ،
وأسرتم قائده ، واستوليتم على عسدهم وعشادهم وقربهم وجمالهم .
وتمكنتم من جميع النقاط الحصينة التي تحمي الآبار في الصحراء . وشتتم
الحشود القادمة من جميع بقاع آسيا لنهب مصر .

لقد كانت السفن الثلاثون التي رأيتموها قادمة إلى عكا منذ يومين
تحمل السلاح لمحاصرة الاسكندرية . ولكنها اضطرت للهرج إلى عكا لتلقى
مصيها المحتوم . سوف يزين جزءاً من هذه الرايات دخولكم مصر . فبعد
أن أشعلتم الحرب بحفنة من الرجال في قلب سوريا ، واستوليتم على
خمسین رایة وأسرتم ستة آلاف شخص وقمتم بذلك حصون غزة ویافا وحيفا
وعكا سوف تعودون إلى مصر . فموسم إرساء السفن ينادينا .

لم يكن أمامكم سوى بضعة أيام لتتمكنوا من إلقاء القبض على الباشا
ذاته في عقر داره . ولكن الاستيلاء على حصن عكا لا يساوى ضياع
بضعة أيام متاً في هذه الفترة من العام ، فحاجتي الآن ماسة للرجال
الشجعان الذين ربما أفقدهم في هذه المعركة ، للقيام بعمليات أكثر أهمية .

أيها الجنود ، أمامنا مشوار ملؤه التعب والمخاطر . فبعد أن جعلنا
الشرق في حالة لا تسمح له بالقيام بأي عمل ضد هذه الحملة ، يبدو أنه
قد آن الأوان للتصدي لجزء من الغرب . وهي فرصة جديدة لإعلاء

مجدكم . وإذا كان لا يمر يوم دون أن نفقد أحد جنودنا الشجعان وسط هذا السيل من المعارك ، فعلى الآخرين أن ينهضوا وينضموا بدورهم للمصفوف مع هؤلاء الذين يذودون عن الوطن ويتحملون المحن فيحق لهم النصر .

بونايرت

تصاعدت الصيحات بعد تلاوة هذا البيان ، فلم يعد هناك شك في أن علينا معارضة اجتياز هذه الصحراء الرهيبة التي عانينا فيها الأمرين . ولا بد أن الحرارة في هذا الوقت من العام أكثر حدة ، بالإضافة إلى ندرة المياه . . . وطبيعى أن أربعة أشهر من التعب المضنى ، مع جميع صنوف الحرمان من شأنها أن توهم قوة الرجال ، وأنه سيكون هناك مزيد من الجرحى نحملهم في طريقنا ، بخلاف المصابين بالطاعون . يا إلهي ! يالها من عودة فظيعة ! ناهيك عما سوف نلقاه في الصحراء خلال رحلتنا . ولكن ما عاود شيء بهم . فقد صدر الأمر وعلينا التنفيذ .

ظل المصابون يتوافدون قافلة تلو الأخرى ، ومفررة تلو الأخرى . ثم بدأت فرق من الجيش في الوصول . وبما أنني لم أكن قد تماثلت تماما للشفاء بعد ، لم أرغب في انتظار فرقتى التي كانت في الصفوف الأخيرة ، فغادرت غزة قبلها في الثاني عشر من بريريال الموافق ٣١ مايو (١٧٩٩م) . لم يكن يوما طويلا ، وتحملنا التعب والمشقة بسهولة ، أما يوم ١٣ ، فقد بدأ العطش يتزايد ، وقد اطفأنا ظمأنا في المساء عند وصولنا للعريش التي غادرناها يوم ١٤ بريريال ظهرا وقد عشنا هذه المرة على ماء ، الأمر الذى أدهشنا لأن عند مرورنا في المرة الأولى لم يكن هناك أية مياه في هذه الأماكن .

لقد كان العطش ينسينا الجوع الذى لم يكن ليهدأ منه بعض قتات من
البقسماط . وقد ازداد الأمر سوءاً فى اليوم التالى ، إذ لم يتحمل المصابون
بالطاعون والجرحى وبعض الجنود هذا الحرمان من العطش فانتهت حياتهم
فى هذه الصحراء الرهيبة . وقد أدت شدة الجفاف لنضوب المياه فى أحد
الصحاريج الذى عقدنا عليه الآمال . ولم يكن السادس عشر منه بأحسن
حالاً ، فقد لاقينا نفس المعاناة وفقدنا بالمثل عدداً من الرجال . وقد بلغنا
فى ذلك اليوم قطية حيث وجدنا وفرة من المياه . وقررت أن انتظر لوائى
الذى وصل فى اليوم التالى . وإذا كان قد طاب لى أن أرى اصدقائى
وأضمهم مرة أخرى ، فقد تأملت كثيراً لفقدان العديد منهم بسبب متاعب
السفر أو فى ساحة القتال . أما من لاقيتهم فكانوا فى حالة من الإنهاك
والجفاف تعذر على معها التعرف على من كانت رؤيتهم مألوفة جداً لى ،
لا سيما بعد ثلاثة أشهر من الفراق .

وقد علمت منهم جميع تفاصيل معاناة جيوشنا فى سوريا ، وموت
ضباط كنت أعرفهم ، وعدد الهجمات التى شنوها فى عكا دون أن يصيبوا
فيها نجاحاً يذكر ، وما أبلاه لوائنا ، واستمرار جدارته بلقبه الذى اكتسبه
فى إيطاليا . كما علمت عدد الشجعان الذين فقدناهم وجميع الظروف
التي صاحبت الجلاء .

علمت أيضاً مصير المصابين بالطاعون الذين اضطروا لتركهم فى
الطريق نهباً لعدو بربرى شرس ، ومدافعنا التى اضطروا لإخفائها نظراً
لنقص وسائل النقل .

بالصعوبة الحاجة ، وبالأفكار المشؤومة . أيتها الإنسانية ، هل كان
لابد للمقرنسين أن يهينوك وراء البحار . طموح مشؤوم وسياسة جهنمية ،
الآن ترتوى من الضحايا الأبرياء ! ولكن من الأجدى أن نبتعد عن هذا
المشهد الرهيب .

حرص جيشنا ، كى يؤخر ملاحقة العدو لنا ، على تفجير كل المواقع الحصينة وعلى اضرار النيران فى جميع القرى ، وإحراق جميع حقول القمح التى لقيها فى طريقه .

وقد غادرنا قطية فى العشرين من بريرىال ، ووصل الجيش فى الثانى والعشرين منه إلى الصالحية حيث وجد مياه . ثم بلغ المنزل فى اليوم التالى . وبدأ الجيش فى الرابع والعشرين يشعر بالفرق بين هذه الأراضى والصحراء التى اجتزناها .

مررنا يوم ٢٥ على حقول خصيبة قادتنا إلى النيل ، فكانت فى وفرة المحاصيل التى تغطى الأراضى متعة لناظرينا . والحقيقة أننا اعترفنا بأننا لم نشاهد قط مشهداً أجمل من هذا .

عسكرنا فى فرسكور التى غادرناها فى صباح السادس والعشرين منه . لم تكن عودتنا لمصر عودة غائمة ، ولكنها كانت سعيدة على أية حال . فمصر التى طالما كرهناها أول الأمر بدت لنا جنة بالقياس لسوريا . على الأقل لا أحد يموت فيها جوعاً أو عطشاً . . . والحقيقة أن الإنسان لكى يستمتع بالأشياء متوسطة القيمة لابد أن يكون قد جرب مرارة البؤس . واعتقد أن سوريا بالقياس لمصر هى أشبه بمصر بالقياس لفرنسا .

وبعد أن تابعنا جيش سوريا وعلمنا بأمره ، حان الوقت لمعرفة عمليات الجيوش التى ظلت بمصر . وأعتقد أن فى هذا البيان ما يفى بالغرض :

المركز العام للقيادة

الأول من ميسيدور عام ٧ الموافق ١٩ يونيو (١٧٩٩م)

من بونابرت القائد العام إلى حكومة المديرين

أيها المواطنون المديرون :

خلال غزوى سوريا ، شهدت مصر العليا أعمالا عسكرية تستوجب أن أحيطكم علما بها .

فى الثانى عشر من بلوفىور قام نفر من مدينة بنى سويف بالثورة . وقاد الجنرال فو كتيبة من اللواء ٢٢ ، و بدر أربعة فراسخ من البلد بالبحث ، ثم ما لبث النظام أن استتب . ولم يلق من جانبنا سوى ثلاثة أشخاص مصرعهم بينما جرح عشرون آخرون .

فى الخامس عشر من بلوفىور ، تم تدعيم الأسطول الإنجليزى القابع أمام الإسكندرية . وقد بدأ بعد وقت قليل فى ضرب الميناء . ألقى الإنجليز على الميناء من ١٥٠٠ إلى ١٦٠٠ قنبلة لم تسبب فى مقتل أحد ولكنها هدمت منزلين رديئى البناء ، كما تعرض مركب قديم للغرق .

فى السادس عشر من فانتور ، اختفت السفن الانجليزية ولم نرها مرة أخرى . وكانت أربعة زوارق محملة بالمدفعية قد غادرت السويس فى الثالث عشر منه لتصل الى القصير فى الثامن عشر من نفس الشهر ، حيث وجدت عدة سفن محملة بكنوز للماليك استولى عليها الجنرال ديزيه فى مصر العليا . مع أولى طلقات المدفعية أصيب الزورق المدفعى تاجليامتو ٢ وانفجر فى الهواء . ولن يكون للجمهورية بحارون قط طالما لم نعدل كافة القوانين البحرية . فقد يتسبب سرير معلق موضوع فى غير مكانه المناسب ، أو صندوق ذخيرة مهملة فى هلاك أسطول حربى بأكمله . كان لابد من إلغاء هيئة المحلفين والمستشارين والمجالس الموجودة على السفن ، بحيث لا يكون ثمة سلطة أخرى بخلاف سلطة القبطان التى لابد أن تكون مطلقة مثل سلطة اتناصلة الروم فى جيوشهم .

إذا كان الحظ لم يحالفنا فى البحار فليس هذا لنقص فى الرجال المتمرسين أو فى العتاد أو النقود وإنما يرجع لغياب العزيمة . فإذا تركنا النظام البحرى على ما هو عليه فالأجدى أن نغلق موانينا ، فهذه نقود ضائعة .

قام الكومندان دورانتو وهو رئيس لواء بالفرقة ٣٢ بالشوجه إلى الشرقية . وقد تم إحراق قرية بردين وقتل جميع سكانها بعد قيامها بشورة . فى الخامس عشر من فانتور ، علم الجنرال دوجا بقدم قافلة جديدة من أعماق أفريقيا على مشارف البحيرة ، فأصدر أوامره للجنرال لانوس بالتقدم ومداومة معسكرهم ، وقد استولى على عدد كبير من جمالهم بعد أن أودى بحياة المئات من رجالهم . وقد أصيب ابن الجنرال لوكليرك فى هذه المعركة وأحد الشباب البارزين .

لم يستطع الأمير الحاج الذى غمرته بحسن صنيعتى بشخصيته الضعيفة المترددة أن يصمد أمام الدسائس التى كانت تحاك من حوله . فأصبح فى تعداد أعدائنا وانضم لبعض القبائل البدوية وبعض المماليك ونزل إلى ساحة القتال .

وقد لاحقناه وطاردها حتى فسدت فى ظرف يوم واحد كل العطايا التى منحناها له وأمواله وجزء من عائلته التى كانت لا تزال فى القاهرة ، وفقد معها سمعته التى ظل حتى هذا اليوم يتمتع بها كأحد الأشراف .

فى بداية شهر فلوريال حدثت واقعة هى الأولى من نوعها ، وكان من نتائجها ثورة مدينة البحيرة . فقد قدم رجل من قلب أفريقيا إلى درنة والتف حوله بعض الأعراب وقال : إنه المهدي المستظر الذى ورد ذكره فى القرآن على لسان النبي . وسرعان ما توافد عليه بعد يومين ٢٠٠ مغربى وكان الصدفة وحدها هى التى بعثت بهم لينضموا تحت لوائه .

وبما أن المهدي المنتظر كان لابد أن ينزل من السماء فقد ادعى هذا المحتال أنه هبط من السماء وسط الصحراء . راح هذا الرجل العاري يمدق الذهب الذي يجيئ إخفاءه ، وكل يوم يغمس أصابعه في قصعة بها لبن ويمررها على شفتيه ، فكان هذا الغذاء الوحيد الذي يتناوله . وقد بلغ دمنهور وداهم ستين شخصاً من الفيلق الملاحي الذي تركناه دون احتياطات كافية بدلاً من نقله إلى معقل الرحمانية . وقد قام بلذبهم جميعاً .

لقد أثار حماس مريديه الذين تشجعوا بنجاحاته ، وهم يعتقدون أنه إذا رمى حفنة من التراب على مدافعنا أبطل مفعول المتفجرات فتسقط قذائف بنادقنا أمام المؤمنين ولا تسال منهم . وقد أعزى عدد كبير من الأشخاص لهذا الرجل القدرة على الإتيان بمائة معجزة من هذا النوع كل يوم .

وقد غادر رئيس اللواء لوفيفر الرحمانية مع قوة قوامها ٤٠٠ رجل لمواجهة المهدي المنتظر . ولكن مع تضاعف عدد الأعداء في كل لحظة رأى استحالة رد هذا العدد الكبير من المتعصين إلى عقولهم ، فكون تشكيلاً مربعاً وأمضى النهار في قتل هؤلاء الحمقى الذين راحوا يتنافعون صوب مدافعنا وقد ملكهم هذا السحر حتى لم يعد بالإمكان الرجوع عنه . وبحلول الليل ، وبعد أن أحصوا قتلاهم وقد فاق عددهم الألف قتيل ، وكذلك المصابين ، أدركوا فقط في هذه اللحظة أن الله لم يعد يأتي بالمعجزات .

في التاسع عشر من فلوريال ، كان الجنرال لانوس الذي أبدى شجاعة ونشاطاً كبيراً في كل مكان حيثما كان هناك أعداء ليقاتلهم قد وصل إلى دمنهور حيث قتل ألف وخمسمائة شخص . ولم يبق من هذه القرية سوى كومة من رماد تدل عليها .

شعر المهدي المنتظر بعد إصابته بعدة جروح بقدراته تتبدد فاختفى في أعماق الصحراء وحوله مازال بعض من مريديه ، فداخل هذه الرؤوس لا توجد أعضاء يمكن أن يصل إليها العقل .

ولعل طبيعة هذه الثورة هي التي سرعت بعودتي إلى مصر. فوقع هذه الأحداث الغريبة كان مديراً ليتزامن مع وصول الأسطول التركي إلى الإسكندرية ليتمكن من إنزال الجيش الذي دمرته في عكا . وقد قام الهجاءة في صعيد مصر بتنبيه المماليك ، فقاموا بتوجيه قوة هذا الأسطول للقيام ببعض العمليات في مصر العليا ولكن بعد أن هاجمهم رئيس اللواء ديستريه عدة مرات اضطروا للنزوح إلى الشرقية .

وقد أصدر الجنرال دوجا أوامره للجنرال دافو بالتوجه إلى هناك . فقام في التاسع عشر من فلوريال بشن هجوم على ألفى بك . وبعد أن أدت بعض طلقات المدافع إلى مقتل ثلاثة من القادة الرئيسيين للألفى بك ، فرّ مدعورا إلى الصحراء .

وصلت سفينة وفرقاطة إنجليزية إلى السويس في الخامس عشر من فلوريال . وبدأ التواشق بالمدافع ، ولكن سرعان ما كف الإنجليز عن القتال بعد أن أدركوا أن السويس كانت مستعدة لاستقبالهم بسلاح مدفعية كبير . ومالبثت السفينتان أن اختفتا في العاشر من بريريال . وقد دخل كل من الجنرال بليار ومساعداه دانزيلو مدينة القصير واستولوا على هذا الموقع المهم ، واتخذوا الوسائل الدفاعية اللازمة . وقد كان لاحتلال السويس والعريش أثر بالغ في تأمين مصر ضد أية محاولة للوصول إليها سواء عن طريق البحر الأحمر أو سوريا . وكذلك أسهمت تحصينات دمياط ورشيد والإسكندرية في عدم إمكانية الهجوم عن طريق البحر ، وضمنت إلى الأبد للجمهورية امتلاك هذه البقعة الجميلة من العالم وستؤثر حضارتها كثيرا على العظمة القومية والمقدرات المستقبلية لأقدم بقاع العالم .

بعد أن خلّص الجنرال لانوس البحيرة ، بلغ كفر فورنيسجة الواقع بالشرقية في السابع عشر من بريريال . أما المغاربة والرجال الذين فروا من البحيرة فقد قُتل منهم ١٥٠ شخصا ثم قام بإحراق البلدة .

فى الخامس عشر من بريرىال ، بلغت العرىش عائدا من سوريا ، وقد وصل مقياس الجو ٤٤ درجة مئوية من فرط حرارة رسال الصحراء ، وقد بلغت وحدة الضغط حوالى ٣٤ درجة واضطربنا لاجتياز ١١ فرسخا فى اليوم لنصل إلى بشر به بعض المياه الساخنة المالحسة غير السائغة للشراب ، ومع هذا فقد شربنا منها بنهم أكثر مما لو كنا نحتسى أفضل رجاجة شامبانيا فى مطاعمنا .

وصلت إلى القاهرة فى السادس والعشرين من بريرىال ، وقد أحاطتنى جماهير غفيرة ملأت الشوارع ، وقد حضر جميع القائمين على الإفتاء على بغالهم (فقد كان الرسول يفضل امتطاء هذه الحيوانات) وجميع الانكشاريين والأغوات والشرطة الصباحية والمسائية وأحفاد أبو بكر وفاطمة وبعض المشايخ المبجلين . وقد تصدر الحشد كبار التجار ورئيس الكنيسة القبطية ، كما سدت القوات اليونانية الموالية الطريق .

وإننى إذ أود أن أعبر عن بالغ رضائى لكل من الجنرال دوجا والجنرال لانوس ولقائد الكتيبة دورانتو . كما أن سلوك الشيخ البكرى والشرقاوى والسادات والمهدى^(١) والصاوى جاء على خير ما كنت أبتغى . وهم يدعون لنا كل يوم من فوق المنابر وقد كان لفرماناتهم أبلغ الأثر فى القرى . وأغلبهم أحفاد للخلفاء الراشدين وهم محل تبجيل وتقدير عميق من الشعب .

بونابرت

(١) المقصود هنا هو محمد المهدى شيخ ورئيس الديوان بالقاهرة (الناشر) .

كانت فرحة الشعب وكبار رجال الدولة بالغة بالفعل بعودة الجنرال إلى القاهرة ، ولم يكفوا عن الهتاف له ولأعماله الجليلة . ولنعترف أننا راعينا ألا تصلهم إلا أنباء في صالحنا مثل أننا دمرنا عكا تماما ونحربنا المناطق المحيطة بها ، وأننا قتلنا أو اعتقلنا الجنود التي كانت تدافع عن هذا الحصن ، وأننا ما تركنا سوريا إلا لأن الأقدار كانت تنادينا للعودة لمصر . والحقيقة أنه لا بد من التعامل مع هذا الشعب حتى يدرك المسء مبلّغ جهله وسذاجته .

وقد قام الديوان والشيخو بحث جميع مرؤسيهم على مساندة أعمال هذا الرجل العظيم الذي يقرأ - كما يقولون - القرآن كل يوم لأنه سيعتق دين محمد .

وفي البيان التالي الموجه لحكومة المديرين من نابليون تقرير عن الأحداث التي وقعت في صعيد مصر خلال حملتنا على سوريا .

من مركز القيادة بالقاهرة .

الخامس من ميسيدور عام ٧ ، الموافق ٢٣ يوليو (١٧٩٩م)

المواطنون المديرون :

في أعقاب معركة الأهرامات حدثت انقسامات بين صفوف المماليك . فقد انسحب إبراهيم بك إلى الشرقية ، وعبر الصحراء ، وأقام بعض الوقت في غزة ثم في دمشق . وهو اليوم في حالة من البؤس الشديد بعد أن أضعفته الخسائر التي مني بها خلال حملتي على سوريا .

أما مراد بك ، فقد سار في النيل بأسطول كبير متوجها إلى صعيد مصر ، وعلى الرغم من هزيمته في سدمنت إلا أنه ظل متحكما في بعض القرى وشكل تهديداً .

فى العشرىن من فرىمىر ، بعد أن تم تدعىم الجنرال دىزىه بالجانب الأكبر من سلاح الفرسان واصل تقدمه حتى بلغ الجىزة فى التاسع من نىفور . وعلى بعد فرسخىن كان مراد بك فى انتظاره وقد انضم إلىه حسن بك وألفان من بدو ىنبع ، وكانوا قد وصلوا لتوهم إلى القصىر ، كما انضممت إلىهم كمية كبرى من الفلاحىن الذىن قام بتحرىضهم على الثورة . وما إن علم الجنرال دىزىه باحتلال عدة مجموعات من البدو لشراطىء النىل وتصدىها لسىر الأسطول المحمل بالعتاد الحربى والمؤن الغذائىة حتى أرسل الجنرال دافو برفقة سلاح الفرسان ، فسقام يومى ١٤ و ١٩ فانتوز بىتحقب تجمعات الفلاحىن فى سوهاج وطهطا واستطاع أن يفرق شملهم وتمكن خلال الطلعتىن من قتل أكثر من ألفى شخص .

وقد تىمز بشكل خاص خلال هذه العملىات كل من رىس الكىبة بارون على رأس فرقته الخامسة عشر وىوفرار على رأس فرقته العشرىن الملقبة بالثنىن .

تقدم الجنرال دىزىه وقد انضم إلى سلاح فرسانه وأسطوله الحربى للملاقاة العدو فى الخامس من بلوفىوز فى بلدة سمهود واتخذ وضع القتال المعتاد ، فنظم سلاح المشاة فى تشكيل مربع على الجوانب وشكل فرسانه تشكىلا مربعا فى الوسط . وكان الجناح الأىمن تحت قىادة الجنرال فرىون والجناح الأىسر بقىادة بلىار ، أما الوسط فكان بقىادة دافو . وقد حاصر العدو جىشنا الصغىر بدوامه من الفرسان ، ولكن سرعان ما جعلته قذائفنا وطلقات بنادقنا ىراجع . فانتشرت فرساننا ولاحقته . وتمكننا من قتل حوالى مائة بدوى وفلاح ، أما الباقون فقد فروا إلى الصحراء .

رفعنا علم الجمهورية على منطقة الشلالات ، وقد سقط أسطول مراد بك الحربى بالكامل ، ومنذ هذه اللحظة استولىنا على صعىد مصر . وقد نشر الجنرال دىزىه فرقته على طول النىل ، وبدأ فى تنظم هذه المقاطعات .

ولم يكن فى استطاعة باقى الممالك وعرب ينبع العيش فى الصحارى ، مما دفع بعض البدو الذين لم يكونوا يشكلون خطورة من الناحية السياسية للانضمام إلينا بعد أن فقدوا مدفعيتهم وأسطولهم لاسيما مع حاجتهم الملحة لمياه النيل ومواد الإعاشة . ولم يكونوا يهدفون من نجاح المعارك سوى النهب ، ولكن حسن التدابير التى اتخذها الجنرال ديزيه وشجاعة الفرق العسكرية ، لم تمنحهم حتى هذا العزاء . وفى الثانى والعشرين من بلوفسيور تعرض رئيس اللواء كورو والفرقة ٦١ لهجمة شنها من ٥٠٠ الى ٦٠٠ عربى . فما كان منه إلا أن ملأ ميدان المعركة بالقتلى . وقد تقدم الجنرال فريون فى الرابع والعشرين من بلوفسيور إلى حيث كان يعلم بوجود تجمع للعرب فأردى مائتى رجل قتل منهم . وعند أطلال طيبة قام مائتا رجل من التابعين للفيلق الثانى والعشرين والخامس عشر الملقب بالثنين بشن هجوم فى الثالث والعشرين من بلوفسيور على مائتى مملوك وتمكنوا من تفريقهم ومطاردتهم ، فهربوا إلى الصحراء تاركين مجموعة منهم فى ساحة القتال . وقد أظهر لاسال رئيس الفرقة ٢٢ بسالته المعهودة .

فى السابع عشر من فانتسور ، توجه مراد بك إلى إسسنا . ولكن الكومندان كليسمون مساعد الجنرال ديزيه تمكن من مطارته وأرغمه على اللوذ بالصحراء من جديد . أما الممالك ، وقد عرفوا أننا تركت مصر ومضيت فى الصحراء فى طريقى إلى سوريا ، فقد ظنوا أن هذا أضعف من موقف الجنرال ديزيه . ومنذ ذلك الحين ، أخذوا يتحصنون اللحظة المناسبة للهجوم ، وضاعفوا من جهودهم وقدموا من كل مكان فى الصحراء ، وانتشروا فى جميع المواقع على النيل ، وتمكنوا من إحدى الفرق وذبحوا طاقمها ، واستولوا على ثمان قطع مدفعية ، ثم جاءتهم إمدادات متمثلة فى ألف وخمسمائة شخص كانوا قد وصلوا إلى القصير وتجمعوا كلهم فى ديروط حيث انفصلوا .

فتقدم الجنرال بيليار صوبهم فى العشرين من نيفوز وداهمهم وقتل نصفهم وفرق من جمعهم . وقد كانت من أكثر المعارك التى أبرز فيها العدو صلابة وإصراراً .

فى الثالث عشر من جيرمينال وبعد أن علم الجنرال ديزيه بنية حسن بك فى القدوم إلى كينا ، اتجه لملاقاته فى الصحراء . وقد قامت الفرقة السابعة والثامنة باكتشاف مكان العدو وشنوا عليه هجوما وفرقوه بعد معركة عنيفة ، وقد لقي كومندان الفرقة السابعة وهو على رأس فيلقه .

فى السادس من جيرمينال ، تعرض رئيس الكتبية موران للهجوم فى جرجه ، فأغاثه سكانها ونجح فى جعل البدو والفلاحين يلودون بالقرار بعد أن قتل منهم أكثر من مائة شخص . وقد تقدم رئيس اللواء لاسال صوب جزيرة الطينة فى ليلة ٢٠ جيرمينال حيث داهم أحد التجمعات وقتل مائة شخص وفرق الجميع الباقى . وبعد أن وجد المماليك صعيد مصر مرشوقاً بفرق الجنود ، فروا إلى الصحراء فى اتجاه الشمال . وقد أرسل الجنرال ديزيه الجنرال دافو لملاحقتهم ، فلاقاهم عند قرية بن شادى وهاجمهم وفرق جمعهم بعد أن قتل حوالى ألف شخص . وقد لقي ثلاثة أشخاص من قواتنا مصرعهم ، وأصيب ثلاثون آخرون ، وكان من بين القتلى رئيس لواء اسمه سيمون من الفرقة الثالثة عشرة وهو ضابط ينذر أن وجود الزمان بمثله .

بونابرت

وجه القائد العام هذه الأنباء إلى حكومة المديرين من القاهرة بينما بقينا نحن فى دسياط خلال شهر ميسيدور . كنا بالفعل فى أمس الحاجة لهذه البرهة من الزمن لإعادة ترتيب أمورنا والتقاط أنفاسنا . والحقيقة أننا لم نتعرض لأية مخاطر من جانب العدو على الرغم من تأهبنا التام لها . وقد استغللت هذا الهدوء الوقتى لدراسة البلد وعاداته .

كان أول ما فعلته هو التوجه إلى حيث يمكن أن يقوم أحد بتدليكى ،
أى لآخذ حمام بخار .

ادخلونى إلى قاعة ترتفع على هيئة بناء دائرى له قباب وبه فتحات
عند القمة تسمح بمرور الهواء . وقد أحاطت المكان دكة عريضة مكسوة
بمسجادة حيث وضعت ملابسى . وبعد أن خلعت عنى ثيابى ، أحطت
بخصرى بيشكير ووضعت برجلى مداساً أحمر اللون ، ودلفت إلى ممر
ضيق حيث بدأت أشعر بالحرارة تلفحنى . وقد أغلق الباب خلفى ليفتح
لى على بعد عشرين خطوة باب آخر ، ثم سرت فى ممر آخر عمودى على
الممر الأول . أما الحمام ، فهو مكان فسيح مقبب وأرضيته مبلطة ومكسوة
بالرخام ، يوجد حوله أربع غرف ، وتتصاعد فيه الأبخرة بشكل متواصل
من نافورة وحوض للمياه الساخنة ، فتمتزج برائحة البخور التى كان يتم
إحراقه . وما لبث العرق أن تصبب منى بغزارة ، ثم بدأ أحد العبيد فى
تدليك جسدى برفق وراح يقلبنى فى جميع الاتجاهات ويشد مفاصلى حتى
تطلق دون أن أشعر بأى ألم . وبعد أن أتم هذه العملية ، ارتدى قفازا
من قماش وأخذ يحك به جسدى طويلا . ثم قادنى الى حجرة مجاورة
وسكب على رأسى رغاوى صابون عطرى وخرج . كان بالحجرة صنبوران :
واحد للماء الساخن والآخر للماء البارد ، فاغتسلت وغطيت جسدى برداء
دافئ ، وتبعث الرجل عبر الممرات إلى البهو الخارجى . وما إن وصلت
حتى وجدت سريرا معداً ، فألقيت بنفسى عليه واستلقيت باستمتاع .
وسرعان ما أتى غلام وشرع فى الضغط بأصابعه الرقيقة على جميع أجزاء
جسدى حتى يعجف جيداً ، ثم غسرت ردائى مرة أخرى ، وبدأ الغلام
يحك كعوبى برفق بحجر خفاف . ثم أحضر لى فنجاناً من القهوة شربته
باستمتاع ونفحته بعض النقود فسخرج سعيداً ، وخرجت بدورى سعيداً بعد
أن دفعت لصاحب الحمام أجره .

من الصعب وصف المتعة التي يشعر بها المرء فى هذه الظروف . فبعد الخروج من حمام البخار تجد كل ما يحوطك دافئاً رطباً ، وينضج العرق من كل أعضاء جسدك ، وحين تجلس فى القاعة الفسيحة المفتوحة على الهواء الخارجى ، فإنك تشعر برئيتك تتسعان وتتمددان فتستنفس بلذة عميقة ، وتحس بالدم يجرى بسهولة فى العروق ، وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح من على عاتقك ، وبطرواة وخفة لا قبل لك بها وكأنك ولدت لتوك ، وكأنك تعيش للمرة الأولى . وقد عاودت الذهاب إلى هناك عدة مرات بمفردى ومع أصحابى .

وقد أمدتني إقامتى بدمياط بمتع أخرى غير الحمام ، ويعذابات تختلف عن تلك التى نلاقيها فى الحرب .

صحيح أننى قلت إن المصريات لسن جديرات بالمشول فى بلاط أفروديت أو بالاستحواذ على قلب الرجل الفرنسى ، ولكن هذا لا يعنى أن جميع النساء المقيمات فى مصر لسن جديرات باهتمام المسافرين . نحن نعلم أن البكوات وذويهم وضباطهم الكبار يأتون من جورجيا والقوقاز والشركس بأجمل النساء ، يشترونهن ثم يرفعونهن إلى مرتبة الزوجات . وهم بحق أجمل من أرقى نساء باريس أو ليون ، ولكنهن حبيسات الحرملك ، لا تقع عليهن إلا عيون أرواجهن .

وقد كان محظور علينا أن نتشكك هذا الحرملك المقدس وإلا كان مصيرنا الموت . لم تكن هذه السيدات يخرجن إلا للذهاب إلى المسجد لحضور صلاة الجماعة . وحتى فى ذلك الحين تصحبهن عبيدات مسنات تراقبن حتى نظرات عيونهن ؛ لذا كان الوقوع فى الحب بالنسبة لى شئ بعيد المنال حينما شاء لى الحظ ، أو حسن طالعى ، أن يمنحنى لا أدرى . . إن كانت سعادة أم شقاء . سوف نحدد هذا بعد قراءة هذه الحكاية .

كنت فى دمياط أسكن شارعاً يؤدى مباشرة للمسجد الرئيسى ، وكثيراً ما كنت أقف على عتبة بابى أرقب النساء وهن فى طريقهن إلى المسجد . ولاحظت أن واحدة من بينهن يدل مظهرها على الشراء ، كلما مرت أمامى تمهلّت ورمقتنى ببصرها . كان من الصعب على أن أحكم بمجرد النظر إلى وجهها إن كانت صبية أم امرأة ناضجة ، جميلة أم قبيحة ، ولكن قوامها المشقوق المشدود برشاقة واثق الخطى جعلنى أكاد أجزم أنها لم تتخط بعد العشرين من عمرها . أما عن جمال ملامحها فربما أخطئ إن تنبأت ، فقد كان من الصعب على نظرى أن يخترق الحجاب الذى تغطى به المسلمات وجوههن . وتركت للزمن والصدف فرصة معرفة هذا الموضوع .

وذات يوم ، وهى فى طريقها كالمعتاد إلى المسجد ، إذ بها تمر قريباً جداً منى ، فتشجعت وحييتها كما يحيى الجنود الفرنسيون ضباطهم حينما يلقونهم بأن وضعت يدى أمام جبهتى ، وحرصت على أن تكون هذه التحية مشفوعة بابتسامة ودود . فما كان منها إلا أن حملت يدها اليمنى ناحية قلبها ، وأفهمتني بهذه الإشارة أنها فهمت . وفى المساء ، بعد غروب الشمس ، جاءتنى خادمة من مارسيليا تعمل فى خدمتها تطلب الحديث إلى . فأدخلتها مكتبى ، وكان أول سؤال وجهته الى هو إن كنت أكتب أو أفهم العربية ، فقلت لها: لماذا هذا السؤال ؟

- سيدتى التى حييتها هذا الصباح هى التى أرسلتنى أسألك ، ولا أدرى غرضها ، وليس لى أن أريد .

- من هى سيدتك ؟

- سيدى ، لقد نهتنى عن ذكر اسمها ، وإذا تعديت أوامرها سيكون فى هذا ضياعى .

- أنتِ فرنسية أيتها المرأة الطيبة بما أنك تتحدثين لغتى .
- نعم ياسيدى ، أنا من مارسيليا ، لقد اختطفنى بعض القراصنة منذ قرابة العشرين عاما ، وباعونى لأحد البكوات فى مصر ، فجعلنى وصيفة لنسائه .
- حسنا ، وبما أنك فرنسية فبإمكانك البوح بسرّك إلى فرنسى مثلك . فأنت لا تخشين أن يخونك ، أعدك بشرفى . والآن قولى لى من هى المرأة التى أرسلتك إلى ؟
- بما أنك وعدتني بشرفك ، فسوف أبوح لك . إنها زوجة أحد البكوات الذين قتلوا فى معركة الأهرامات . فدخلكم المباحث إلى القاهرة لم يتح للبكوات فرصة إرسال زوجاتهم إلى الصحراء أو البحث لهم عن وسيلة للهرب . لذلك راحت كل واحدة تبحث لها عن مكان . بعضهن أوقعهن الحظ فى يد جنرالاتكم ، فمسحوا دموعهن وأنسوهن أزواجهن أو لنقل هؤلاء الطفلة ، ومنحوهن الرعاية والحب بسخاء . وقد هربت سيدتى من القاهرة وجاءت هنا الى دمياط لاجئة إلى تاجر تركى ثرى ، اتخذها زوجة له ليحميها من المطامع . وهو يُكن لها كل الاحترام ويأمل بعد أن تتخلص مصر من الوجود الفرنسى أن يعيدها إلى البكوات ليمنحوه مكافأة سخية . ولكن أتوسل اليك أن تحفظ سرى ، وربما إن أنت تحدثت يوما إليها لحكت هى لك كل شئ ، ومن الأفضل أن يأتى هذا منها وليس منى .
- اطمئنى أيتها المرأة الطيبة ، ولكن أخبرينى ما اسمها ؟ وهل هى شابة جميلة ؟

- اسمها زليمة ، وعمرها تسعة عشر عامًا ، ولم ير أحد جمالاً مثل جمالها حتى ولا فى أكس اون بروفانس المشهورة بجمال نساءها .
والآن ، أخبرنى عن الرد الذى سوف أحمله إليها .
- قولى لها إننى وقد أمضيت عامًا فى مصر فقد تعلمت التحدث بالعربية كأهل البلد ، وإننى ملكها لو حالفتنى السعادة وركت لها .
- سوف أفعل .

وحتى أكسبها فى صفى ، نفحتها ببعض النقود ثم انصرفت .
وقد أذهلتنى وسحرتنى هذه الخطوة التى ربما أخذت على محمل سيئ من امرأة فرنسية . وظللت أفكر الليل بطوله فى نهاية هذه الحكاية الوليدة . . فقد كنت من ناحية أخشى المضى فيها ، ورحت أقول لنفسى أى ألم ينتظرك ! فما إن يشتعل قلبك حتى تأتيك أوامر عليا بنقلك إلى القاهرة أو الإسكندرية ، وسوف تترك حبيبة بائسة خلفك . ومن ناحية أخرى كنت أشعر بالحاجة لأن أحب وأُحَب . فمن يدري ، إذا ما استعمرنا بالفعل هذا البلد وأقمنا به ، فهذه زوجة جاهزة سوف تقدم لى الثروة وكل الرضى مهرا لى . ظللت طوال الليل نهبًا لهذه الأفكار ، فلم أذق إلا قليلا من النوم ، وانتهيت إلى الرغبة فى خوض هذه المغامرة . وفى اليوم التالى ، تلقيت الرسالة التالية مكتوبة باللغة العربية حملتها إلى نفس المرأة وجاء فيها :

«أيها الشاب الفرنسى المقدام ، لقد أقدمت على خطوة أعلم أنها قد تعطى عنى انطباعاً سيئاً فى بلادك . ولكنك تخطئ لو حكمت على بأفكار أمتك . أعلم أن قلبى مازال بكرا ، وأنتك أول من تدخله سيذا فاتحاً . ولكن هيتك العسكرية وشكلك اللطيف واستقامتك قد استولت عليه وأخضعته . والحقيقة أننى أريد أن أعترف لك أننى أحبك ، فإن لم تسرفض حبى ،

حاول أن تأتى عند التاجر الذى أقيم عنده . واترك للحب أن يفعل
الباقى» .

صديقتك زليمة

لم أنفر من هذا الأسلوب على الإطلاق ، بل لقد منحنى سعادة
غامرة . والحقيقة أن الفرنسى مقدم فى الحب كما فى الشجاعة ، وهو لا
يحب السهاد والتنهد كما يفعل الإيطاليون والأسبان سنوات بأكملها تحت
نوافذ إحدى الجميلات . كذلك كان من السهل على أدخل عند التاجر ،
فقد كانت رتبتي تجعلنى أحظى ببعض التقدير ، وقد جعلته يأمل أن أشتري
منه بعض الأثواب والأقمشة التى قد أحتاج إليها . ومنذ المقابلة الأولى ،
نلت ثقته وصداقته ، ووجدت زليمة تجلس بالقرب منه لأنها لم تكن
مرغمة على العيش وحيدة حبيسة الحرملك مثل نساء التاجر . وفى هذا
اليوم ، لم يكن يكسو وجهها سوى وشاح كبير خارجى يشف عما وراءه .
بالقدر الذى يسمح بتمييز الملامح . وتيقنت أنها كما وصفتها خادمتها .
وحيثما التفت التاجر يبعث عن الأثواب لأختار شيئاً منها ، رفعت حجابها
قليلاً لأرى وجهها ، وكانت ملامحها كفيفة باختراق قلب حديدي .

أرسلت لها قبلة ردتها لى بيدها ، وشعرت فى هذا اليوم أن فى هذا
ما يكفى وأن على ألا أذهب أبعد من هذا . فقد أردت أن تتولد أولاً الألفة
بينى وبين التاجر أو أن تأتى فرصة أفضل .

اشتريت بعض أذرع من القماش ، ودفعت ثمنها وخرجت محيياً
التاجر ومن يرعاه . وعدت بعد يومين بحجة شسراء بضاعة جديدة ،
وكم كانت دهشتي حينما رجاني أبو القرو ، وهو اسم التاجر ، أن أتى
بقدر ما يسمح وقتى وعملى لألقن زليمة بعض دروس فى الحساب والنحو
الفرنسى ! وقال : «ليس أمامى هنا سوى أقباط أو يونان ، وهم إما

يخدعونى أو يسرقونى ، وزليمة التى أحافظ عليها كابتنى لها استعدادات طيبة ، وسوف تتعلم بسهولة ما سوف تلقنه لها ، وسوف يعيننى هذا على أن أعهد إليها بحساباتى ومراسلاتى مع التجار الفرنسيين . ومن جانبى ، إن كان فى استطاعتى شىء أقدمه إليك اعتمد على خدماتى وعلى عرفانى بجميلك» .

ولكم أن تتخيلوا إن كنت قد وافقت بكل سرور على العرض الذى جاءنى والذى لم أكن أنتظره ، والذى كانت زليمة بالطبع وراءه . وطلبت منه الشروع فى الأمر فوراً ، فرحب . وقادنى إلى غرفة ملحقة بدكانه ، وأحضر لى زليمة الجميلة لأبدأ معها الدرس الأول .

لن أحاول وصف ما اعترانى حينما رأيتهما وجهاً لوجه - تلك التى ما كنت ألمحها إلا وكأنها خلف السحاب - ولا أن أعبر عن الكيفية التى أبدت لها بها آمياتى وحبى . فى هذه اللحظات الأولى ، لم نتفوه سوى بعبارة متقطعة ، تصف ولا تعبر عن المشاعر . وفى هذا اليوم ، علمتها بعض مبادئ الترقيم والجمع بدون تركيز من جانبى ، أو من جانبها ، بسبب اضطرابنا .

وبعد حين ، خاصة وأن التاجر لم يكن موجوداً ، بدأنا نتحدث بحرية أكثر عن مشاعرنا، وعن قصتها التى حكته لى على هذا النحو :

«ولدت بالقرب من تيفلى بجورجيا، وحينما أراد سيد القرية بعض المال ليشتري زوجة كما هى العادة فى هذه البلاد ، باعنى مع عدد من زميلاتى لتاجر أرمنى وكنت فى ذلك الحين فى الرابعة عشرة من عمري . حملنى أولاً إلى قسطنطينية ، ولكن نظراً لأننى لم أكن عتلة القوام كما يفضل الأتراك النساء ، لم يدفعوا لى ما أراد ، أو بالأحرى الثمن الذى دفعه لى . فما كان منه إلا أن قدم إلى القاهرة ليبيسنى . فاشترانى على بك الذى لقى مصرعه فى ساحة القتال بالأهرامات . وحينما دخلتم

القاهرة ، لذت بالفرار ، وأتيت إلى دميّاط عند أبي الفرو وهو صديق حميم للمرحوم .

هنا قاطعت زليمة ، سائلا إن كانت آسفة على زوجها . . وإن كانت أراقت الدمع على حظه وقدره ، وإن كانت تكره الفرنسيين لأنهم عكروا صفو أيامها ، ولكنها سرعان ما استدركت قائلة :

«زوجي ! لا ، لا أبداً فأنا لم أذق يوماً معه حلاوة الزواج ، قلت لك إن المسلمين لا يحبون سوى كتل اللحم الكبيرة ، ومن تسميه زوجي ، ومن رأيته دوماً طاغية ، أراد الانتظار حتى أصل للمحجم المطلوب ليسبق اختياره على . والحقيقة أنه من شدة سئمه وضجره من حب النساء ، كان هذا المتوحش يترك العنان للمذاقة التي تحرمها الطبيعة مهملًا المتع الحلال . مثل هؤلاء الرجال لا يحتفظون بالنساء في حريمهم إلا كما يحتفظون بالأشياء الفاخرة . أما الاهتمام والمودة والملاطفة والأحاسيس الرقيقة التي تصاحب دائما في أوربا مشاعر الحب الحقيقية ، فلا أثر لها عندهم . ومع ذلك ، فقد كانت له محظية جعل لها علينا سلطاناً مطلقاً كانت تشعرنا به في كل لحظة . كيف لنا أن نشعر بأية سعادة وهذه المرأة الشرسة تمارس علينا أساليب القمع مع مجموعة من السفلة ، يراقبون جميع حركاتنا ونظراتنا وهمساتنا . وكيف آسف على فقد سيد لم تربطني به سوى علاقات خوف ورعب ، فإن كان الفرنسيون لم يقدموا أية خدمة سوى التخلص من هذا الطاغية ، فسأظل مدينة لهم بها إلى الأبد .

- هلاً حكيّت لي عن نوعية الحياة التي تعيشونها في هذه الأماكن التي لا يمكن الوصول إليها التي تسمونها الحريم والتي يحظر علينا حتى نحن الذين استولينا على مصر دخولها .

- أعلم أن للمرأة دوراً كبيراً في أوربا ، أما نحن فتعيش هنا في حالة من الذل والسخرية ، معزولين في جناح داخلي ، ليس لنا من

صحبة سوى الخادومات العجائز . لا نجتمع أبدا بالرجال ، ولا حتى على مائدة الطعام . فإذا طاب لسيدنا يوما أن يأكل مع واحدة من زوجاته فإنه يعلمها بهذا فتعد شقتها وتخضبها بأثمن العطور وتصنع أشهى الوجبات وتستقبل سيدها باحترام جم وتوليها أفضل عناية ممكنة . وحينما نكون بمفردنا ، نمضى وقتنا وسط الخدم فى تطريز الأحزام أو الأوشحة أو نقوم بالغزل . ونصطنع سعادة تخلو منها قلوبنا ، ونغنى نغمات حانية أو مديحًا لسيدنا ، وتصاحبنا بعض الدفوف والصاجات التى يعزف عليها العبيد . وقد تأتى أحيانًا بعض العوالم لإضفاء بعض البهجة برقصاتهم ونغماتهم المؤثرة ، ويقصون علينا بعض الحكايات المشبوبة بالعواطف . ثم نختم هذا المشهد اليومي بوجبة تُبذل فيها ببذخ العطور وأشهى أنواع الفاكهة . وأحيانًا ما يسمح لنا بالترىض فى الحدائق التى تمتد داخل القصور ، وحتى لا يرانا المؤذنون من فوق المآذن يتم إرغامهم على إغلاق أعينهم وهم يؤذنون للصلاة . بل إنهم يذهبون فى الحيلة إلى أبعد من هذا ، فلا يختارون سوى كل ضرير ليعهدوا إليه بهذه المهمة . وأحيانًا ما نذهب فى نزهة على النيل بصحبة الأغوات السود . أما الجندول الذى ننتزه فيه فهو فاخر الصناعة منحوت بفن ومزین برسومات جميلة ، ويعرف بمشربيات مسجاة على النوافذ وبالموسيقى المنبعثة منه . هذه هى المتع التى نحظى بها ممن نتمتع بصحبتهم . ولكنهم أبدًا لا ينصتون لأناتنا التى علينا تحملها دون أدنى همسة . أما الغيرة ، وعدم الثقة والعلاقات المزيفة ، والاتهامات الجارحة ، والسخرية السلاذعة فيصنعون من الإقامة فى الحريم شيئًا أسوأ من الجحيم . ولفض مشاحنات هذا الشعب من النساء ، أو لمعاقة أخطاء وهمية تهمس بها المحظية فى أذن السيد ، يتم ضربنا بعضى مما قد يفضى أحيانًا

إلى موتنا . وقد كان من سوء حظ أحد الشركسيات من زميلاتى أن التفتت وهى فى طريقها إلى الجامع لأوربى كان يتحدث بالقرب منها . فنقل أحد العبيد هذا الى البك . فما كان من الطاغية وقد استبد به الغضب إلا أن سحب المخططة من شعرها من بيننا وجرها الى الفناء جرا وأطاح برأسها بضربة من سيفه . فكيف أيها الفرنسى الودود، تريد منا أن نحب مثل هؤلاء الطغاة وأن نسكب الدمع على قبورهم ، بينما كان فى الموت خلاص لنا منهم . آه ! ليتك أيها الحبيب الشاب والمقاتل الساحر تنتزعنى من هذا البلد البغيض ، خذنى معك إلى فرنسا إذا ما نادتك أقدارك مرة أخرى إليها !

كان من العسير أن تقول ما قالت دون أن تسكب بعض الدموع التى رادت من جمالها . وقد تأثرت بما لاقته ، ورق لها قلبى بعد ما سمعت وعاهدتها أن أفعل ما بوسعى لانتزاعها من هذه التعاسة التى تنتظرها بمصر إذا ما خرج منها الفرنسيون ، وأضفت :

- هل لى أن آمل يا زليمة فى أن تكافئينى على حبنى مقابل هذه العهود التى قطعتها على نفسى ؟

- للأسف ، لا أستطيع أن أعتمد على وعودك إلا إذا ختمت بخاتم الدين وسلطة القساوسة . أنا أعرف كم تبدل أحوال الفرنسي ، فسرعان ما يشتعل الحب فى قلبه فجأة لينطفئ بمجرد أن يروى ظمأه . فالفرنسيون فى حبهم كما فى مواضاتهم يغيرونها كل يوم .

- تيقنى سيدتى من أننى الفئة التى تمثل الاستثناء . وإن أردت سيكون ارتباطنا شرعيا طبقا للشعائر الدينية ، ولكن علينا أولا أن نحدد هذا الدين . فلا تنتظرى منى أن أصبح مسلما ، وأن أضع على رأسى العمامة وأخضع لهذه العملية المهيئة التى تفرق بين اليهودى

والمسلم ، وأن أمتنع إلى الأبد عن تناول هذا المشروب المقوى الذى اخترعه نوح . لن أحذو حذو الجنرال عبد الله^(١) الذى أصبح مشار حديث الجيش كله ، لأننى سأكون بدورى مادة لسخرية جميع زملائى . هناك بعض المعتقدات التى يجب احترامها ، وكيف لك أن تعتقدى أننى غير قادر على انتهاك العهود التى قطعتها على نفسى الآن إن لم أكن وفيا لعهدى مع ديانتى التى ولدت وتربيت عليها ؟

- فردت بانفعال «إذا ، تريدنى أنا أن أترك دينى يا قاسى القلب ! وحتى إن أردت ، هل تظن أنه ليس فى هذا خطر على ؟ أبو الفرو الذى أكرم وفادتى مثله مثل جميع الأتراك شديدا الارتباط بالإسلام . ولا شيء عنده يفوق فى قيمته شريعة محمد . فإذا رأتى وقد أصبحت مسيحية فسيكيد لك مكيدة ، ويقدمك قربانا على روح صديقتك التى فاضت . لن تتخيل إلى أى مدى يمكن أن يذهب تعصب المؤمنين . والمسيحيون ليسوا فى نظرهم سوى كائنات يلعنهم الله ويتبعها البؤس حيثما ذهبت ولا يمكن لأى من مشاريعهم أن تنجح .

- إذن سيدتى ، أعتقد أنه لا بد أن نودع بعضنا وداعا أبديا . وأعترف لك أن هذا الانفصال سيكون قاسيا على ، ولكن ثمة عقبات كثيرة تعترض - كما أرى - طريق سعادتنا ، لنسمح لأنفسنا أن نرى بعضنا أكثر من هذا .

قلت هذا ، لأننى أحسست أنها لن توافق على إنهاء قصة حب لم تكد تبدأ .

(١) إنه الجنرال مينو الذى أسلم ، وسمى نفسه عبد الله (الناشر) .

- حتى نتسلب على هذه المصاعب ، أبلغنى فقط قبل رحيلك الى فرنسا ، وسوف أتبعك ومعى ثروتى ومجوهراتى . وهناك سوف تمنحني يدك أمام المذبح ، وسيكون أهلك أهلى ، وشريعتك شريعتى ، وسأعز ذويك أكثر من معزتى أهلى الذين طردونى ، وسأكون زوجتك ومليكنك بدلاً من حالى هنا كعبدة . هناك ، لن يكون لى منافسون ، وسأملك وحدى قلبك .

هنا ، أخذت يدها ، وقبلتها بحنان دليل على الموافقة . وظللت أذهب للقائها كلما سنحت لى الفرصة ، وأخذت ألقنها دروس الحساب والنحو ، وكانت تستجيب لها جيداً فذاكرتها ممتازة وحكمها متين ، ولديها استعداد هائل . وقد أمضيت فى دمياط أمتع الساعات فى الحديث معها وفى مطارحتها الغرام .

واتفقنا على أن نكتب لبعضنا كثيراً لو إذا اضطررت إلى ترك دمياط لأمضى مع فرقتى سواء إلى القاهرة ، أو إلى أى مكان آخر . ووعدتها وعداً قاطعاً أنني سأعلمها فى حالة رجوعى إلى فرنسا لتهرب وتلتحق بى لنبهر معا بصحبة خادمتها الوفية الفرنسية . وسوف نعرف ما حدث بعد هذا . فقد وقع الفراق الذى تمسبت له وخشيته أسرع مما كنت أتوقع . ففى الأول من ترميدور عام ٧ الموافق ١٩ يوليو (١٧٩٩م) ، تلقينا أمراً بمغادرة دمياط دون أن يعلمونا بالدافع .

علمنا بشكل عام أن السبب هو خوض بعض المخاطر الجديدة . وقد سمعنا أن هناك عملية إنزال ستحدث عند البحر المتوسط وأن نتائجها قد تكون وخيمة علينا وعلى المستعمرة .

حينما بلغنا الرحمانية ، علمنا دون مسوابة أن قوات السلطان قد وصلت إلى أبى قير وذهبت الحامية الموجودة بالحصن واستولت على المكان .

يا للمكان المشؤوم ! أيها الميناء الكريه هل ستكون شاهدا دوما على مصائبنا ؟ ألم ترتو من مشهد أسطولنا المدمر الرهيب ؟ أتريد الاستمتاع أكثر وأنت ترانا نقتل أو تشهد أيدينا مكبلة بالأغلال . لا بد أن نشد الرحال ، حتى نبعد عنا هذا الخزي إن أمكن ، وكانت تصلنا في كل لحظة أوامر تحثنا على مضاعفة الخطوة .

٢٤ يوليو (١٧٩٩م)

نحن في السادس من الشهر ، ومنذ بزوغ الفجر ونحن نسمع طلقات مدفعية عنيفة . كانت لدينا الشجاعة والحماسة الكافية ، ولكن قوانا الجسدية كانت خائرة من شدة التعب والجوع والعطش . ولحسن الحظ أننا علمنا بهزيمة العدو ، فقد تمكنت قواتنا من إراحته عن معاقله ، حتى إنه ألقى بنفسه في البحر معتقدا أنه سينجو بنفسه على متن أسطوله ولكننا عاجلناه بهجمات سلاح فرساننا الشرسة ، ورشقناه بقذائفنا ومدفيعتنا معا ، حتى إن الجميع هلك في مياه البحر ، ولم يبق سوى ١٥٠ شخصا محاصرا في القلعة . ولم نشارك في مجد هذا اليوم إلا بقوانا التي نحاتر بعد هذا الزحف الشاق وقد كانت نتيجة هذا الخبر السار أنني عدت إلى دمياط بالقرب من زليمة التي أبدت سعادتها الغامرة بعودتي .

وصلت في الخامس عشر من الشهر بعد سبعة أيام قضيتها في الطريق . وعلمنا عند وصولنا بالهزيمة التامة التي مني بها جيش الأتراك وقد كان قوامه خمسة آلاف شخص من بينهم ٢٠٠ مسجون بقيادة مصطفى باشا وعدة قادة آخرين . وقد كلف هذا النصر الفرنسيين الكثير من الدماء ، فكان عدد الجرحى مرتفعاً وكان من بينهم رئيس اللواء الجنرال مورا والمساعد جيبير اللذان لقيتا مصرعهما متأثرين بجراحهما . ولنستمع لكلمة القائد العام عن هذه الموقعة العسكرية الجميلة ، التي لم أشهدها .

بونابرت ، القائد العام

لقد كان اسم أبى قيسر مشهوراً بالنسبة للفرنسيين ، ولكن السابع من ترميدور حوله إلى اسم مجيد . فالنصر الذى أحرره الجيش عجل بعودته إلى أوربا . لقد قمنا بغزو مايونس وحدود الرين حينما اجتحننا جزءاً من ألمانيا ، واليوم استعدنا بعض مواقعنا فى الهند ومواقع حلفائنا . وبعملية عسكرية واحدة أعدنا إلى حكومتنا القدرة على إرغام إنجلترا على قبول سلام مجيد مع جمهوريتنا ، على الرغم من انتصاراتها البحرية .

لقد عانينا كثيراً ، وكان علينا محاربة الأعداء من كل نوع واجتياز الكثير من الصعوبات ، ولكن النتائج ستكون جديرة بنا ، وسوف نكون جديرين بامتنان الوطن لنا .

بونابرت

٨ أغسطس (١٧٩٩م)

فى الحادى والعشرين من ترميدور ، علم الجنرال ديزيه أن مراد بك ، بلغ الغنائم بعد أن نزع من الصحراء صوب أسبوط ، فما كان منه إلا أن أرسل خلفه رئيس اللواء موران ، الذى ما إن لقيه حتى عاجله بالهجوم وهزمه . وقد لقي العديد من المماليك مصرعهم ، وتم الاستيلاء على أربعين جملاً . وقد انسحب مراد بك بأقصى سرعة ، ولكن موران وسريته الباسلة تقدموا فى الصحراء وقطعوا مسافة خمسين فرسخاً فى ظرف أربعة أيام ولحقوا به فى الرابع والعشرين ليلاً ، بالقرب من سمالوط وفاجئوا معسكره وقتلوا بسيوفهم عدداً كبيراً من المماليك ، واستولوا على مائتى جمل محملة بالغنائم ، و ١١٠٠ من الخيول المدرجة وكمية ضخمة من

الأسلحة من كل نوع . ولم يستطع مراد بك نفسه الفرار وقد لاحقت مفردة من اللواء ٢٠ إلا عند سدول الليل .

١٤ أغسطس (١٧٩٩م)

فى السابع والعشرين من ترميدور عند الظهيرة قامت فرقاطتان إنجليزيتان بالرسو بالقرب من ميناء القصير وقامتتا فور وصولهما بقصفه بالمدافع . وبعد أربع ساعات ، تم إنزال اثنى عشر زورقا فى البحر وعلى متهم فرق الإنزال العسكرية . ولكنهم ما لبثوا أن عادوا أدراجهم بعدما لمحوا عساكرنا فى القرية . وقد استمرت الفرقاطتان فى القصف طوال الليل . وفى الثامن والعشرين قامتتا بتغيير مواقعهما لتتمكننا من قذف الحصن بالمدفعية . وفى نفس الوقت أنزلتا مسائى جندى إلى القرية التى ما جرؤوا بالأمس على الاقتراب منها . وقد كان المقاتلون بالفرقة ٢١ متربصين بالإنجليز وتركوهم يقتربون بعض الشئ ثم انقضوا عليهم ورشقوهم بنيران عنيفة أجبرتهم على الفرار مخلفين وراءهم موتاهم وقتلاهم .

وقد استمر العدو مع هذا فى القصف المدفعى ، وبعد الظهر قام بعملية إنزال جديدة على أحد الشواطئ الفسيحة الواقعة جنوب الميناء . وكان الجنرال دانزيلو قائد الدفاع بمنطقة القصير قد أقام كميناً ومعه بعض القوات فى منطقة المقابر المجاورة للبحر وفى الوديان التى تقع بمحاذاة الصحراء . حتى أن الأعداء وقد رأوا أن عليهم مواجهة طلقات النيران من كل صوب ومكان اضطروا إلى الانطلاق بزوارقهم بنفس سرعة الصباح . ولكن هذا لم يمنع الفرقاطتين من الاستمرار فى إطلاق مدفعيتهما بنفس القوة .

وفى التاسع والعشرين من الشهر وفى تمام الساعة السابعة صباحاً ، قام أربعمائة شخص بإنزال وحدة مدفعية بكل متعلقاتها ، فتصدينا للهجمة

وانقضضنا على المدفعية فخلفوها وفروا هاربين أمام قذائفنا ، وعادوا في عجلة إلى سفنهم . وبعد استمرار القذف حوالى ٦٤ ساعة ، قامت فرقاطات العدو بالتوجه نحو عرض البحر واختفت عن الأنظار . وقد تمكنا من جمع حوالى ستة آلاف قذيفة من الميناء فسقط . ومنذ بداية القذف فى الرابع والعشرين من الشهر وحتى الثامن من الشهر التالى لم يحاول أحد الرجوع لاستردادها ، وقد استخدمناها لاحقا .

وقد لاحظنا وجود كثير من الهنود من بين قوات الإنزال ، مما يثبت أن الإنجليز لم يحاربوا قط الا متخفين خلف الشعوب الأخرى التى يضعونها فى المقدمة فيعرضونها لطلقاتنا . كان سكان البلد فى مثل هذه الظروف يتصرفون وكأنهم أصدقاء حقاً للإنجليز .

بدأنا بمرحنا المعتاد نتهياً لبعض الراحة حينما أعلن الجنرال فى السابع والعشرين من ترميدور وجود أسطول عند مصب النيل ، وكان عددنا أقل من أن يكون فى مقاومتنا طائل ؛ لذلك سارعنا بطلب العون ، وربما لاحظ عدونا هذا مما حمله على الابتعاد . كانت تلك المحاولة تقع ضمن خطة عامة ، ومخططا لها أن تتزامن مع أحداث أبى قير ، إضافة إلى نشر بعض القوات أرضا حتى تشغل فى عدة جهات . وفيما يبدو أن الظروف قد أبقت على هذا الأسطول فى البحر أكثر مما كان مقرراً ، لهذا لم يتزامن هجومه مع موقعة أبى قير فوفر هذا علينا الخوف .

بعد أن انتصر القائد العام فى أبى قير ، أسرع بالعودة إلى القاهرة لمباشرة تفاصيل الإدارة حيث عقد اجتماعا عاما مع أعضاء الديوان وسوف أحيطكم علما به .

فبعد أن حدثهم عن العلوم والفنون الذين جاء ذكرهم فى القرآن انتهى بتوجيه اللوم إليهم على تقاعسهم عن ردع الهمهمات التى تصاعدت

ضده وضد الجيش أثناء غيابه . وقال لهم إنه عرف بما تمنوه من إخفاق لجيوشنا . وكانت نتيجة هذا أن أمر بدق عنقهم جميعا إذا ما انهزم . وأضاف «كيف شككتهم فى نصرى ونجاحى ؟ لقد أكدته لكم قبل رحيلى ، وكان لابد أن يكفيكم هذا . أعلم ما يدخره الله لى جيدا ، حتى أننى من عشرة آلاف رجل اصطحببتهم معى إلى أبى قير لم أستخدم سوى ثلاثة آلاف فقط ، وكان فيهم الكفاية لهزيمة وقتل جميع الخونة» .

وبعد أن تحدث بعض الوقت ، قاطعه أحد أعضاء الديوان قائلا :
سيدى الجنرال ، لقد وعدتنا بأن تصبح مسلما .

فاجاب : لم أعدكم بشيء ، ومع هذا اعلموا بأننى كذلك ، وربما كنت مسلما أكثر منكم ولكن إن لم تغيروا من سلوككم هذا فسوف أعود للمسيحية عقابا لكم . سوف أجعل الأمر يمر هذه المرة ، ولكن تذكروا أنها الأخيرة !

عند عودته من أبى قير إلى القاهرة مرّ بونابرت بالإسكندرية ، حيث علم من المفاوضين الإنجليز بأولى الهزائم التى لحقت بجيوشنا فى الرين بإيطاليا . ولم يجد صعوبة فى تصديقهم لأن الطريقة التى كانت فرنسا تحكم بها من خلال خمسة مديرين تنقصهم الكفاءة وتسود بينهم الشقة ، ومجلسين أسهم تفاوت وجهات نظرهما فى زرع الشقة والقطيعة بينهما ، كل هذا كان لابد أن يؤدى لتلك النتائج . وراح أصدقاؤه الذين خلفهم فى فرنسا يستعجلون عودته لواد هذه الشقة ، وليأخذ مقاليد الحكم فى يده .

كان القس سياس ، وهو سفيرنا فى برلين ، قد حصل على جوازات سفر وأوصلها إليه فى سرية تامة . ولم تكن انجلترا تجهل هذا ، بل هيات له الظروف . وقد أبلغنى الجنرال جوبير الذى كانت تربطنى به علاقات حسنة للغاية ، أن أعضاء حكومة المديرين قد عرضوا عليه الحكم ، وأنه رد عليهم بأنه لا يستطيع أن يقبل حاليا عرضهم ، لأن اسمه لم يكن

بعد معروفا لدرجة أن يحصل على موافقة الأمة ، وطلب منهم الاكتفاء بمنحه قيادة جيش إيطاليا ، فبعد أن يحرر عدة انتصارات هامة سيكون الرجل الذى يتمنونه .

ولكن القدر كان يدخر شيئا آخر فى نوفسى كما يعلم الجميع . فما أراد القدر سوى بونايرت الذى لم يبيع بسرّه إلا للجنرال بيرتييه .

وبعد أن قرر بونايرت عودته الى أوربّا ، أجرى استعداداته فى سرية تامة حتى أن الجيش لم يشك فى أى شىء ولو للحظظة . ثم أعطى الأمر للاميرالاي جانتوم بتجهيز فرقاطتين وسفينة حراسة وسفينة بصواري دون أن يعلمه باتجاهها . ولم يمنح أحد شرف اصطحابه سوى الجنرالات لان ومادمون ومورا وانديوسى والعلماء مونج ويسرتوليه وقائد اللواء روسيير ومرشديه اللذين أعطاهما خطابات مغلقة ، مع الأمر بعدم فضها إلا فى الخامس من اللذين الموافق ٢٢ أغسطس فى ساعة ومكان محدد على الشاطئ . لقد وجدوا أمرا بالإبحار فورا دون أن يكون لديهم الحق فى إجراء أى اتصال . وقد أوصل للجنرال كليبر رسائل مماثلة مع أمر بعدم فضها إلا بعد أربع وعشرين ساعة من رحيل السفن ، وكانت تتضمن تعيينه قائدا عاما وتعيين ديزيه قائدا لصعيد مصر . وللإمعان فى إخفاء ملعوبه أعرب بونايرت عن عزمه تفقد مختلف وحداتنا المدفعية والمواقع الحصينة فى مصر . وأعلن عن اعتزامه نقل مركز القيادة إلى منوف وأمر أن ترسل جميع الرسائل والمكاتبات إليه هناك .

وبعد بضعة أيام ، أرسل فى طلب الجنرال كليبر لملاقاته فى رشيد . غير أن كليبر تأخر كثيرا فى الوصول ، أوبمعنى أصبح ، بكر بونايرت فى الرحيل . وعلى أية حال ، وجد كليبر مجموعة من التعليمات الموجهة إليه ، وعلم برحيل بونايرت إلى فرنسا فى الليلة من ٦ إلى ٧ فركتيدور .

٢٤/٢٣ أغسطس (١٧٩٩م)

لم يثر هذا النبأ الشاعر التي قد يتخيلها القارئ . فقد تلقى الجيش هذا الخبر بسعادة بالغة ظنا منه أن فيه الخير له ، فقد يأمرهم قائدهم بالعودة إلى الوطن . وكان بونابرت قد قام ساعة رحيله بإرسال علمائه ، لإلقاء نظرة فاحصة على الآثار بالصعيد واكتشافها . وبهذا استطاع أن يفلت من فطنتهم واكتشافهم الفوري لحظته . كم كنا نتوق لوداع قائدنا ولم نشعر بالرضا إلا إثر سماعنا البيان التالي :

القائد العام
من بونابرت إلى الجيش
أيها الجنود :

لقد جعلتني الأنباء الواردة من أوروبا أقدر الرحيل إلى فرنسا وأترك قيادة الجيش للجنرال كليبر . وسوف تتلقون قريبا أنباء متى ولست في حل أن أريد عن هذا . يعز على ترك الجنود مع ارتباطي بهم كل الارتباط ولكنه أمر مؤقت ، واعلموا أن الجنرال الذي خلفته يحظى بثقة الحكومة وثقتي .

بونابرت

وهذا ما كتبه في نفس الوقت للديوان .
من مركز القيادة بالإسكندرية
الخامس من فركتيدور عام ٢٢ أغسطس (١٧٩٩م)
من بونابرت القائد العام وعضو المعهد القومي

بسم الله الرحمن الرحيم
إلى ديوان القاهرة أكثر الدواوين استنارة وحكمة :

بعد أن علمت بتهيؤ أسطولى للرحيل وعلى متنه جيش هائل ،
واقترعاً منى كما قلت لكم عدة مرات ، بأننى طالما لم أسحق بضربة
واحدة كافة أعدائى فلن أنعم بهدوء بمصر ، أجمل بقاع الأرض ، فقد
قررت أن أتولى قيادة أسطولى ، وأن أعهد بالقيادة فى أثناء غيابى للجنرال
كليبر وهو رجل متميز أفتخر به ، وقد طلبت منه أن يكن للعلماء والشيخوخ
نفس المحبة التى أكنها لهم . لتفعلوا ما فى وسعكم حتى يحظى بنفس ثقة
شعب مصر فى ، وحتى يكون هذا الشعب مصدر سعادتى عند عودتى
فى ظرف شهرين أو ثلاثة ، ولا تجعلونى أحمل إلا المديح والمكافأة
للشيخوخ عند عودتى .

بونابرت

لنعتقد ما نشاء فى صدق هذه اللغة . ولكن الأمر المؤكد أن الانطباع
للحظى الذى خلفه فى أذهان شعب جاهل وساذج ، أنه قد وقانا شر ثورة
مفاجئة . مما أتاح الفرصة للجنرال الجديد للتهيؤ والاستعداد . وكان أول
ما فعله كليبر هو أن وجه إلينا البيان التالى :

مركز القيادة بالقاهرة ، فى ١٤ فروكتيدور الموافق ٣١ أغسطس
١٧٩٩ ،

من كليبر القائد العام إلى الجيش

أيها الجنود :

لقد اضطرت ظروف قهرية الجنرال بونابرت إلى التوجه إلى فرنسا ،
ولم تحمل مساطر الإبحار فى فصل غير موات وفى بحر ضيق مرشوق

بالأعداء دون سفره ، ولم تقعه أى من هذه المصاعب عن الرحيل ،
فقد كان الأمر يتعلق بما فيه الخير لكم .

أيها الجنود ، سوف يأتينا دعم فوري أو سلام مجيد ، سلام جدير
بكم وبأعمالكم ليحملكم إلى وطنكم .

وإننى وقد أخذت على عاتقى الحمل الثقيل الذى كلفنى به
بونابرت ، فقد شعرت بأهميته وبكل الصعوبات التى تكتنفه . وإننى إذ
أقدر شجاعتكم ، التى كللت بالانتصارات ، حق قدرها ، كما أقدر دأبكم
وصبركم فى تحدى كل الآلام وتحمل جميع صنوف الحرمان وأقدر كذلك
كل ما يمكننا تحقيقه بجنود مثلكم ، كل هذا لا يجعلنى أرى إلا ميزة
رئاستكم وشرف قيادتكم ، ولهذا سأضعف من جهدى .

أيها الجنود ، لا يساوركم شك فى أننى باذل قصارى جهدى ، وسأع
بدأب فى سبيل تلبية احتياجاتكم الملحة .

كليبر

لم يغضبنا انتقال القيادة إلى يد هذا الجنرال ، فشجاعته المعروفة عنه
منذ اشتراكه فى جيش الرين والحذر الذى لازمه فى كل مكان خاصة فى
أثناء حصار عكا ، والحيادية التى كان يحقق بها العدالة وبشأسته المشجعة
وجاذبيته ، كل هذا جعله يكسب سريعا ثقة الجيش .

وما عرفناه عن شخصيته المختلفة عمن سبقه جعلتنا نأمل فى أنه
سيتفاوض مع أعدائنا وسوف يتمكن من العودة بنا إلى وطننا .

لم يكن بونابرت يعمل إلا لمصلحته الشخصية ، ولا يضع أمام عينيه
سوى رفعة شأنه . أما كليبر فلم يكن يفكر فى نفسه ، ولم يكن يرى

إلا ما فيه سعادة وراحة الجندي . ولم يكن ينتظر من رفعة إلا ما يستحقه بالفعل ، دون أن يسعى إلى هذا .

ولو أن الأول لم ير أملاً في إمكانية الاستحواذ على السلطة العليا في وطنه لبقى في مصر ، ليقيم لنفسه دولة مستقلة ثمنها دمنا جميعاً . إنه مثل قيصر ، يرى من الأفضل أن يكون الرجل الأول في القاهرة ، بدلاً من الثاني في باريس . أما كليبر فلم يكن له هذه التطلعات ، فيكفيه المرتبة التي بلغها بفضل موهبته العسكرية التي أهلها له حظه . لم يكن له أية مصالح شخصية ليجعلنا نبقى في بلد يدرك بحكمته أنه لن تكون لنا جذور به ، لذا كان لدينا من الأسباب ما يجعلنا ننتظر منه أعذب الأمنيات .

وللتابع معنا كيف قاد هذا الجنرال الحملة وحتى اللحظة التي اختطفته ميته مشؤومة من مشاعر الحب التي كنا نكنها له .

تلقت قوة من اللواء ٧٥ الذي كنت أنتمى إليه أمراً بالتوجه إلى القاهرة فرحلنا عن دمياط في السابع والعشرين من فركتيدور عام ٧ الموافق ١٣ سبتمبر (١٧٩٩) ، ووصلنا إلى العاصمة في اليوم الثالث . وفي القاهرة كنا أقرب من مصادر الأنباء ، وعلمنا بمخاطر جديدة تتهددنا فقد انضم الوزير الأعظم شخصياً للجزار الرهيب باشا عكا ، ليستقدم في سوريا بجيش مهيب كبير العدد والعتاد يضم سلاح المشاة والمدفعية والفرسان ، وقد أقسم أن يفينا عن آخرنا . فما كان منا إلا أن أرسلنا الجزء الأكبر من جيشنا إلى الحدود للتصدي لهذا الغزو ووقف هذا السيل المدمر إن أمكن .

ومع هذا كان هناك حديث عن بعض الترتيبات وعن السلام ، فاختلاف الشروط المطلوبة ضاعف من الرسائل المتبادلة ، وكنا نرى بلا انقطاع وصول ورحيل المفاوضين من الجانبين ، مما أيقظ وأكد لدينا الشعور بالرغبة في العودة إلى أوروبا . غير أن العدو ما هدف من وراء هذا إلا أن

يلهننا ويخدعنا . فبينما كان يتظاهر بالتفاوض إذ به ينجح فى إتمام محاولة إنزال . فقد تمكن من إنزال ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف رجل من جميع القوات بالقرب من دمياط ، غير أن نشاطنا لم يتح له فرصة إنزال المزيد .

وفى العاشر من برومير عام ٨ ، الأول من نوفمبر ١٨٩٩ بدأ قتال عنيف من الجانبين . غير أن جنودنا لجئوا إلى سلاحهم المفضل ، لينهوا هذا القتال فى وقت قصير . فقد مضوا ينشرون الرعب والفرع ، ومن هنا من حرابنا كان مصيره القذف فى الأمواج . لم يفلت من هذا المصير سوى ٨٠٠ شخص استسلموا كأسرى من بينهم أغا انكشارى . وقد كلفنا هذا النصر مائة من رجالنا ، قتل من بينهم ثلاثون شخصاً ، كان دونوبيه الشجاع قائد الفرقة الثانية الملقبة بالخفيفة من بينهم .

وقد تكهننا من خلال تحركات الجيوش البرية بقيادة الوزير الأعظم بأنه سيكون لنا مواجهة قريبة معه . ورحنا نستعد لها حينما علمنا أن الجنرال قام بسحب قواتنا المتقدمة التى كانت تقترب بالفعل من حصن العريش بعد أن أجرى مفاوضات معه لاسيما وقد علم أن الإنجليز كانوا يسعون لإلقاء بذور الشقة بيننا ، لعدم ثقتهم فى إمكانية الانتصار علينا بحرب شريفة .

فقد سعى عملاء سميث للاستفادة من حالة الاستياء العام بسبب عدم صرف رواتبنا منذ سبعة أشهر ، فراحوا يبدرون بين صفوفنا منشورات تندد بقادتنا ، كان الهدف منها هو استثارتنا كي نتمرد فتنفشى الفوضى . وقد طالب كتاب هذه المنشورات المستاءين متاً بالعودة إلى فرنسا ، أيا كان الثمن وأيا كانت الظروف .

غير أن هذه المناورات التى جرت فى الخفاء لم تلق النجاح الذى رجاه منها من دبروا لهذه المكيده . كانت فرقة المشاة المسلقة بالخفيفة الوحيدة تقريبا التى تجسأوت الى حد ما مع هذه اللعبة المدمرة . وقد صدر فى التاسع من فرمار سنة ٨ أمر بتسريح الفرقة الثانية الخفيفة وضمها

إلى مختلف وحدات الجيش التي ظلت على سلوكها دون أن تشوبه شائبة .

وفي السابع عشر من الشهر ، قام القائد العام بتجميع كافة ضباط حمية القاهرة عنده ، وبعد أن أعلمهم بأنه فعل ما بوسعته لخير الجيش ، عرض عليهم الموقف المالي من خلال الإيرادات والمصروفات ، وطلب منهم التحسب لأية فوضى مثل تلك التي أرغمتهم على التصرف بشدة مع الفرقة الثانية . فقد قال : « ما فعلته كان أمراً ثقيلاً على قلبي ولكن كان لابد من إعطاء درس قاسٍ ليتعظ الآخرون » . وأبدى استعدادَه لتسريح أية فرقة تضع نفسها في هذا الموضع . ثم أعلمهم بالمدى الذي وصلت إليه المفاوضات بينه وبين الوزير الأعظم ، وأنه سيسعى قدر الإمكان لتجنب المعارك ، ولكن إذا أعتبه السبل ولم يبق أمامه سوى هذا الحل ، فسوف يلجأ إليه ويقاتل ، وهو على قناعة تامة بأنهم سوف يساندونه ، وسيفعل ما في وسعه ليعيدهم إلى فرنسا بحلول الربيع ، ولكن إن كان الثمن هو التضحية بشرفه وبمجده جيشه - حتى وإن لم يبق سواه - فلن يكون له في هذا حيلة .

وقد ترك القائد أبلغ الأثر في نفوسنا بالصراحة التي تناول بها الموضوع وبسلوكه ومشاعره ، فسارعنا بمعاهدته على الطاعة والمساندة . وقد أرسل على الفور الجنرال ديزيه والسيد بوسيلج إلى دمياط وكلفهم بحمل رسالة إلى الأميرالاي الإنجليزي على متن التاجر عن كلمته الأخيرة بشأن السلام والحرب . فقد كنا متأكدين من أن الوزير الأعظم لم يكن يتصرف إلا بتأثير من السياسة الإنجليزية التي لم تكن - فيما يبدو - في صالحنا مما أجبرنا على التعرض لمعارك جديدة . لقد أراد الجنرال كليبر في البداية إعادة تنظيم الفرقة الثانية التي سرحها . وقد اضطر أسفا إلى معاقبتها . وقد عفا عنها لعدالته وخصاله الطيبة ، حتى لا تضيق أغلبية بريئة ضحية حقنة من المدنيين خاصة وأنهم من كشفوا عنهم . وقد شعر الجيش كله بالامتنان لهذا الجنرال الشجاع وعبر له عن رضاه .

حينما لم يعثر مفاوضونا على السفينة " تيسجر " فى المكان المضروب للقاء ، أخذوا اختفاء الإنجليز على أنه رفض لإتمام المعاهدة وإيداننا بالقطعية بينهم . وكانت النتيجة أن رحلنا فى التاسع من نيفسور الموافق الثلاثين من ديسمبر (١٧٩٩م) إلى القاهرة ، لملاقاة العدو . بلغنا بلبيس فى العاشر من الشهر وعرفنا أن رياح شديدة هى التى أبعدت الأميرالاي الإنجليزى . وقد تم استئناف المفاوضات ، فصدر لنا أمر بمعاودة الرجوع إلى القاهرة . وفى أول ليلة مبيت فى بالوظة ، أصدر الجنرال رينييه كومندان القوات المتقدمة أوامره لنا بالعودة أدرأجنا بدعوى أن العدو قد بدأ فى التحرك . وبعد عودتنا الى بلبيس تنهى لعلمنا نبأ الاتفاق على هدنة لمدة شهر مما جعلنا نعتقد أن الجنرال رينييه قد وقع فى خطأ ، لاسيما وقد كتب للقائد العام يفيد بأنه قد أخطأ . وقد رالت شكوكنا فى الرابع عشر من الشهر، حينما علمنا بسقوط قلعة العريش والاستيلاء عليها . وعزينا هذه الخسارة إلى عدم ذكاء القوات المكلفة بحمايتها . ولجھلھم الأهداف الحقيقية ، قام بعض الأشخاص بتقديم شكوى للكومندان لحشه على استعادة الموقع ، بل ساد اعتقاد بأن بعض الخونة قاموا بسحب بعض جنود العدو بحبال إلى القلعة . فبعد أن تمكنا من اقتحامها بدءوا فى الاستيلاء على كسل ما وقع تحت أيديهم ، غير أن بعض الفرنسيين وقد كانوا معرضين - فيما يبدو - لما فعلته الفئة الأولى ، قاموا بإطلاق النار . وقد أسفر الانفجار عن قتل عدد كبير من قواتنا وقوات العدو على حد سواء . ويقال أيضا إن أسرى الحرب المسجونين فى القلعة قاموا بفتح باب خفى للأتراك استخدموه فى الدخول إليها . حدث هذا فى الوقت الذى كان سيبدأ فيه سريان المعاهدة التى تم التوقيع عليها . هذه الخسارة التى كلفتنا ما يقرب من ٤٠٠ رجل و التى سهلت للعدو الدخول الى مصر ، كانت من الأهمية بحيث نبهتنا وشكلت تحذيراً لنا وجعلتنا ننتبأ بأكثر المعارك دموية . وكان علينا التصرف ؛ لهذا غادرنا بلبيس فى الخامس عشر من الشهر ، وقضينا ليلة فى كُريم .

وقد وصلنا إلى الصالحية فى اليوم التالى حيث كان تجمع الجيوش . ولم يصل للبواب العالى نبأ الهدنة إلا بعد الاستيلاء على العريش ، وقد علق بالفعل جميع عملياته لحين انتهاء المهلة المتفق عليها .

١٢ يناير (١٨٠٠م)

وصل القائد العام إلى الصالحية فى الثانى والعشرين من نيفوز ، وبعد أن استبقى الضباط الذين جاءوا لزيارته أنبأهم بأن بونسابرت قبل رحيله بدأ مفاوضات مع البواب العالى ، وأردف : «وقد مضيت فى تلك المفاوضات حتى الآن . والأمر الآن مستروك لكم إن أردتم العودة إلى فرنسا ، ولكننى لا أستطيع قبول المقترحات المعروضة على . وأعتقد أنه لا يوجد جندى لن يفضل الموت على ترك أسلحته ، فهل سيرغب فى العودة إلى الوطن عارياً مجرداً من كل شيء وكأنه متشرد طرد من بلد كان يخشى يوماً جانبه فيها ؟ وعلى أية حال ، أتعرفون المصير الذى سنلقاه على أيديهم بمجرد أن يرونا بلا دفاع ، لا حول لنا ولا قوة ؟ لا . علينا بالمزيد من القتال والانتصار ، فالنصر هو الذى سيجعلنا سادة الموقف . وسوف نتفاوض بشرف . يجب أن يرانا مواطنونا ونحن عائدون براياتنا وأسلحتنا فى أيدينا تسبقنا طبولنا وموسيقانا الحربية . وسوف يقولون حينما يروننا ، هؤلاء هم رجالنا الشجعان الذين خانهم الحظ ولكن الانتصار بقى حليفهم ، هذه هى الفرقة الثانية والثلاثون المربعة والفرقة الخامسة والسبعون لتى لا تقهر، عائدتين من الشرق براياتهم التى استماتوا فى الدفاع عنها على ضفاف نهر البو والبياف والرين .

عاهدونى على النصر ، أعاهدكم على عودة مجيدة إلى فرنسا . وإن مزمننا فلن أستطيع أن أكفل لكم مجداً ولا أن أوّمن حياتكم ، ففى نجاحتنا خلاصنا» .

وقد كان لهذا الحديث الذى أوردت بعضا منه أبلغ الأثر فى إقناعنا بضرورة نخوض معارك أصبحنا نتوق إليها ، لأن لمجاحنا فيها يضمن عودتنا إلى بلادنا التى نتحرق شوقا لرؤيتها ولا أغلى لدينا من هذه الأمنية .

وقد استمر الجنرال كليبر - على الرغم من هذا - فى إجراء مفاوضات مع الباب العالى ، والكومودور سيدنى سميث والمفوض الروسى من خلال الجنرال ديزيه . وكنا كلما وصلتنا بعض الرسائل من مفاوضاتنا نظن أنها تبشرنا ببداية المعارك فكنا نسارع إلى أسلحتنا . وبعد بضعة أيام قيل لنا أن السلام قاب قوسين أو أدنى ، وأنه قد تم الاتفاق عليه . وقد استتجنا من وقف عمل التحصينات أن لهذه المعلومات أساسا من الصحة . وتبددت شكوكنا حينما جاءنا البيان التالى من القائد العام :

معسكر الصالحية ، الثامن من بلوفيزوز عام ٨ الموافق ٢٨ يناير (١٨٠٠م)

كليبر ، القائد العام للجيش
أيها الجنود :

ثمة أحداث جرت ، لست فى حل بعد من إعلانها ، جعلتنى أعقد العزم على وقف انتصاراتكم والتفاوض مع أعدائنا بدلا من قتالهم . وبمقتضى المعاهدة التى أبرمتها ، سوف ترون الوطن بعد أربعة أشهر ، وسوف تستمرون فى خدمته بجيوشكم بصورة أكثر فاعلية مما فعلتم فى هذه البلد .

أيها الجنود ، لو أننى استشرت قبل أن يُعهد إلى بهذا الحمل الثقيل الذى خلفه لى الجنرال بوناپرت لأبيت قطعاً القبول ، لإحساسى الشديد بأن قسواى لن تتوافق وأهمية المنصب الذى أشغله فى ظروف شديدة

الصعوبة . ولكن لم يكن بيدي الخيار كما تعلمون . ولكن ما يواسيني هو اقتناعي بأننى إن لم أكن قمت بكل ما تستحقه شجاعتكم وإخلاصكم للجمهورية فإننى - على الأقل - قد فعلت كل ما هو ممكن إنسانياً فى الموقف العصيب الذى اجتازه الجيش . ومن لم يصم أذنيه منكم عن صوت العقل ، فقد يعترف لى بأننى لا أعبا كثيراً بقبول الآخرين لما فعلته^(١) .

أيها الجنود ، هناك التزامات متبادلة بينكم وبين الجيش العثمانى . وأنا مقتنع اقتناعاً تاماً بأنه لن يخطر على بال الباب العالى أو قادة المسلمين الخنث بعهدهم . ولكن فى ظل التسبب المستشرى فى مؤسساتهم هل سيتحكمون فى سلوك رعاياهم؟ لاشك أن هذا لن يحدث . وسيكون على ذوى الحكمة والرشاد منكم تجنب واتقاء المشاحنات والمشاجرات ، لأن عواقبها ستكون مشؤومة ووخيمة . لن يفلت من عقابى من يوجه لكم أية إهانة ، ولن يفلت منه من يثير منكم غضبى وسوف يحاسب وفقاً للقانون .

كليبر

وإليكم نص الالتزامات المتبادلة بين الجيش الفرنسى والجيش العثمانى والتي جاء ذكرها فى حديث كليبر . وقد تم إبرام هذه الاتفاقية والتوقيع عليها فى العرش فى الرابع من بلوفيوور من نفس العام ، الموافق ٢٤ يناير (١٨٠٠ م) .

(١) أعتقد أنه يقصد هنا بعض الجنرالات الذين عقدوا مجلساً خاصاً وقرروا القتال . فمع حركة التمرد التى حدثت فى الإسكندرية بهدف التخلّى عن هذا الموقع للإنجليز ، ومع عدم اليقين من النصر والتعب والسأم الذى حل بالقوات ، إضافة لظروف أخرى كانت تثير المخاوف بنفس القدر ، كل هذا أسهم لاشك فى هذه الرغبة فى الجلاء عن مصر .

اتفاقية

للجلاء عن مصر، أبرمت بين المواطنين الجنرال ديزيه قائد إحدى الفرق ، والسيد بوسيلج مدير عام المالية ، مفاوضين عن القائد العام .
وكل من مصطفى رشيد أفندي دفتر دار ، ومصطفى راسخ أفندي ريس الكتاب ، مفوضان عن جناب الوزير الأعظم .
رغبة من الجيش الفرنسى فى إثبات رغبته فى وقف سيل الدماء ، وليضع حدا لهذه الخلافات المشؤومة بين الجمهورية الفرنسية والباب العالى ، فإنه يوافق على الجلاء عن مصر ، أملا فى أن يقود هذا أوربا إلى السلام .

البند الأول :

تسحب الجيوش الفرنسية أسلحتها وعتادها إلى الإسكندرية ورشيد وأبى قير ، تمهيدا لشحنها وتحميلها والعودة بها إلى فرنسا على متن سفنها أو سفن يمدّها بها الباب العالى إن اقتضى الأمر هذا . وحتى يتم إعداد هذه السفن على وجه السرعة ، تم الاتفاق على إيفاد مفوض وخمسين شخصا من قبل الباب العالى بعد شهر من تاريخ التصديق على هذه الاتفاقية .

البند الثانى :

سيتم وقف إطلاق النار فى مصر لمدة ثلاثة أشهر اعتبارا من يوم توقيع الاتفاقية ، وفى حالة انقضاء مهلة الهدنة قبل إتمام تجهيز السفن الممنوحة من الباب العالى ، سيتم مد الهدنة لحين إقلاع السفن بكامل هيئتها .

وسوف يتخذ الإجراءات الممكنة التى من شأنها الحفاظ على هدوء الجيش والشعب أثناء الهدنة .

البند الثالث :

سيتم ترحيل الجيش الفرنسى طبقا للنظام الذى سيقدره الموضوعان المعنيان لهذا الغرض من قبل الباب العالى والجنرال كليبر لهذا الغرض ، فإذا حدث أى خلاف عند الرحيل بين هؤلاء المفوضين ، سيقوم الكومودور سيدنى سميث بالنظر فى الخلافات والفصل فيها طبقا للوائح البحرية الإنجليزية .

البند الرابع :

يتم إجلاء الجيش الفرنسى عن قطية والصالحية فى اليوم الثامن أو العاشر على أقصى تقدير من تاريخ التصديق على هذه المعاهدة . سيتم الجلاء عن مدينة المنصورة ، فى اليوم الثالث عشر ، وعن دسياط وبليس فى اليوم العشرين . أما السويس فسيتم الجلاء عنها قبل القاهرة بستة أيام ، على أن يتم الجلاء عن بقية البلاد الواقعة على الضفة الشرقية من النيل فى اليوم العاشر ، بينما تجلى الدلتا فى اليوم الخامس عشر بعد إبرام الاتفاقية بعد الجلاء عن مدينة القاهرة .

وسوف تبقى الضفة الغربية من النيل والمواقع التابعة لها تحت يد الفرنسيين حتى يتم الجلاء عن القاهرة . وبما أن الجيش الفرنسى سيعمل محتلا لهذه المنطقة لحين عودة كافة القنات من صعيد مصر ، فيجوز عدم الجلاء عن هذه الضفة الغربية والمناطق الواقعة فى نطاقها حتى موعد انتهاء الهدنة إذا تعذر الجلاء عنها قبل هذا . وسيتم تسليم المناطق التى تجلى عنها الجيوش إلى الباب العالى على حالتها الحالية .

البند الخامس :

سيتم الجلاء عن مدينة القاهرة في غضون أربعين يومًا إذا سنحت الظروف أو ٤٥ يومًا على أقصى تقدير ، بدءًا من يوم التصديق على الاتفاقية .

البند السادس :

وقد تم الاتفاق بشكل صريح بأن الباب العالي سيقدم كل ما من شأنه تأمين القوات الفرنسية في جميع مواقع الضفة الغربية للنيل خلال عودتهم بأسلحتهم وعتادهم إلى مركز القيادة بحيث لا تتعرض في طريقها لأية مضايقات وإزعاج فيما يتعلق بالأشخاص أو الممتلكات أو ما يمس الشرف والكرامة سواء من جانب الشعب المصري أو من قوات الجيش التركي .

البند السابع :

بناءً على المادة السابقة ، سيتم اتخاذ إجراءات كفيلة بإبقاء القوات التركية بعيدة بقدر كاف عن القوات الفرنسية لمنع أية مشاحنات أو عمليات عدوانية .

البند الثامن :

بمجرد التصديق على هذه المعاهدة سيتم إخلاء سبيل جميع الجنود الأتراك أو التابعين لجنسيات أخرى من رعايا الباب العالي ، بلا تمييز بين المحتجزين سواء في فرنسا أو تحت السيطرة الفرنسية في كافة المدن وعلى صعيد الإمبراطورية العثمانية بكاملها، كذلك سوف يتم إطلاق سراح جميع

الأشخاص المتضمنين لأية دولة أيا كانت ، الموجودين في المفوضيات أو القنصليات الفرنسية .

البند التاسع :

سيتم فوراً في قسطنطينية البدء في إعادة ممتلكات الأفراد من الجانبين أو سداد قيمتها للملاك بمجرد الجلاء عن مصر عن طريق المفوضين الذين سيتم تعيينهم من الجانبين لهذا الغرض .

البند العاشر :

لن يكون لأى شخص من سكان مصر أيا كانت ديانتة أن يخشى على نفسه أو أملاكه بسبب علاقات أقامها مع الفرنسيين خلال فترة الاحتلال .

البند الحادى عشر :

سيقوم الباب العالى وحلفاؤه ، أى بريطانيا العظمى وروسيا بتسليم الجيش الفرنسى جوازات السفر وتصاريحات المرور اللازمة لتأمين عملية العودة إلى فرنسا .

البند الثانى عشر :

يتعهد الباب العالى وحلفاؤه بأنه عند إقلاع الجيش الفرنسى من مصر لن يعترض طريقه أحد ، كما يتعهد الجنرال كليبر والجيش الفرنسى بمصر من جانبه بعدم اقتصاف أية عمليات عدوانية خلال الفترة المحددة ضد أسطول أو بلاد الباب العالى وحلفائه وإن السفن المقلّة لهذا الجيش لن

ترسو على أية شواطئ على الإطلاق سوى في فرنسا إلا في حالة الضرورة القصوى .

البند الثالث عشر :

بناء على الهدنة مع الجيش الفرنسى ومدتها ثلاثة أشهر والمنصوص عليها فى هذا العقد من أجل الجلاء عن مصر ، يقر طرفا الاتفاقية بأنه فى حالة دخول أية سفن فرنسية إلى ميناء الإسكندرية دون علم قيادات أساطيل الحلفاء ، فسيتمكنون من الرحيل بعد التزود بالماء ومواد الإعاشة اللازمة وسيعودون إلى فرنسا بجوازات سفر صادرة عن دول الحلفاء . وفى حالة احتياج هذه السفن لبعض الإصلاحات ، فسيسمح لها البقاء لحين إتمامها على أن تغادر البلاد بمجرد الانتهاء منها متوجهة إلى فرنسا مثل مثيلاتها مع أول رياح مواتية .

البند الرابع عشر :

يسمح للقائد العام كليسر بإرسال سفينة حربية فوراً إلى فرنسا مع إعطائها رخص المرور اللازمة حتى تتمكن من إعلام الحكومة الفرنسية بالجلاء عن مصر .

البند الخامس عشر :

بما أن الجيش الفرنسى سيحتاج لمواد إعاشة يومية خلال الشهور الثلاثة التى سيقوم خلالها بالجلاء عن مصر ، وكذلك الشهور الثلاثة التالية بدءاً من يوم الإبحار ، فقد تم الاتفاق على إمداده بالكميات اللازمة من القمح واللحم والأرز والشعير والتبن طبقاً لما سوف يطلبه مفاوضينا سواء بالنسبة

لفترة الإقامة أو السفر وبعد التصديق على هذه الاتفاقية يتم تحصيل الكميات التى سيسحبها الجيش من المخازن من تلك التى سوف يمنحها الباب العالى .

البند السادس عشر :

بدءاً من يوم التصديق على هذه الاتفاقية تمتنع فرنسا عن جباية أية أموال فى مصر ، ولكنها سوف تتخلى للباب العالى عن الضرائب العادية المستحقة التى سيكون عليها فرضها حتى رحيلها ، إضافة إلى الجمارك والإبل والإمدادات والمدافع ومستلزمات أخرى تخصصها ، وكذلك مخازن مواد الإعاشة . علماً بأنه سيتم فحص وتقييم هذه الأغراض من خلال المفوضين الذين يرسلهم الباب العالى وقائد القوات البريطانية إلى مصر لهذا الغرض . إضافة إلى الأسماء التى يقترحها القائد العام الجنرال كليبر ، لتسلمها للطرف الأول طبقاً للقيمة التى تحددت وحتى ما قيمته ثلاثة آلاف كيس من المال ، وهو المبلغ اللازم للجيش الفرنسى للإسراع برحيله ، فإذا لم تصل قيمة هذه الأشياء للمبلغ المطلوب سيكون على الباب العالى سداد قيمة العجز فى صورة قروض تتعهد الحكومة الفرنسية بسدادها بموجب الأوراق التى يقدمها المفوضون بتكليف من القائد العام كليبر لتحصيل قيمة المبلغ .

البند السابع عشر :

نظراً للتكاليف التى سستكبتها فرنسا للجلء عن مصر ، فسوف تحصل بعد التصديق على هذه الاتفاقية على المبالغ التالية المنصوص عليها على التوالى :

| | |
|------------------|-------------|
| اليوم الخامس عشر | ٥٠٠ كيس |
| اليوم الثلاثون | ٥٠٠ كيس |
| اليوم الأربعون | ٣٠٠ كيس |
| اليوم الخمسون | ٣٠٠ كيس |
| اليوم الستون | ٣٠٠ كيس |
| اليوم السبعون | ٣٠٠ كيس |
| اليوم الثمانون | ٣٠٠ كيس (١) |

واخيرا فى اليوم التسعين ، تمنح ٥٠٠ كيس نقود قيمتها ٥٠٠ قرش تركى للكيس ، ستأخذ على هيئة قروض عن طريق الأشخاص الذين يكلفهم الباب العالى بهذا الغرض ، ولتسهيل هذا الإجراء ، يرسل الباب العالى فور تبادل التصديق مفوضين لمدينة القاهرة والمدن الأخرى الواقعة تحت الاحتلال .

البند الثامن عشر :

بالنسبة لما سوف يحصله الفرنسيون بعد تاريخ التصديق وقبل الإخطار بالاتفاقية فى مختلف مواقع مصر ، فسوف يخصم من قيمة الـ ٣٠٠٠ كيس نقود المنصوص عليها أعلاه .

البند التاسع عشر :

لتسهيل الإسراع بالجلء عن المواقع سيتم إطلاق سفن النقل الفرنسية

(١) كيس النقود يعادل ما قيمته ١٥٠٠ فرنك قديم .

الراسية فى موانئ مصر خلال شهور الهدنة الثلاثة من أول دمياط ورشيد وحتى الإسكندرية ، ومن الإسكندرية إلى رشيد إلى دمياط .

البند العشرون :

بما أن الحفاظ على الصحة العامة فى أوربأ يستوجب اتخاذ أشد الاحتياطات لمنع وصول عدوى الطاعون أو انتقالها إليها ، فلن يتم ترحيل أى شخص مصاب أو مشتبه فى إصابته بهذا المرض . أما المرضى سواء المصابون بالطاعون أو بأى مرض يحول دون رحيلهم خلال مدة الإجماع ، فسيبقون فى المستشفيات تحت رعاية سمو الوزير الأعظم ، على أن يقوم ضباط الصحة الفرنسيون بعلاجهم ، ويظلوا برفقتهم لحين تمام الشفاء بحيث تتيح لهم حالتهم الصحية الرحيل فى أقرب فرصة . وسيتم تطبيق البند الحادى عشر والثانى عشر من الاتفاقية عليهم كما يطبق على باقى أفراد الجيش . ويتعهد القائد العام لسلاحيش الفرنسى بإصدار أوامر صارمة لمختلف الضباط قادة القوات التى ستجلى بعدم السماح بمرور السفن على أى ميناء بخلاف ما سوف يحدده لهم ضباط الصحة ، لتسهيل مهمة الحجر الصحى الضرورية .

البند الحادى والعشرون :

جميع المعوقات أو الصعوبات التى لم تتحسب لها هذه الاتفاقية يتم حسمها بالطرق الودية من خلال المفوضين الذين يحددهم جناب الوزير الأعظم أو القائد العام الجنرال كليبر بما يكفل تسهيل إجراءات الجماع .

البند الثانى والعشرون :

لن يبدأ سريان هذا الاتفاق إلا عقب التصديق عليه من الجانبين ، على أن يتم التبادل خلال مهلة قدرها ثمانية أيام . وبعد التصديق سيتم متابعة تنفيذ هذا الاتفاق بدقة شديدة من الجانبين . وسيتم إعداده والتوقيع عليه واختمه بأختام الطرفين فى معسكر المؤتمرات بالقرب من العريش فى الرابع من بلوفيور السنة الثامنة للجمهورية الفرنسية الموافق ٢٤ يناير (١٨٠٠ م) من التقويم السابق ، و ٢٨ من شعبان سنة ١٢١٤ هـ .

سيقوم بالتوقيع على الاتفاق كل من الجنرال ديزيه والكومندان بوسيلج موكلين عن الجنرال كليبر وجناب مصطفى رشيد أفندى دفتردار ، ومصطفى راسخ رئيس الكتاب موكلين عن جناب الوزير الأعظم .

وسيقوم بالتوقيع على النسخة الخاصة بالحملة الفرنسية والتي ستسلم إلى الوزراء الاتراك لمبادلتهم بنسخة الجانب التركى كل من ديزيه و بوسيلج .

أما النسخة التى سيصدق عليها القائد العام للجيش الفرنسى أدنى النص التركى فستظل فى حيازة جناب الوزير الأعظم .

أنا الموقع أدناه ، القائد العام للجيش الفرنسى أوافق وأصدق على شروط هذه المعاهدة حتى يبدأ سريانها والعمل بموجبها وأسلم بأن بنودها الاثنى والعشرين مطابقة تماما للترجمة التى وقع عليها مفوضو جناب الوزير الأعظم والتي صدق سموه عليها ، وسوف يتم العمل بمقتضى هذه الترجمة دوما وبالرجوع إليها ، وهى ربما تثير بعض المشاكل نظرا لوجود أى متغيرات بها .

كليبر

النسخة المطابقة ، الجنرال دوما قائد أركان حرب .

بمجرد التوقيع على الاتفاق ، قام الكومودور سيدنى سميث بإرساله إلى البلاط الملكي بإنجلترا .

وقد أثار نبأ هذه المعاهدة مشاعر من الفرحة العارمة وسط الجيش ، فهذا معناه رؤية أحبائنا وأهلنا وأصحابنا من جديد ، إنها حقاً لسعادة غير متوقعة !

أي عرفان بالجميل يستحقه هذا الجنرال الذى سعى بدأب ليمدنا بها ! لاشك أن اسمه لن ينمحي من ذاكرتنا مدى الحياة . ولكن ، بما أن السعادة لا تأتى أبداً خالصة لا تشوبها شائبة ، فقد كدرت نوعاً بشيء تسبب فيه قائدنا لأنه لم يسدد لنا سوى راتب شهر واحد ، فكيف لنا أن نسدد ديوننا المتراكمة طوال ثمانية أشهر بمبلغ زهيد على هذا النحو ! وكيف ستسير بنا الأمور خلال الشهور الثلاثة التى علينا قضاؤها فى مصر حتى الرحيل ؟ كيف سنشتري ما يلزمنا وما سنستعين به فى رحلتنا ؟ هذا هو طبع الإنسان ، فهو لا يكف عن القلق بشأن مستقبل لا يأتى دوماً بالترتيب الذى يقدمه له خياله .

وسوف نرى بعد قليل مدى دقة هذه الملاحظة .

فى هذا الوقت ، انسحب الجيش من مواقع مختلفة فى مصر بعد أن سلم إلى العثمانيين المواقع الحصينة التى كان مسيطراً عليها وفى المواعيد التى تم تحديدها من خلال اتفاقية العريش ، إلى هذا الحد كنا ننفذ وعودنا بكل الدقة ، وقد تم إرسال قوة من لوائنا إلى القاهرة حيث بلغت فى ٢٨ بلوفير عام ٨ الموافق السابع عشر من فبراير (١٨٠٠م) .

أما مراد بك الذى طالما حاربناه ، فقد خشى لاشك أن تنتزع منه السلطة العليا فى مصر ، وأن يقع تحت سيطرة السلطان الذى حرص

البكوات دائما على الاستقلال عنه ، لذا رأى من الأجدى له أن ينضم إلينا بدلا من الجيش التركي . وبذلك أقر السلام معناه وخلال لقاءه بالجنرال بليسا أقسم بذقنه بأن الوزير الأعظم سيحدث بوعده ، وأنه لن يحمل سلاحا ضدنا ، بل إنه منذ فترة لا يحمل سلاحا إلا للدفاع عن نفسه .

ويجدر بنا الاعتراف أنه خلال وجودنا في مصر وسوريا أثبت هذا الرجل نبلا وشجاعة تعادل ما بذلناه نحن لملاحقته . وإنه على الرغم من جوانبه السيئة ، إلا أنه أثبت دائما شجاعة وصبرا . هذه الخصال التي تمائل بشدة خصالنا أكسبته تقديرنا ، وقد تمنينا من قبلنا أن يؤول له الحكم عقب رحيلنا .

لم يكن باستطاعتنا أن نخفى عن المصريين نتيجة مفاوضاتنا مع الوزير الأعظم ، وقد رأى قسائدنا من واجبه إصدار البيان التالي لينسقي شر أية تجاوزات قد تحدث ضدنا ، فشعب مصر مثل شعب إيطاليا يأخذ دائما جانب من تصطفيه الأقدار .

كليبر ، القائد العام

إلى ديوان القاهرة ولدواوين مختلف مناطق مصر :

تعلمون منذ وقت طويل نية الأمة الفرنسية الدائمة في الحفاظ على علاقاتها الطويلة مع الإمبراطورية العثمانية . وقد أعلن هذا مرارا وتكرارا سلفي الشهير الجنرال بونايرت ، ومنذ أن قادتنا ظروف الحرب الى هذا البلد ، لم يهمل أى شيء من شأنه تبديد الظنون التي أوحى بها لسلباب العالي وقادته لتحالف مناهض لمصالحه ومصالحنا . ولم تغلح تفسيرات بونايرت التي أرسلها إلى البلاط بقسطنطينية في إعادة هذا الاتحاد الذي طالما تمنيناه ، وبعد أن منحه تحرك سمو الوزير الأعظم بشخصه إلى دمشق

الفرصة لإقامة حوار أكثر مباشرة ، شرع بنفسه فى إجراء مفاوضات و أولانى مهمة إنهايتها حينما اضطرتة المصالح العليا للسفر إلى أوربا . وقد فرغت من هذه المفاوضات ، وأبرمنا اتفاقاً يعيد هذا البلد إلى أيدي حليفنا السابق . وسيكون فى إعادة التجارة إلى مصر أول نتائج هذا التقارب . وكما أن هذا الاتفاق سيكون سبباً مباشراً فى إقرار سلام أصبح ضرورياً للامة الغربية .

تعرفون المبادئ التى حكمنا مصر على أساسها . لقد حافظنا على دينكم واحترمناه وكذلك على قوانينكم وعاداتكم ، وكفلنا استمتاعكم بخيراتكم ولم نخلف لكم أية ذكرى عنف وقد عهدنا إليكم بصفة خاصة بمصالح سكان مصر ، فكنتم همزة الوصل بين الفرنسيين وبينهم حتى لا تمس أية مؤسسات عريقة فى هذا البلد .

وقد كان لبونا برت الفضل فى إقرار هذه المبادئ التى شعرت بضرورة الحفاظ عليها . إن الحماس الذى أدبتم به مهامكم يجعلكم تحظون بتأييد كل العادلين ، وبحماية خاصة من الحكومة التى سوف تحل محلكم . إن شعب مصر يخضع للسلطة القائمة بفضل نصائحكم . ولعل الوفاق السائد بينه وبينكم هو خير مكافأة لرعايتكم وحرصكم . أتمنى ألا يفسد أى شىء هذا الاتحاد حتى يتم الانتهاء من تنفيذ الاتفاق . فإذا حدثت أية اضطرابات غير متوقعة لتعكر صفو تنفيذها ، فسوف أضطر لقمعها بالسلاح .

كليبر

ما توقعه قائدنا وأراد دراه ما لبث أن حدث . فقد قام هؤلاء البرابرة الذين أبرمنا لتونا معهم هذا الاتفاق بمغادرة مواقعهم خاصة من بلبس ضد أوامر زعمائهم ، وواتتهم الجراة على الظهور والدخول الى القاهرة ، حيث انتشروا فى كافة الانحاء وفى سفارق الطرق وهاموا فى كل مكان كما

العصابات . بل إن الأمر وصل بهم الى حد الاحتماء ببعض الأحياء وتحصينها ، ولأنهم كانوا مسلحين بشكل جيد فقد قاموا فى الثانى عشر من فانتور الثالث من مارس (١٨٠٠م) بشن هجوم على جميع الفرنسيين الذين وقعوا تحت قبضتهم . وذبحوا العديد منهم قبل أن تتمكن من التعرف على نواياهم المخادعة . غير أن قلة عددهم إضافة إلى الإجراءات الحكيمة التى اتخذناها ، جعلتهم يدفعون غالبا ثمن الدم الذى أراقوه ، مما أجبرهم على الهروب من المدينة . وقد تم القبض على العديد من قطاع الطرق هؤلاء ، وأمرنا قائدهم الباشا بدق أعناقهم .

وقد فهمنا من خطاب سميث المرسل فى التاسع عشر من فانتور عام ٨ أن الحكومة الانجليزية تبحث تنفيذ الاتفاق المبرم مع الوزير الأعظم .

وبقدر ما كدرت هذه الظروف الطارئة العسكريين الفرنسيين ، بقدر ما حملت سعادة غامرة «السيدات فرنسا» . هذه السعادة التى عبرن عنها بقوة فى هذا اليوم فى المسرح . سيدات القلوب ، لم يكن يخشين أية منافسة خطيرة فى مصر ، ولنقل إن الزمام كان بيدهن . فإن رحلنا ، كان هذا سينزع عنهن سطوتهن ويعيدهن إلى حجمهن .

وعلى أن أفسر أصل تسمية «سيدات فرنسا» وسببها ، حتى نستبعد ن تأويل خاطئ . فذات يوم توجهت نساء بعض الضباط والجنود فرنسيين وغيرهن عند مدخل مكان محظور الدخول فيه فرفض الحارس دخولهن مما أثار غضبهن ، ورحن يشتكين من الشكوى من قلة الاحترام الذى لاقينه . وقلن :

- كيف لا يسمح لسيدات فرنسا بالدخول إلى هنا ؟

- فما كان من الحارس إلا أن أجابهن محييا بسلاحه : عفوا كل شئ مباح لسيدات فرنسا .

ومن يومها ، لم تنزل هذه العبارة الأرض ، فقد اتخذها الحارس مادة للتسرية بينه وبين أصدقائه ، حتى سرت في الجيش كله بعد أن تناقلوا هذه المغامرة ومن يومها ثبتت هذه التسمية . هؤلاء السيدات اللاتي تبعنا إلى مصر لا يعادلن كليوباترة جمالا ، ولكنهن لم يكن على الإطلاق أقل منها تأثقا . لقد علموا يقينا أن الفرنسيين لن يقمعوا أبدا في غرام نساء مصر للأسباب التي شرحناها آنفا ، ولذلك أبدوا تحشما ليس بعيدا عن سلوكهن المعتاد ، فكان ينطلى على من أعشى الحب عيونهم ، فيقع موقعه من نفوسهن .

الم يقع جنرالنا السابق في هذه الشراك ، حينما أسرت امرأة أحد ضباط سلاح الفرسان فؤاده بعض الوقت . وقد نال الزوج بالطبع من الحب جانبًا ، فأغدق عليه من النعم ولم يطل انتظاره لترقيته . ولستفادى وجوده المحرج في كل الأحوال عهد إليه بمهمة شرفية لدى الحكومة الفرنسية . وبينما أبهر هو إلى تولون ، كان هناك بالطبع من يمضى الليالي في مواساة زوجته الحسناء المكروية . على أية حال ، لم تكلفنا هذه النزوة ما كلفنا إياه حصار عكا . ولنعد لأشياء أكثر جدية .

١٢ مارس (١٨٠٠م)

في الحادى والعشرين من فانتور قمنا بإجلاء جميع القوات عن القاهرة لتأخذ مواقعها في الأنحاء ، في انتظار قرار إيجابى من الأميرالاي الإنجليزى . وسرعان ما علمنا أنه ما جاء إلا فى صالح سيدات فرنسا بعد إعلان البيان التالى :

من كليبر القائد العام إلى الجيش

أيها الجنود :

لقد تسبب انتقال قيادة الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط إلى قيادة جديدة في تأخير تنفيذ الاتفاق الذي أبرمته مع الوزير الأعظم . ولكن هذا الوضع لن يستمر طويلا . وفي انتظار انتهاء هذه الظروف علينا أن نظل متيقظين وأن نحافظ على قدراتنا التي ترمخ احترامنا وتشيع الرعب في القلوب إن لزم الأمر .

أيها الجنود ، تشمل مهمتي في الحفاظ عليكم وعلى رفعتكم . وسوف أقدر انتظاركم . ولكنني أطلبكم في كل الأحوال بالثقة والطاعة .

كليبر

سعينا لدى الوزير الأعظم نستقصي منه الأمر لتعرف ما الذي يتعين القيام به ، فأقسم إنه لا يشارك الأميرالاي الإنجليزي كيث نواياه على الإطلاق . ومع ذلك ، فقد رضينا إخلاء النيل في الثالث والعشرين كما نص الاتفاق . وكل ما فعلناه هو أننا غيرنا مواقعنا في الخامس والعشرين منه واتخذنا وضع الاستعداد للهجوم والدفاع . وقد حثنا الوزير الأعظم على إجلاء النيل ، وبذل جهدا كبيرا في سبيل هذا مؤكدا أنه سيفي تماما بكلمته ، ولكننا نحشينا أن يكون في الأمر فخا نصب لنا كي نقع فيه . وعرفنا من الخطاب التالي أنه أريد فرض شروط مهينة علينا :

١٨ مارس (١٨٠٠م)

مركز القيادة بالقاهرة ، السابع والعشرين من فائوز عام ٨ .

القائد العام كليبر إلى الجيش .

أيها الجنود :

إليكم الخطاب الذى وجهه إلى كومنندان الأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط من على متن سفينة صاحبة السمو الملكى الملكة شارلوت ، فى الثامن من يناير (١٨٠٠ م) :

« سيدى ، أحيط سيادتكم علما أننى تلقيت أوامر من صاحبة الجلالة بعدم الموافقة على أى اتفاق مع الجيش الفرنسى الذى تقودونه فى مصر وسوريا إلا إذا استسلمتم كأسرى حرب وتركتم جميع السفن والعستاد ، وميناء ومدينة الإسكندرية للقوى الحليفة . وفى حالة إبرام اتفاق فلن نسمح لأية قوات بالرجوع إلى فرنسا قبل أن يتم تبادلها . وأرى كذلك من الضرورى إعلامكم بأن ضباط سفننا سيجهرون بجميع السفن التى تحمل قوات فرنسية على متنها وترفع رايات هذا البلد وتحمل جوازات سفر بتوقيع جهة غير التى لها حق التوقيع على العودة إلى الإسكندرية ، ما سيتم التحفظ على السفن التى ستعرض طريقنا إلى أوربا واعتبارها غنائم حرب ، وسيعتبر جميع من عليها ممن يحملون جوازات سفر بتصريح خاص من القوات الحليفة أسرى حرب .

توقيع كيث» .

أيها الجنود ، سنعرف كيف نرد على هذه الوقاحة بالانتصار .

فاعدوا عدتكم للمقتال .

كليبر

كم من الأفكار تتداعى لسلذهن عند قراءة مثل هذا الأمر الصادر عن البلاط الملكى فى لندن . أى عدم احترام للقوى الأخرى الحليفة ! سيتحفظون على جميع من يحمل جوازات سفر صادرة عن هذا البلاط

ويعتبرونهم أسرى حرب . أى أن هؤلاء الحلفاء ليس من حقهم منح جوازات السفر . مع أنه جدير بالذكر أن خلال هذه الثورة التى نسبت جذورها فى إنجلترا ، لم تلقانا حكومة هذه الجزيرة إلا بأيدي الشعوب الأخرى باستثناء الحروب البحرية ، فكم أجادت إنجلترا استخدام هذه الشعوب كسروى واقية ، كانت تضعها فى المقدمة لتلقى الضربات عنها ، وقد عرفت كيف تستفيد من هذه الدماء التى سفكها أتباعها .

ولكن يبدو أن عملاءها ورسلاها لم يعلموها إلا بموقفنا الصعب وقلة عددنا فى مصر بينما أخفوا عنها شجاعة هذا الجيش الصغير وعزة نفسه ، فتصورت أننا هزمنا بالفعل ولم يبق إلا أن ترسل الأغلال . لقد تخيلت حكومتها أنها ضيقت بالفعل علينا الخناق . وقد كان ردنا الوحيد الخلق بنا هو ما جاء على لسان قائدنا ، فهو يعلم جيداً مشاعرنا .

هذا التغيير فى المواقف من جانب الحكومة الإنجليزية لاشك أنه مهد السبيل إلى موقف مشابه فى سياسة الباب العالى . وبما أن الجنرال كليبر لم يتلق فى الموعد المحدد الرد على إنذاره النهائى ، فقد أمر الجيوش بالتقدم نحو القبة ، الواقعة على بعد فرسخين من القاهرة حيث وصلت فى فجر التاسع والعشرين منه .

معركة القبة

تم تهيئة القوات فاتخذت تشكيلات مربعة على رأس كل زاوية مدفع يحميها . أما أغلبية سلاح المدفعية فكان فى موقع آخر تحميه بعض التشكيلات ، وعلى الجانب الآخر كان سلاح الفرسان وعلى رأسه القائد العام . أظهر هذا التشكيل الجيش فى صورة هائلة وكان قوامه مائة ألف رجل ، بينما كان عدده لا يتجاوز فى الحقيقة عشرة آلاف شخص .

تقدمنا فى هذا التشكيل نحو العدو حتى أصبح فى متناول مدافعنا . وما إن بلغنا مواقعنا حتى أطلقنا سيلاً كثيفاً من طلقات المدفعية فكانت من دقة التصويب بحيث أجبرت القوات المتقدمة على ترك مواقعها والانسحاب السريع إلى معسكراتها الحصينة فى المطرية . ولكننا لاحقناهم عن كثب وهاجمنا المعسكر ذاته واقتحمناه على الرغم من المقاومة الشديدة ، واستولينا على كل ما كان فيه من عتاد بما فى ذلك أربع عشرة قطعة مدفعية بينما اكتست الأرض بجثث القتلى .

كانت المعارك حامية الوطيس حتى أن العدو لم يجد الوقت الكافى لحمل عتاده . وقد كان ضروريا ألا نمنح العدو فرصة التقاط أنفاسه أو إعادة تنظيم صفوفه فاستمررنا فى ملاحقته ، وحتى تتمكن من هذا بسهولة خلفنا وراءنا كل شىء فى المطرية ، المدافع والعتاد وحوالى ستمائة عثمانى أفلتوا من المذبحة .

وقد تصادف وجود مراد بك مع الوزير الأعظم ليُعلمه باتفاسه مع كليبر . وكان قد أرسل خلال الهدنة أحد مبعوثيه لطلب السلام . فما كان من كليبر إلا أن نقل إليه من خلال مبعوثه رغبته فى أن يتعد عن القتال ، فالتزم بهذا ولم يظهر خلال المعارك إلا من بعيد . وقد أراد الوزير الأعظم التفاوض ، ولكن جاءه هذا الرد :

« ليات من أوقعوك فى هذا الموقف الحرج ليسخرجوك منه ، الذين يختبئون بحذر فى سفنهم على مسافة كافية من الخطر » .

عشنا حاول وقف القتال ، وعشنا تضرع لنبيه محمد وعول على معونة مائتى رجل كان فى انتظارهم لسحقنا تبعا لرؤية يقول إنها جساءته فى المنام . غير أنه أجبر على المضى فى التفهقر ، بينما مضينا نحن فى ملاحقته بقوة . فى اليوم الأول اقتفينا أثره إلى ألوجا الواقعة على

بعد ستة فراسخ من القاهرة وأجبرناه على إجلاء هذا الموقع على عجل شديد ، حتى إنه اضطر مرة أخرى لترك عتاد ضخّم وراءه .

ثورة القاهرة الثانية

أسهمت طلقات المدفعية التي لم تنقطع طوال الليل حتى بلغت مسامعنا فى إعلام الجنرال أن ثمة شغبًا فى القاهرة . فقرر إرسال بعض القوات التى تتألف من كتيبة من فيلقى كنت ضمنها ، وكتيبتين من الفرقة ٢٥ و ٦١ ، علاوة على أربع قطع مدفعية بقيادة الجنرال لاجرانج .

تحركنا فى الساعة الواحدة من بعد منتصف ليلة الثلاثين من فانتور . وما كدنا نصل الى القبة حتى رأينا جيشًا هائلًا من الفرسان قادم فى اتجاهنا ، ولكننا بدلا من التلهى بقتاله حرصنا على تفاديه ومضينا فى طريقنا صوب القاهرة . وقد لاحقنا مع ذلك فكنا نضطر من وقت إلى آخر إلى إقصائه عنا بطلقات بنادقنا . ولم يمنعنا هذا من بلوغ مركز القيادة فى حوالى الثالثة من ظهر هذا اليوم .

وقد علمنا عند وصولنا أن عددا كبيرا من المماليك والعثمانيين قد دخلوا المدينة وقلبوا علينا الشعب فى حركة تمرد وعصيان ، كما علمنا بمحاولاتهم العديدة للاستيلاء على مركز القيادة ومختلف المواقع الفرنسية ، وقد أملوا فى النجاح معوكين على أننا لم نخلف فى هذه المدينة سوى الجرحى والمرضى ، ممن لم يتمكنوا من المضى معنا للتصدي لجيش العدو الضخم .

٢٢ مارس (١٨٠٠م)

فى الأول من جيرمينال عام ٨ اتخذت كتيبتى موقعها فى ساحة الأربكية ، حيث كان كل شىء هادئا فى الصباح ، ولكن قرب الساعة

الثامنة مساءً وحينما أردنا الاتصال بمركز القيادة الفرنسي طالبين النجدة للأوروبيين المعرضين للخطر، لقينا مقاومة لا قبل لنا بشراستها وتنظيمها من قبل ، فقد سدّت الشوارع بمتاريس يصعب تجاوزها واضطرت قواتنا المتقدمة للتقهقر بعد إصابة الكومندان وعدة ضباط وجنود بجراح خطيرة . أما الثوار وقد زادهم هذا الانسحاب جسارة ، فقد بادروا بشن هجوم وانقضوا علينا بسرعة الصقر كعادتهم وبأدأ أكثرهم تهورا برفع الرايات في مواقع متقدمة للغاية من الساحة ، بينما قامت زمرة لا تقل عنهم بسالة بالتنقل من بيت إلى بيت ، خارقين الحواجز التي تفصل بينهم حتى بلغوا المنزل الذي كان جنودنا يقومون على حراسته . وقد اضطروا إلى التنازل عنه بقوة السلاح ، وفقدوا في هذا بعض الرجال . وحينما أرادوا تقليد حاملين الرايات والاقتراب منا أكثر ، أدركوا أن طلقائنا لا تضيّع في الهواء . فقد قامت مدفعيتنا عدة مرات وبكفاءة عالية بتبديد جموعهم وصفوفهم بسرعة ، وبعد جهود خارقة تسقن من لم يسقط صريحا أن الأجدر ألا يواجهنا من المقدمة . فما كان منهم إلا أن تقدموا إلى الجهات الجانبية عن طريق منزل رينيه والحقى القبطى لمداومة مركز القيادة ، ففتحنّا النيران من الجانبين لمنعهم ، مما أثناهم عن التقدم وأحبط من عزيمتهم بعض الشيء .

وقد هاجمونا في اليوم التالي بنفس الطريقة ولكن نصيبهم من النجاح كان أقل . وقد اندهشنا بالفعل لمعادوتهم الهجوم في اليوم الثالث بقطع من المدفعية التي استولينا عليها في المطرية ، وغفلنا عنها ونحلفناها وراءنا ، دون حتى أن نفسدها . وقد كاد سوء تقديرنا هذا أن يتسبب لنا في عواقب وخيمة ، لسولا وصول الجيش بكامل هيئته بقيادة الجنرال . وقد أراح في طريقه جيوش الوريير الأعظم وجعلها تفر إلى الصحراء ، وقام العرب بنهب عتاد العدو ، بينما استولينا على عدة قطع من المدفعية وكمية كبيرة من ملابس العسكر . وقبل هذا الانتصار الأخير، تعرض جزء من الجيش

خاصة سلاح الفرسان وأركان الحرب لخطر داهم على يد كسريم على بعد عشرة فراسخ من القاهرة ، حتى كاد قائدنا أن يلقي مصرعه ، فقد قام المماليك بتطويقه دون رغبة منهم فى تعريض حياته للخطر . وقد أسهمت براعته فى استخدام السيف فى حمايته حتى لحقت به فرقة التين لتخليصه من هذا الوضع .

حينما وصلت جيوشنا تاهبنا للهجوم والدفاع على حد سواء على كافة الأصعدة . وقد تحصن الثوار بالمنازل وقطعوا الطريق بإقامة حفر عميقة ومتاريس منيعة بينما بدأنا فى تحصين الموقع ومركز القيادة بإقامة خنادق ومتاريس . وقد سد الجيش منافذ المدينة تماما ، حتى أصبح من العسير الدخول إليها أو خروج الأعداء منها . ولكن ميزة هذا الوضع أن العدو كان بإمكانه قصف المدينة ، الأمر الذى قام به عدة نوبات .

وقد طلب المماليك الدخول فى مفاوضات بعد أن أصابهم الفزع فى مواقعهم ولم تعد تحركاتهم سهلة . وقد أجيبوا إلى طلبهم . وبدأت المفاوضات فى العاشر من جبرمينال فى خيمة نصبت فى الساحة بحيث فصلت بين الأطراف المتناحرة . وقد تم إبرام اتفاقية بين النواب من المماليك وسكان القاهرة من جانب وبين الجنرال دوما والقائد العام من الجانب الآخر . بمقتضاها أجبر العدو على الجلاء عن المساحة فى ظرف ٤٨ ساعة وعلى التخلي لنا فى اليوم التالى عن مدفعيته وعدة مواقع هامة كضمان لكلمته .

وحيثما أردنا فى اليوم التالى وفى الساعة المحددة الاستيلاء على المواقع ، طلب القائمون عليها إمساكهم بعض ساعات بزعم أنهم لم يتلقوا أية شروط من رعمائهم الذين ما كان منهم إلا أن اعتدلوا عن إمعان جتودهم فى العصيان . هذه المناورة أظهرت لنا جليا أنهم ما أرادوا سوى كسب بعض الوقت للتحصين . وحتى لا نترك أنفسنا نهبا لخداعهم ومكرهم فقد بادرنا نحن بالعدوان فى الثانى عشر من الشهر .

قمنا فى الثالث عشر من جبرمسينال وفى الساعة الحادية عشرة مساءً
بالهجوم على المنطقة الواقعة خلف حى الأقباط . كان إطلاق النار من
جانب العدو مروّعاً ومشؤوماً ، ولكن سرعان ما ضاعفنا من شجاعتنا حتى
نشرنا الرعب والموت بين صفوف العدو وكسبنا بعض الأرض . وقد كان
باستطاعتنا كسب المزيد لولا صدور أوامر عليا أوقفت مسيرتنا . ولأن بين
النصر والهزيمة لا يوجد غالباً سوى خطوة واحدة ، فقد تعرضت قواتنا
لهجوم يفوقها فى القوة فى اليوم التالى ، حتى اضطرت الى ترك جزء من
مغانها . وقد لقى العديد من جنودنا مصرعهم خلال هذه الهجمة ، كما
أسر العديد من الرماة ، تم إعادتهم لنا مرة أخرى . (وهو أمر غير طبيعى
بالنسبة لهذه الشعوب البربرية) .

أما مراد بك ، الذى طلب السلام - كما ذكرنا آنفاً - فقد وصل إلى
غرضه وعين واليا لأحد المناطق جزاء له . ورغبة منه فى تدعيم شيعته ،
أرسل مبعوثين إلى الممساليك وإبراهيم بك لجذبهم إليه . ولولا
تصدى العثمانيين وقد كشفوا مقاصده لكان كسبهم لاريب ، ولو أنه
نجح فى هذا لخدم قضيتنا كثيراً . وقد حدثت الشقة بين هذين القائدين منذ
أن أبدى الوزير الأعظم مودة خاصة لإبراهيم بك ، واحتقاراً لمراد بك ،
فوعد الأول بأفضل المواقع وأغفل الثانى تماماً . وقد كان فى هذا الخلاف
منفعة لنا لاستعادة القاهرة . فسفى هذه الظروف قام رشيد المقبوض
الإمبراطورى والمتآمر الشهير بالتخطيط لكسب ثقة الفرنسيين حتى يكون آمناً
عند خيانتهم . وحتى يمضى إلى غايته ، فقد تظاهر بالتفاوض بشأن
بولاق التى أعلنت التمرد بدورها ، وقد أوهمنا أن غالبية سكان هذا الحى
يمدون أيديهم لنا . . حتى اعتقدنا أن ما علينا سوى إصدار إعلان يتضمن
قراراً بالعفو حتى نكسب الباقين . فما كان منا إلا أن أصدرنا بياناً بهذا
المعنى وأرسلنا كتيبتى . ورحلنا تسبقنا الموسيقى وأغصان الزيتون فى أيدينا

وكأننا داخلون مدينة فرنسية منتصرون . وكم كان استنكارنا حينما بلغنا المكان وكدنا ندخله فعاجلتنا طلقات مدفعية مفاجئة مقدمة لنا الشحية ! وعرفنا من هذه المدفعية أنها بالتأكيد ليست أصوات الموسيقى التي انتظرناها ، فمما كان منا إلا أن قطعنا مسيرتنا الحماسية . وقد تقدم الجنرال دوما ونخاطب الجماهير التي ردت عليه بأنها ستحذو حذو سكان العاصمة .

وعلى هذا ، عدنا إلى القاهرة لمشاركة الجيش مهامه ومصيره . وتابعا الهجوم يوميًا وتجددت المحاولات بلا توقف من الجانبين . فكنا أحيانا نقصف المدينة ، وأحيانا نستولي على بعض المنازل التي كنا نشعل فيها النيران على الفور . وكان العدو يفعل بالمثل في الحى القبطى (وقد كان الحى الوحيد الذى كنا نحتله) حينما ينجح فى هذا .

الثامن من إبريل (١٩٠٠م)

فى الخامس والعشرين من جيسرمينال عام ٨ ، قمنا بشن هجوم عنيف على عدة محاور فى حى بولاق المشؤوم المتكبر . فى البداية قاوم أهل هذا الحى بشراسة ، غير أننا بعد ساعات من القتال تمكنا من الدخول بالقوة وكم دفع غاليا هذا الحى البائس ثمن تمرده . فقد رأيت غسالية سكانه يسقطون صرعى إثر رشقهم بحرايبنا ، وتعرض عدد كبير من منازلهم للحرق كما نهب كل شيء . ويعد هذه العملية القاسية الكثيرة كان سيشتق على من شاهدوا هذا الحى التعرف عليه . ولكنها ويلات الحرب وقانونها !

فى الثامن والعشرين ، وبحلول الليل تم تفجير منزل رينيه وقد كان حصنا للأعداء ، وكم من المتمردين تواروا تحت أطلاله ، البعض سحقته الانقاض بينما التهمت النيران البعض الآخر وراحت تتصاعد من جوفهم مخلقة رائحة غير محتملة .

قمنا بشن هجوم شامل وأطلقنا المدافع فى كافة الاتجاهات . كانت القنابل ترتفع عاليا فوق الساحة لتسقط على المباني محدثة دويًا عتيقًا . وقد سيطرنا على عدة مواقع وأضرمت بها النار ، وكان مشهدًا مفرعًا بحق ! وكأننا فى الجحيم وقد سمرت فى قلب هذه المدينة . أما من جلبوا لها هذه الوليات فقد طلبوا الاستسلام وقد أصابهم الفزع . . واقتصر ردنا على هذه الكلمات الرهيبة : « لا عفو ولا أمان » .

وقد عارونا الرفض عدة مرات قبل أن ندعن لطلبهم . فقد فقدنا الكثير من رجالنا ، ولكن عدد من فقدهم العدو فاقنا بشكل قاطع . فطول هذا الحصار المشهود الذى امتد أكثر من شهر إضافة إلى خسائر المالك والعثمانيين فى الرجال والعتاد وقلة بل ندرة مواد الإعاشة والانقسامات الداخلية وغضب الشعب كل هذا تكالب لإجبارهم على قبول الشروط التى أمليناها عليهم ، وقد ختمنا هذه العملية بتلاوة البيان الآتى :

من مركز القيادة بالقاهرة

الثانى من فلوريال عام ٨ الموافق ٢٢ إبريل (١٨٠٠م)

كليب القائد العام إلى الجيش .

أيها الجنود :

لقد مضيت قدما فى المفاوضات والأعمال العسكرية لأجنيكم إهدار دمائكم ، ولعل أكبر عقبة ، كان على تدليلها هى تأمين السكان ضد النهب والتخريب .

كان أكبر عائق أمامى هو إشاعة الطمأنينة فى نفوس السكان ، والتأكيد لهم أنهم لن يتعرضوا للسلب والتخريب . فقد كان ما حدث فى بولاق التى سمحت لكم بإشباع انتقامكم فيها حاضرا ببشاعته أمام أعينهم .

وراح كل واحد يفكر فى الأمر بطريقته ، واحد يقول إننا مهددون بعمليات إنزال قريبة وآخر يرد بأن الغرض من هذه الجلبة هو تغطية رحيل أو هروب كليبر .

بلغنا الرحمانية فى التاسع عشر من الشهر ، حيث وجدنا قوات عديدة قد وصلت بالفعل . وبعد أن تأكد الجنرال بنفسه من وجود أسطول للأعداء وإن لم يعرف الغرض الذى أتى من أجله قرر أن يستبقينا ليعود هو مع الأسف إلى القاهرة .

وبناء على أوامره ، اتخذنا مواقعنا فى السلمية ، وهى قرية من قرى الدلتا واقعة على الضفة اليسرى من مدينة رشيد . ولكن أى أسى وغم شديد أصابنا حينما علمنا بعد وقت قصير بوفاة كليبر بعد أن اغتيل بيد أئمة .

ولو أن أبا عزيزاً علينا هو الذى فقدناه ما كنا بكيناه بالمرارة والحرقرة التى بكينا بها هذا القائد العزيز صديق الجنود . من لنا بخليفة بمثل قدره يكن لنا القدر نفسه من المودة كهذا القائد الكريم؟ أين نلجده؟ وقد حمل لنا البيان التالى الإجابة عن هذا السؤال :

القيادة العامة بالقاهرة

السادس والعشرين من بريرال عام ٨ ، الموافق ١٥ يونيو (١٨٠٠م)
من الجنرال عبد الله مينو ، قائد فرقة ، والقائد العام للجيش بالنيابة ،
إلى الجيش :
أيها الجنود :

« سلبننا اعتداء مروع القائد الذى كنتم تكونون له المودة والاحترام .
هذا العدو غير الجدير سوى بالاحتقار واستنكار العالم أجمع ، هذا العدو

الذى ما استطاع أن يقهر الفرنسيين وهم تحت زعامة كليبر الشجاع ، كان من الجبن بحيث أرسل قاتلا ليقتفى أثره . وإننى أدين الوزير الأعظم أمام العالم أجمع ، فهو قائد هذه الجيوش التى دمرتموها فى المطرية وعين شمس . فبالتآمر مع أغا الإنكشاريين ، قام بوضع الخنجير فى يد المدعو سليمان الحلبي ، الذى رحل عن غزة منذ ٣٢ يوماً . لقد سلطنا قائد ستظل ذكره عزيزة على كل فرنسى ، فعل هذا على يد أسوأ القتل .

أيها الجنود ، لقد نجح كليبر وهو يقودكم فى مسيرتكم فى تبديد هذه الهجمات البربرية التى قدمت من أوربا وآسيا للهجوم على مصر . وبقيادته لقواتكم التى لا تقهر استطاع كليبر استعادة مصر بأكملها فى ظرف عشرة أيام . وقد استطاع كليبر إصلاح أحوال الجيش المالية حتى إن جميع الرواتب المستحقة قد تم سدادها ، كما استتب السلام . وبإجراءات شديدة الحكمة ، استطاع كليبر إصلاح جانب كبير من مفاسد الإدارات الكبرى .

ولعل أكبر نحية إعزاز تودى لذكرى هذا القائد الشجاع هى فى الحفاظ على قوتكم وفخاركم الذى ألقى الرعب فى قلوب أعدائكم فى كل مكان قادتكم إليه أقدامكم ، وفى الالتزام بهذا النظام الذى يصنع الجيوش . تذكروا دائما أنكم جمهوريون وأن عليكم أن تكونوا دوما نموذجاً للأخلاق الكريمة ومثالا يحتذى به فى طاعة زعمائكم ، كما كنتم دائما مثالا يحتذى به فى الشجاعة والجرأة فى المعارك .

أيها الجنود ، لقد حملتنى أقدمية رتبتي بصورة مؤقتة لقيادة الجيش . وكل ما أستطيعه لكم الآن هو أن أتمسك بالجمهورية بلا حدود وبالحرية وبازدهار فرنسا .

سوف أصلى من أجل روح كليبر واستلهم عبقرية بوناپرت ، ومعكم سوف نعمل سويا لخير الجمهورية وصالحها .

وسأولى إبلاغ الجيش بكافة تفاصيل المؤامرة الدينية التي أودت بحياة القائد، وسأعلمكم بالإجراءات التي ستخضعها للبحث عن القتلى وشركائهم ليلقوا جزاءهم .

عبدالله مينو

لم يكن ثمة حديث - مهما كانت بلاغته - كفيلاً بمواساة الجيش في خسارته الفادحة . لقد استبد به حزنه على كليبر حتى ما عاد يشغله سوى ذكراه . لقد ثيقن الجيش من أن هذا القائد العظيم لم يكن يفكر إلا في سعادة جنوده وعودتهم إلى فرنسا ، حتى إنه استشعر الآن فداحة المأساة التي حلت به . ورغم الحكمة والبلاغة التي انطوى عليهما الخطاب السابق إلا أنه زاد من الإحباط العام ولم ييسده . فلقب «عبد الله» الذي حمّله القائد الجديد لم يترك انطباعاً في صالحه ولم يكن انتماءه للجمهورية ليطلق بداخلنا جذوة أفكارنا الدينية التي نهلنا تعاليمها من تربيّتنا الأولى وعاداتنا القومية .

فهذا الرجل المرتد عن دينه - كما يقولون - الذي تخلى عن بلاده ليدخل في شريعة محمد ويرتدى العمامة ، هل هو كفء لقيادتنا ؟ لقد ربط مصيره وعواطفه بامرأة من هذا البلد، فهل يفكر في التخلي عن عائلته الجديدة ليعود من جديد إلى فرنسا حيث سيستهزأ به؟ وبدلاً من التفاوض مع أعدائنا والاقتراء بكليبر ، ألم يفعل ما بوسعنا لحملنا على البقاء في مصر لتكون سنداً لقوته ومرافقيه في منفاه الاختياري ؟ كان أغلب حديثنا يدور عن هذا ، وهو إن لم يحمل توقعات حقيقية إلا أنه لم يكن خالياً تماماً مما يدعمه .

مراسم وداع كليبر

منذ أن ودع كليبر الدنيا وصوت المدفعية الحزين يدوى كل نصف ساعة ، فمئذ الساعات الأولى لليوم الثامن والعشرين من بريرال الموافق مراسم وداعه الأخيرة ورشقات المدفعية القادمة من القلعة تتردد من كافة الحصون ، وراحت أصداؤها تعلن عن اعتزام الجيش القيام بمراسم وداعه .

تحرك المركب من مركز القيادة بساحة الأركية بعد إطلاق خمس طلقات مدفعية ، وعدة رشقات من البنادق ، واخترق المدينة بأكملها حتى وصل بجثمان الفقيـد إلى مزرعة حصينة خاصة بإبراهيم بك . وقد تقدم هذا المركب قوة من سلاح الفرسان ، وخمس قطع مدفعية والفرقة ٢٢ مشاة الملقبة بالخفيفة ، والفيلق الأول من سلاح الفرسان بالجيش والمرشدين مترجلين والفرق الموسيقية للحامية بأكملها ، وقد راحت تعزف ألحانا تماثل في حزنها هذا الاحتفال . أما جثمان الفقيـد فكان في تابوت من الرصاص محمولاً على مركبة جنازية جميلة مكسوة ببساط مخملى أسود موشى بدموع نسجت من خيوط فضية ، ومحاط بأسلحته التي جلبت له الانتصارات ، وقد علا التابوت خوذة البطل وسيفه ، بينما راحت ستة من الخيول مكسوة بالسواد والرياش البيضاء تجر المركب ببطء .

تقدم حملة الرايات من المرشدين المركب وخلفهم الجنرال مينو بلباس الحداد يحوطه الجنرالات ، وضباط الأركان يليهم مرافقو كليبر . يتبعهم الكومندان العام للموقع وقائد أركانه وإحدى الفرق وأعضاء المعهد والكوميسيرات وضباط الصحة والإداريين والمرشدين على صهوة خيولهم ، يتبعهم حسين كاشف مندوباً عن مراد بك وبرفقته المماليك والأغارات والقضاة والشيوخ والعلماء والرهبان والقساوسة اليونان والأقباط والكاثوليك

ومختلف الطوائف بالمدينة . وقوة من اللواء التاسع والثالث عشر والبحرية والكتيبة اليونانية والميليشيات القبطية وفرقة الهجانة وسلاح المشاة مترجلين وسلاح الفرسان والمماليك والسوريين على صهوة خيولهم وفي نهاية الموكب كان هناك مفردة من سلاح الفرسان الفرنسي .

في الساعة الحادية عشرة ، وصل الموكب إلى ساحة الحصن حيث شكلت القوات دوائر وراحت المدفعية تعلن عن المكان الذي سوف يرقد فيه جثمان قائدنا ، الذي رُفِع بعض الوقت على قاعدة محاطة بشمعدانات من طراز قديم .

قام القائد العام للأركان بالترجل لتحية رفات رئيسه ، بينما تقدم جميع العسكريين من جميع الجيوش بمختلف رتبهم بتلقائية لوضع أكاليل الغار على قبره مبدين آلامهم الصادقة .

وقد تقدم السيد فسورييه المندوب الفرنسي لدى الديوان ، والذي كلفه الجنرال مينو بإلقاء كلمة للتعبير عن الحزن العام ، واتخذ مكانا مرتفعا ، وحوله رئيس الأركان وكبار الضباط المدنيين والعسكريين بحيث يرى الجيش المتخذ هيئة كتيبة . وألقى بصوت مؤثر الخطاب التالي :

أيها الفرنسيون :

وسط هذا المشهد الجنازى الذى يعد تعبيراً زائلاً - وإن كان مخلصاً - عن الألم العام ، أتيت أحدثكم عن اسم عزيز عليكم وضعه التاريخ فى سجله .

مضت أيام ثلاثة منذ أن بلغكم نبأ فقد كليسر القائد العام للجيش الفرنسى فى الشرق . هذا الرجل ، الذى طالما احترمه الموت وغفل عنه ،

والذى دوت أصداء انتصاراته العسكرية حتى بلغت شواطئ الرين ونهر الأردن والنيل ، سقط صريعا لاحول له ولا قوة بقبضة قاتل دنىء .

حينما تقع أعينكم على هذا المكان الذى أتت عليه النيران ، ووسط أنقاضه التى ستشهد طويلا على دمار خلفته حرب مروعة ضرورية ، سوف تلمحون هذا البيت المنعزل الذى تصدى منه الفرنسيون لمدة يومين كاملين لجميع المحاولات التى قادت بها عاصمة ثائرة ، أما نظرات الممالك والعثمانيين فسوف تتوقف شتم أم أبيتم أمام هذا المكان المشؤوم الذى أودى فيه الخنجر بحياة القائد المنتصر بمستريخت وعين شمس . ستقولون : هنا مات قائدنا ، وصديقنا ، ولم يستطع صوته الذى تلاشى فجأة أن يدعونا لنجدته . وكم من الأذرع كسنت ستهب للدفاع عنه . كم منا كان سيتوق لشرف إلقاء نفسه بين القاتل وبينه . اشهدوا معي أيها الفرسان البواسل ، يا من هرعتم لنجدته وقمتم فى كل لحظة بتشتيت كل هؤلاء الأعداء الذين أحاطوه من كل جانب ، هذه الحياة التى كان لدينا لشجاعتكم بها ، ها هو قد فقدناها بسبب إفراط فى الثقة جعله يقصى حراسه ويضع سلاحه .

بعد أن طرد من مصر قوات يوسف باشا وزير الباب العالى ، صرع المتمردون والخنوة وفر من بينهم من فر . حيثئذ ، نبذ هذه الفظائع وإن أدت لانتصارات جيوش الشرق ، وأقسم أن يشرف بالعفو الاسم الفرنسى الذى خلده بالسلاح . وقد حافظ تماما على هذا الوعد . لم يذن أحدا ، ولم يحكم بالموت على أحد ، ولم يتعرض بالفعل لسلوم سوى هذا المنتصر الذى لقى حتفه وسط غنائمه . ولم يفلح إخلاص حراسه ولا شجاعته النبيلة الحديدية ولا الحماس المخلص لكل هؤلاء الجنود الذين أحبروه فى درء هذا المصير المحتوم عنه وتجنبيه هذه المنيعة التى وضعت نهاية

لحياة جميلة مشرفة ، وبإلها من خاتمة لأعمال جليلة ومخاطر جمة ومآثر ساطعة .

فى سوريا وقع اختيار قادة الجيش المنهزم على رجل أسمى تعصبه ليغتال القائد الفرنسى . وسرعان ما عبر الصحراء واقتفى خطوات ضحيته طيلة شهر كامل حتى سنحت له الفرصة المشؤومة ونفذ جريمته .

أيها المفوضون ، يا من ليس لكم دين ، أيها الجبناء فى كرمكم أنتم من اقترفت هذا الجرم ، وسيظل لاحقاً بكم مثل هزيمتكم ؛ لقد تخلى لكم الفرنسيون عن مواقعهم وفاءً بما عاهدوكم عليه . كتم على أبواب العاصمة حينما رفض الإنجليز فتح البحر أمامكم . فلجأتم للفرنسيين وأبرمتم معاهدة مع حلفائكم الذين حثوا بوعودهم . تركتم لهم الصحراء يحتمون بها ولكن الشرف والخطر والاستنكار أشعل الحماسة فى قلوبنا وفى ظرف ثلاثة أيام ، تمكنا من تدمير وتشيت جيوشكم . خسرت ثلاثة مواقع وأكثر من ٦٠ قطعة مدفعية وأجبرتم على ترك جميع المدن والحصون من دمايط وحتى الصعيد .

وقد دعا الحذر الجنرال الفرنسى لمد حصار القاهرة ، هذه المدينة المشؤومة التى تركت دماء رجالها غير المسلحين تهدر على أرضها ، ورأيت كيف انقض هذا الحشد من الجنود القادمين من قلب آسيا . فما كان منكم إلا أن عهدتم لأحد القتلى بأخذ ثأركم .

أيها المواطنون ، أى مكسب ينتظره أعداؤنا من هذا الجرم الكبير ؟ هل اعتقدوا أنهم يقتلهم هذا الجنرال المنتصر قد شتوا جنوده الذين يدينون له بالطاعة ؟ وإن كان فى يد دنيئة الكفاية لجعلنا نزرع كل هذه الدموع ، فهل بإمكانها أن تمنع تولى زعيم قدير قيادة الجيش الفرنسى ؟ بالطبع لا . وإن كانت الظروف الحالية تقتضى خصائص استثنائية ، وإذا كان حمل

عبء هذه العملية المشهودة يقتضى عقلية خاصة ليس عليها أى غبار
وتتفانى بلا حدود من أجل عزة ومجد الوطن ، فلا شك أيها المواطنون ،
أنكم ستسجدون كل هذه الخصال فى خليفته . لقد كان يحظى بتقدير
بونابرت وكليبر ، وهما هو يأخذ مكانهم اليوم ، وبهذا سوف تتواصل آمال
الفرنسيين كما سوف يتواصل يأس أعدائكم .

أيها الجيش الذى يجمع بين أسماء إيطاليا والرين ومصر ، لقد
وضعكم القدر فى ظروف غير عادية ، وجعل أنظار العالم أجمع تنجس
صوبكم ، كما أن الوطن يزهر بشجاعتكم الجسورة . وسيظل دائما معترفا
لكم بالجميل لانتصاراتكم . ولا تنسوا أنكم الآن فى رعاية هذا الرجل
العظيم الذى اختارته أقدار فرنسا ليصلح من مصير دولة رجزتها المأسى
التي آلت به . فعبقريته لا تحدها البحار التي تفصلنا عن وطننا ، وهو
ما زال بينكم يملؤكم حماسا ويحثكم على الثقة فى رؤسائكم ، فبدونهم ليس
للقيم ولا للفضائل القتالية التي أعطى لكم عليها المثل والبرهان من فائدة .

لنأمل أن تتوج جهود الفرنسيين خطوات حكومة مزدهرة . حينئذ ،
أيها الجنود المبجلون سوف تنعمون بالمآثر المكرسة للمواطن الحق . وسوف
تستعيدون ذكريات هذه البلاد البعيدة التي أخضعتنموها مرتين . وتلك
الجيوش التي ما دمرتموها إلا حينما قام نابليون بجرأته المعهودة باقتفاء
خطواتكم حتى سوريا ، وهؤلاء الذين قام كليبر - الذى لا يقهر بشجاعته
واقلامه - بتشتيت أمرهم فى قلب مصر . أية ذكريات مجيدة ستحملونها
معكم لتقصّوها على ذويكم ! عليها تمنحكم سعادة تخفف عنكم وطأة
أحزانكم !

لا شك أن اسم كليبر العزيز سوف يتردد دائما فى أحاديثكم ، وبقينا
أنكم لن تشفوهوا به دون تأثر . . وسوف تقولون : « كان رفيق الجنود ،
حامى دمائهم ومخفف آلامهم » .

صحيح أنه كان يناقش كل يوم آلام الجيش ولم يكن يفكر سوى فى الوسائل الكفيلة بوضع نهاية لها . لكم أقلقه تأخر رواتبكم العسكرية ، الأمر الذى كان لا مفر منه فى ذلك الحين ، وبغض النظر عن الضرائب الاستثنائية التى فرضها فكانت أقصى أوامر اضطر لإصدارها على الإطلاق ، فإنه لم يأل جهدا فى سبيل تنظيم الشؤون المالية ، وتعرفون أنه نجح فى مساعيه . فقد عهد بالإدارة لأيد نظيفة كانت محل تقدير عام . وكان يفكر فى إحلال نظام شامل فى كافة قطاعات الحكومة . غير أن المنية واقتته بصورة مفاجئة لتوقف سير هذا المشروع النافع . لقد خلف وراءه ذكرى عزيزة على جميع الفضلاء من الناس . ما من أحد أحب واستحق أن يحب أكثر منه . كان تعلقه بأصدقائه القدامى يزداد يوما عن يوم لأن خصالهم تشبه خصاله . ولابد أنهم سيجدون بعض السلوى والعزاء فى تقدير الجيش والإجماع العام على الحسرة على الفقيده . وحدوا إذا ولأكم ، فأنتم لا تشكلون سوى عائلة قتالية واحدة دعتها بلادكم للدفاع عنها . أيها الفرنسيون ، ثمة مصير مشترك يجمع بينكم على هذه الأرض الأجنبية ، ولنذكر كذلك فى هذا اليوم بكل الحب والتقدير هؤلاء الشجعان ، فى معسكرات سوريا ، وأبى قيسر و القبة الذين وجهوا أفكارهم ونظراتهم الأخيرة صوب الوطن فرنسا .

وأنت يا كافاريللى وقد جمعتك صداقة خاصة بكليسر ، لك كل التقدير فى هذا اليوم ، فأنت نموذج للتضحية والفضيلة ، بتفانيك فى سبيل الآخرين ، وشدة عزمك على ذاتك .

أما أنت يا كليسر ، يا موضع تبجيلنا وحزننا فى هذا الاحتفال الذى لن نحضر بعده ، فلتترقد روحك فى سلام أيها الشهم العزيز وسط آثار المجد والفن ، لتسكن هذه الأرض الشهيرة على مر العصور . ولينضم

اسمك لقائمة تضم أسماء جيرمانيكوس وتيتوس وبومبيي والعديد من القادة والحكماء ممن تركوا مثلك على هذه الأرض ذكريات لن تنمحي * .

تبع هذه اللحظات خشوع مهيب ، خلفته الدموع الحارة التي ذرفت بفعل كلمات هذا المتحدث . ثم تتابعت القوات بعد ذلك الواحدة تلو الأخرى لتقف أمام التابوت وتطلق للمرة الثالثة رشقات من البنادق ، بينما راحت المدفعية في مختلف الأنحاء في القلعة والحصون المواقع المنيعه تدوى في أنحاء بولاق^(١) .

من يصدق أنه على الرغم من هذه الدلائل القاطعة على موت كليبر كان ثمة أصحاب تفكير غريب أو مغرض يروجون أن هذه المراسم هي مجرد خدعة ، وأن الجنرال رحل إلى فرنسا ، كما خطط في السابق وأن تابوته الفارغ ما حمل في هذا الموكب المهيب إلا لتغطية قراره . ولكن شهود العيان الذين شهدوا مصرعه ، والجزء الذي لقيه قاتله وأعوانه سرعان ما بدد هذه الأفكار العبثية .

لقد اعترف القاتل بجريمته ، بل عدها مبعثا للفخار ولكنه لم ينعم بهذا الفخر طويلا ، إذ حكم عليه بقطع يده ويزفره على خاروق كعادة البلاد . وقد تم إقصاء ثلاثة أعضاء من ديوان القاهرة لتكتمهم مخطط سليمان على الرغم من علمهم به ، بعد أن تم إقناعهم بهذا .

(١) تم نقل رفات كليبر إلى قصر إيف وقد أصدر الملك هام (١٨١٤م) أوامره بنقل رفاته إلى مارسيليا حيث لقي مراسم وداع تليق به كقائد عام ، وفي هذا العام (١٨١٨م) وبناء على طلب الفريق دوما ، رئيس أركان كليبر السابق ، وبناء على تقرير رفعة وزير الحرب ، قرر سمو الملك نقله إلى ستراسبورج حيث ولد ، ليقيم دفنه وسط مراسم تليق بذكرى هذا القائد الشهير وبخصاله النبيلة والخدمات الجليلة التي قدمها للوطن (عن صحيفة باريس ، الخميس ١٦ يوليو (١٨١٨م) - العدد رقم ١٩٧) .

حكم الجنرال مينو

ها قد وصلنا الآن لفترة حكم الجنرال مينو ، وسوف نعطي فكرة عنها من خلال بعض الأوراق الرسمية بدلا ترك هذا لخلفياتنا الخاصة . ولعل الوثيقة التالية تعطي فكرة للمقارئ عن دخيلة قائدنا الجديد ووجهة نظره .

من مركز القيادة بالقاهرة

الثالث من ميسيدور عام ٨ الموافق ٢٢ يونيو ١٨٠٠

من مينو القائد العام للجنرال فردييه

أيها الجنرال ، لست أطمح سوى أن أكون جديراً بتقدير وثقة القوات ، وخدمة الجمهورية بكل طاقتي . سوف أكرس كل لحظة من اللحظات وكل يوم من أيامي لرفعة الجيش ورفاهيته وأية لحظة تمضي دون أن أكرسها لعمل يتم في سبيله ستكون لحظات ضائعة .

بما أن العثمانيين البرابرة لا يملكون سلاح الفرنسيين ، أى الشجاعة ، فقد لجأوا لسلاح الخيلاء ، الخنجر والسم . كما تعلمون ، لقد قام من لا دين لهم ولا ضمير ضد قانون البشر باحتجار المفاوض ، رئيس اللواء بودو ولا يكفيني فيه مائة وخمسون سجينا .

لقد أبلغت يافا بهذا ، كما قلته للإنجليز الذين تنقصهم اللياقة بنفس القدر الذى تنقص به حلفاءهم . أما بالنسبة لموقفنا من مصر فعلى حكومة الجمهورية الفرنسية أن تقود مسيرتنا . لقد أصبح لمصر وزنها اليوم وقدره فى ميزان السياسة الأوروبية حتى أنه ليس لأحد سوى حكومتنا أن يقود خطانا ويحدد مسلكنا . وأتعشم أن أنباء ستأتينا منها عما قريب .

أيها المواطن الجنرال ، كل ما أطلبه هو اليقظة والنشاط والمداومة على المراسلة سواء معى أو مع المدن المجاورة ، وكل شىء سيسير بصورة جيدة . سوف أعلم الجيش دائما من خلال الأوامر اليومية بالأنباء التى قد تهمة . وسأرسل إليه بالصحف .

برجاء تكليف أحد بقراءة هذا الخطاب على القسوات التى تحت قيادتكم .

مينو

بدا هذا الخطاب وكأنه يعدنا للرضوخ . ولم تكن ميول الجنرال مينو مجهولة للجميع لتدهشنا نغمة هذا الخطاب . فنظراً لتأييده البقاء فى مصر فقد عوّل على الأوامر التى ينتظرها من الحكومة الفرنسية لمد فترة بقاءه وبقاتنا فى هذه الأراضى الأجنبية . وأظهر نواياه بصورة أوضح فى الوثيقة التالية :

مجلس القيادة بالقاهرة فى الثامن من ميسيدور عام ٨ ، الموافق ٢٧ يونيو (١٨٠٠م)

القائد العام مينو إلى الجيش الفرنسى بالشرق

أيها الجنرالات والضباط وضباط الصف والجنود ، لابد أن تعلموا الحقيقة كاملة فهاكم إياها :

حينما تنهى لعلم الحكومة الفرنسية عام ٧ أن أعداء الجمهورية الفرنسية عاقدوا العزم على الاستيلاء على مالطا ومصر ، قررت تفويت هذه الفرصة عليهم . اقتضت المصلحة العامة هذا نظراً لأهمية تجارة المشرق التى تبلغ أرباحها سنوياً قرابة الخمسين مليوناً . لذا صدرت أوامر بالقيام بحملة على مالطا ومصر . وتكفل بونسابرت بهذه المهمة . وتم ترتيب

الأمور بحيث يتوجه سفير فرنسى فى نفس وقت رحيل الجيش إلى قسطنطينية ولم يدر السلطان قط بمآرب الحكومة . وقد استغل أعداؤنا الروس والإنجليز بمهارة هذه الظروف ، فأجبروه على الدخول معهم فى تحالف يصارع منذ سنوات ثورتنا وحریتنا . وقد توجهت جيوش تركية بقيادة الإنجليز حتى بلغت أبا قير ودمياط ، فاستطعتم ردها من حيث أتت . فما كان منهم إلا أن أرسلوا جيشاً آخر بقيادة الوزير الأعظم نفسه إلى سوريا ، حيث تمت بعض المفاوضات . وقد أبرمت اتفاقية لن اسمح لنفسى بإبداء أى تعليق عليها . وتعلمون كيف تم نقضها وما انطوى عليه الأمر من خديعة . علمتم كيف أرادوا لكم أن تكونوا أسرى حرب ، وكأنكم خسرتم معركتين أو ثلاثاً ، ولم تكونوا دوما المنتصرين !

تقدمت الجيوش العثمانية وتعرضت لهجومكم فى المطرية وعین شمس فشتوا جمعهم فوراً . ثم عادت جماعة منهم وانقضت على القاهرة وحتى اضطررتم لمحاصرتها . ثم عادوا للتفاوض بعد شهر من الحصار . وتعلمون أنه حدث اعتداء سافر راح ضحيته وعسيم كلنا نبجل ذكراه . لم يستطع أحد قهركم فى المعارك فلجأ أعداؤنا إلى الخنجر مستعقدين أن هذا الحادث المشؤوم سيكون من شأنه نشر الفوضى فى صفوف الجيش الفرنسى . لم يعرفوا أن اغتيال كليبر من شأنه مضاعفة شجاعتكم وجرائتكم وحذرکم . ولأن تجمع الشرق كله لثارتكم من دمه لجنرالکم .

ولكن من يوجهكم اليوم ؟ لا أحد يجور له هذا الحق إلا الحكومة الفرنسية . فليس لأحد سواها أن يصدق أو يلغى كل ما تم إبرامه من اتفاقيات ، أو إضافة أية اتفاقية تبرم مستقبلاً بين الجيش الفرنسى وقوى العدو .

لقد قلت إن الجميع ، نعم الجميع (وأنا واثق من أن ليس ثمة استثناء) من لا يرضيهم إلا سماع صوت الشرف والارتباط بالجمهورية والصالح القومي ، سيشعرون أنه ليس من سبيل آخر ولا أية طرق شرعية ومشرفة لإبرام أية معاهدة مع الأعداء سوى هذه الطريقة . لو أنني رجحت كفة مصالح الشخصية وغفلت للحظة عن كوني جمهورياً أو استطعت إشار كل ما هو شخصي على الازدهار العام ، لما ترددت مثلكم ولو للحظة في الرغبة للعودة إلى بلادنا .

ولكن لا ، أيها الجمهوريون ، لا أنا ولا أنتم فكرنا على هذا النحو لأن مصلحة الجمهورية هي وحدها التي تقودنا . وإن استدعى الأمر ، فسوف نحارب ونكسب . وإن أرادوا التفاوض فسوف نصغي للمقترحات التي ستعرض علينا . ولكن لن يشم تنفيذ أية معاهدة إلا بعد أن تصدق عليها الحكومة .

تعرفون جميعاً يونابرت الذي طالما قادكم إلى النصر ، بصفته قنصلاً أول ، فإنه وحده الذي يستطيع قيادتنا وإجلاء مسيرتنا . سيتم إعلامه بكل شيء ، ليعلننا بالرغبة القومية .

هذا هو حديثي إليكم ، لا ولم أنطق إلا بالصدق ولا شيء غير . سوف أقتدي يونابرت وكليير ، وأعمل على كسب ثقتكم واحترامكم حتى أستحقها . لن أضيع لحظة دون الاهتمام بأمركم ، ودون البحث عما هو أجدي لكم . كان كليير قد شرع في إصلاح الأمور المالية ، وسوف أعمل على إتمام ما بدأه .

سوف يتم من الآن صرف رواتبكم اليومية . كما سيتم تسديد الديون المستحقة . وسأعمل على القضاء على جميع التجاوزات . ولكن تذكروا أن الشر لا يستغرق سوى لحظة بينما يتطلب إصلاح ما أفسده وقتاً كبيراً .

كل ما أطلبه من الجيش هو الطاعة الكاملة لجميع رؤسائكم أيا كانت رتبهم ، والنظام والدقة والأخلاق . هذا ما يحق لى مطالبتكم به . وهذا ما سوف أذكركم دوما به . وفى كل الأحوال ، نحن جمهوريون نعرف فضائل أن نكون هكذا..

ذات يوم ، حينما نعود إلى وطننا سوف نفخر جميعا بمشاركتنا فى حملة أصبح لها اليوم شأن عظيم وورن كبير فى ميزان السياسة العالمية .

عبدالله مينو

وعلى الرغم من أن فكرة البقاء فى مصر لأجل غير مسمى لم تكن لتروق لنا ، لأن هذا معناه أن نتخلى ربما للأبد عن المناخ الذى ولدنا فيه ، إلا أن مسألة تقرير الحكومة الفرنسية لما فيه صالحنا سواء بالإبقاء على هذا الغزو أو بسحب جيوشها لتستفيد منها فى مكان آخر أسهمت فى التخفيف إلى حد ما من المرارة التى كنا نشعر بها ، وجعلتنا نتهياً للقيام بالتزاماتنا بشجاعة . ورحنا نقول : «إن أراد إقامة مستعمرة هنا ، وتدعيمها ، فما من شك أنه سيمدنا بالرجال والأموال ، وسيكون فى هذا مصلحة لنا . وإن لم يشأ ، فسوف يجد فى حكمته وقوته سبل انتزاع بقايا جيش يضم بين جنباة صفوة المحاربين الفرنسيين» .

ولكن مع الأسف ! لم يفكر الجنرال مينو فى هذا ولا ذاك ، بل تركنا نعتمد على مواردنا الخاصة . وإذا كان ربع هذا الجيش هو الذى تمكن من العودة الى بلاده فالفضل فى هذا يرجع لمزيج من الظروف السعيدة أكثر مما يرجع لرعاية أو عناية خاصة أولتها لنا الحكومة .

فبعد أن أجلى لنا القائد العام الموقف بهذه البيانات ، بدأ عملياته باستدعائنا إلى القاهرة . فرحلنا عن الصالحية فى الثانى والعشرين من

ميسيدور الموافق ١١ يوليو ، حتى بلغنا طنطا فى الثالث والعشرين منه وهى مدينة صغيرة تقع على الدلتا حيث دفعنا الفضول لزيارة قبر حمى محمد ونحن فى طريقنا ، ليس بوازع دينى بالطبع كمسلمين .

يحظى هذا القبر بشهرة واسعة فى هذه البلدة ، وهو واحد من أجمل آثارها . وهو قائم فى مسجد شديد الاتساع والثراء ، فأبوابه مكسوة برفائق من الفضة كما زين من الداخل بمصابيح عديدة مصنوعة من ذات المعدن . ويعد هذا القبر فى مقام قبر النبى ذاته ، فالمسلمون غير القادرين على الحج إلى مكة يحجون إلى طنطا كما يحج الأسبان ممن لا يستطيعون الذهاب إلى روما إلى القديس جياك دى كومبوستال . ولا بد أن يزور أتباع محمد الصالحين أيا من هذه الأماكن ولو مرة واحدة فى حياتهم ، إن أرادوا مرتبة عالية فى جنات النعيم .

بلغنا القاهرة فى السادس والعشرين من ميسيدور الموافق ١٥ يوليو . وبقينا فى هذه الحسمية حتى الثامن من ميسيدور الموافق ٢٧ يوليو حيث انتقلت الكتيبة ٧٥ إلى الجيزة .

فى مدح مينو

على الرغم من تحفظاتنا فى البداية على الجنرال مينو بسبب تغييره اسمه وحبه لمصر ، إلا أننا لم نلبث أن اكتشفنا خصاله وأعجبنا بها وبعقليته المنظمة الاقتصادية وحبه للعسكريين ومعرفته الواسعة بشؤون الإدارة وأخلاقه الكريمة . فبمعرفته التامة لدخيلة الإنسان ، حاول أن يقودنا بلغة الإقناع وليس بلغة الأوامر التى تتسم بالقسوة والحدة . ولكن هذا لا يعنى أنه لم يكن حارما حينما كانت الظروف تقتضى هذا كما سوف نرى بعد حين .

لقد دأب على تقديم أية مساعدة تقع فى نطاق مسؤولياته لأقل جندى ، فكان يفتح لهم دائما بابه ويلقاهم بكل بشاشة . لقد كان واضحا تماما من أسلوب تعامله الراقى أنه تلقى تربية متميزة وأنه ينتمى لطبقة راقية من طبقات المجتمع . وقد تمكن من ردع شرارة مصاصى الدماء الذين اغتنوا على حسابنا . كما استطاع بعزمته وفى وقت قصير اقتلاع جذور بعض التجاوزات غير المقبولة . لقد أحاط نفسه بكل من يبدون له النصيحة والمشورة وينرون له الطريق ليتمكن من الاضطلاع بمهمة الإدارة على أحسن ما يكون .

وقد أسس فى الخامس عشر من فروكتيدور عام ٨ الموافق ٢ سبتمبر (١٨٠٠م) ما سمي بـ «مجلس مصر الخاص» وهو مكون من ضباط سابقين برتب عليا . اختص هذا المجلس جميع شؤون الإدارة الداخلية والتجارة والزراعة والمالية والعلوم والفنون إلى غير هذا ، باستثناء شئون الحرب والسياسة الخارجية . وقد احتفظ القائد بحقه فى رفض أو قبول أو تعديل أى من قرارات المجلس . وعلى الرغم من المتاعب التى سببها له من جراء تنافس أو تعارض وجهات نظر بعض من أعضائه ، إلا أنه حظى بتقدير غالبية العسكريين . وقد استطاع أن يخرس بحزمه كافة الألسن التى أرادت الوقعة ، ولم يتورع - كما سوف نرى - عن الإعلان عن أية انحرافات .

مركز القيادة ١٨ فروكتيدور عام ٨ الموافق الخامس من سبتمبر عام (١٨٠٠م)

من ميتو القائد العام للجيش

أيها الجنود :

عاهدتكم على مكاشفتكم دوما بالحقيقة . وها أنا أوفى بوعدى . إننى مستاء من العديد منكم ، فقد تعالت الأصوات تكشف عن مظالم

خطيرة ، كما ترتكب بعض المخالفات والتجاوزات . إذ يسمح بعض الجنود لأنفسهم بمعاملة السكان بغلظة وفظاظة . ما هذا ! كيف تكونون جمهوريين ولا تعرفون معنى الكرم ! كيف تكونون فرنسيين وتصرفون بصورة تفتقر تماما للتحضر ! كم أود أن أعتقد أن التجاوزات التي يترك البعض منكم لنفسه العنان كي يرتكبها ما سببتها لكم إلا حالة من النشوة والسكر . ولكن السكر مجرد شخص مهتاج يهذى ويترك نفسه نهبا لجميع التجاوزات ، بل بإمكانه ارتكاب أشنع الجرائم . ويحكم ! أتريدون التشبه بهؤلاء البرابرة الذين أحلتهم رمادا في القبة والمطربة !

أيها الجنود :

ما فقد الكسندر الأكبر الذي غزا بدوره مصر سمعته في نظر أغلب المفكرين على الرغم من شخصيته الاستثنائية إلا بسبب التجاوزات التي أطلق لنفسه العنان لها في غمرة سكره وانتشائه ، وقد كان هذا الغاى المنتصر الشهير كفيلا بالآ لا يكون سوى آفة من آفات الجنس البشرى ، لم يتم بأعمال جليلة للتكفير بها عن الجرائم التي اقترفها .

أيها الجنود ، فلتتعلموا كيف تكونون كرماء مع المصريين ولكن ما هذا الذى أقوله لكم ؟ لقد أصبح المصريون اليوم فرنسيين ، إنهم إخوانكم . تعلموا احترام الشبيبة ، تعلموا احترام النساء ، تعلموا العدل . أى مجرد ستكسبونه بالإساءة لرجل يرتعد لمجرد مراءكم ، أو حينما تعطفون أو تهينون امرأته . فلتعاملوه مثلما تريدون منه أن يعاملكم إذا تبادلتم المواقع . أيها الجنرالات ورؤساء الوحدات والضباط من جميع الرتب ، فلتعيدوا هذا الحديث دوما على مسامع جنودكم . قولوا لهم إننى حينما أضطر للجوء للوسائل الصارمة فهذا يكدرنى أكثر مما يكدر من يلقون عقابى . قولوا لهم إننى حينما أقضى الأيام والليالى لتوفير بعض الرفاهية لهم ، فمن حقى

عليهم بل من حقهم على أنفسهم أن يتصرفوا كجمهوريين كرماء بحق .
لقد بلغتني أيضا شكاوى عن تجاوزات اقترفت في الحمامات العامة ،
فهناك من يريدون اقتياد نساء للاستحمام معهم . إن هذا الجرم يعاقب عليه
القانون في جميع البلدان المتحضرة . فهو مدمر للعادات والتقاليد العامة ،
ولا محل له في المجتمع . وعلى هذا فلأنتي أمر جميع الجنترالات
والكومندانات والقادة العسكريين أيا كانوا أن يردعوا ويعاقبوا بشدة جميع
الجرائم التي أوردتها أعلاه .

مينو

لقد وعدنا الجنرال بإبلاغنا كافة الأنباء التي ترد من فرنسا . الوثيقة
التالية تثبت إلى أي حد كان يحب الوفاء بكلمته .

مركز القيادة بالقاهرة

مينو القائد العام للجيش :

علمت لتوى بأن سفينة قادمة من فرنسا قد دخلت ميناء الإسكندرية .
إن الجيوش الفرنسية جيوش منتصرة ، فقد جعلتنا معركة لم يشهد التاريخ
مثلها سادة إيطاليا . تم هذا تحت قيادة بونابرت ذاته ، وقد شهدوا
في الرين نفس النجاح ، وفي فاندنيه قام السكان أنفسهم الذين ثاروا ذات
يوم برد الإنجليز حينما حاولوا النزول إلى البلاد . أما الحكومة الداخلية
فهي محل احترام وطاعة . لقد استعدنا الشقة على كافة الأصعدة حتى
غدت أحوالنا المالية على أحسن ما يكون . وبمجرد أن تأتيني التفاصيل
سوف أحيط الجيش بها علما .

مينو

علمنا من خلال تفاصيل معركة مارنجو أن جيوشنا توجت بنصر جديد في إيطاليا، وأن تنازل النمساويين عن عدة مواقع حصينة جعلنا نسيطر من جديد على بلد فقدناه بالعجز أو الخيانة . كان لوقع هذه الأنباء أبلغ الأثر في نفوس جيش مصر الذي اشترك معظمه في غزو إيطاليا الجميلة ولاقى ما لاقاه من آلام وهموم في سبيل هذا ، فالجدير بالملاحظة أن الجندي العادي يفرح بانتصاراته فرحا يفوق ما يشعر به رؤساء الحكومات . ولكن سعادتنا كانت ستكون أصفى وأكثر اكتمالا لو لم يصل إلينا نبأ مصرع الجنرال ديزيه الذي كان قد رحل منذ برهة قليلة ، وهو من أحب الناس إلينا وكان محل تقديرنا العميق .

في الأول من فاندემير عام ٩ الموافق الثالث والعشرين من سبتمبر (١٨٠٠م) دفع لنا الجنرال مينو كل مستحقاتنا المتأخرة وأعاد رواتبنا وكفلها لنا مستقبلا . وقد استطاع الوصول إلى هذا الحل السعيد بحكمته الإدارية وبوسائل تهدف كلها لرفاهية الجيش دون الإضرار بمصالح السكان ولا إرهابهم .

ما عاد أمام ألد أعدائه ذاتهم إلا أن يمتدحوا مواهبه الإدارية والرهابة الدائمة التي يوليها لتحسين مصير العسكريين .

ولو أن العناية الإلهية رتبت لكسب يكون لنا مستعمرة دائمة في مصر فلا أحد كفيّل بأزدهارها وبتدعيمها مثله . ولكن يبدو أن هذا القطر البائس الذي نعم يوما بالثروة والعلم قد حُكِم عليه طويلا بالتوحش والبربرية والبؤس وسوء الطالع .

في الخامس عشر من فاندემير الموافق السابع من أكتوبر (١٨٠٠م) ، تحركت الكتيبة الثانية إلى الجيزة ولحقت بقسوة من اللواء في الجيزة . وفي الثامن عشر منه أبحرت من بولاق إلى الإسكندرية حيث بلغت في الثالث

والعشرين من نفس الشهر . لم أعتقد فى هذا الحين أننى تركت القاهرة إلى الأبد وكذلك الأهرامات وكل الأشياء الجذابة فى مصر . لم أستطع أن أودعهم إلا عن بعد ولم يبق لى منهم إلا الذكريات .
لم نعرف الأنباء التالية إلا فى الإسكندرية .

مركز القيادة بالقاهرة

الخامس عشر من برومير عام ٩ السادس من نوفمبر (١٨٠٠م)
مينو القائد العام إلى الجيش :

يحيطكم القائد العام علمًا بأن السفينة الحربية سان فيليبو ، وقد أبحرت من تولون فى الخامس عشر من فاندسميير دخلت إلى ميناء الإسكندرية فى التاسع من برومير حاملة معها برقيات من الحكومة . هذه رسالة موجهة من القنصل الأول إلى موظفى الأقسام .

(هذا الخطاب الذى لم نضمنه كتابنا تناول مفاوضات لونييفيل وقرار إمبراطور ألمانيا بالتفاوض بصورة منفصلة إن لم توافق إنجلترا على هذا ، كما أورد استعدادات الحكومة الفرنسية لمساندة مصالح الوطن بكل قوة وعزيمة) .

ثم نصل الى ما يخصنا بشكل مباشر .

إليكُم خطاب الكومندان كارنو وزير الحرب للجنرال عيسد الله مينو ، القائد العام لجيش الشرق بتاريخ ٢٣ فوكتيدور عام ٨ (الموافق ١٠ سبتمبر ١٨٠٠م) .

«اطلعت الحكومة بكل الاهتمام على جميع التفاصيل الواردة فى برقيتكم ، وهى إذ تثق فى قدرتكم وحرصكم الشديد على هذه الحملة

الهامة وعلى ازدهارها ، تصدق على استمرار قيادتكم لهذا الجيش الشجاع الذى قصادها المرة تلو الأخرى ودافع عنها بكل الجسارة . وإننى إذ أرفق خطاب اعتمادكم وكذلك خطابات اعتماد جميع الضباط الذين وافق الجنرال كليبر على ترقيةهم نظرا لخدماتهم الجليلة» .

لقد بادر القنصل الأول بالتصديق على هذه المناصب اعترافا بالرضا العميق الذى تكنه الجمهورية جمعاء لجيش الشرق وزعمائه الكرام لدأبهم وعملهم ومجدهم . وربما لن يمضى وقت طويل حتى يجازوا بأكثر من هذا ، حينما يرون الإنجليز الناكثين للعهود وقد أجبرتهم شجاعة هؤلاء البواسل التى لا تلين ولا تقهر على الارتعاد خوفا على أنفسهم بعد أن واثتهم يوما الوقاحة أن يعرضوا عليكم العار والدمار ، وسوف يتصاعون للشروط الكريمة المعتدلة التى سوف تعرضها فرنسا المنتصرة على أوربا من أجل السلام . وسوف تعجلون أيها المواطن الجنرال من هذه اللحظة التى نتوق لها بسيركم على خطى سابقيكم ، وبصلايتكم وحزمكم لن نألو جهدا فى سبيل تدعيم الأسس التى ترسخت للحفاظ على مصر وازدهارها لحين يأتى سلام عام ليحدد بشكل قاطع مصير هذه الحملة المشهودة الغالية . أعلم أن الحكومة لن تهمل أيّا من الشؤون التى تهتم جيش الشرق . فهنا محل رعايتنا واهتمامنا الدائم» .

كارنو

يا جيوش الشرق ، رأيتم أى اهتمام توليه لكم الحكومة ، ومدى أهمية مصر فى الميزان السياسى ، ومدى إعجاب أوربا بكم وبنجاحكم فكل هذا محل عرفان قومى .

إننى أعلم القنصل الأول بأنه يستطيع أن يثق فى تفانينا وإخلاصنا المطلق وفى حزمى الذى لا يلين .

أيها الجنود ، أكرر على مسامعكم أنني لن أكف لحظة عن الاهتمام بشؤونكم وبكل ما من شأنه تحسين ظروفكم . ولكننى أنتظر فى المقابل ثقتكم التامة وطاعتكم و ولاءكم الكامل لى .

لتذكروا أن على دائما التوفيق بين مصالح الجمهورية بفرنسا والجيش والشعب المصرى التى عهد بها لى . ولتذكروا أنه من أجل الوصول إلى هذه الغاية فلا بد أن آخذ من مصر جميع الموارد المالية التى يمكن أن تمدنى بها . إننى أعمل لخير سكانها ، ولا بد أن أكتسب ثقتهم بالمعاملة الحسنة ، ولا بد أن يشعروا بالفارق بين حكومتهم السابقة وحكومة الجمهورية الفرنسية . باختصار ، لا بد أن يحكم الحزم والإنسانية والأخلاق والنزاهة جميع تصرفاتى . وسوف أعمل على أن أكون القدوة ولن أحتاج فى هذا إلا للاقتداء بخطوات بوناپرت .

مينو

لقد جعلتنا أنباء الانتصارات التى تحقّقها جيوشنا فى أوربّا نتفاعل بانتصار الجمهورية ونتنبأ به ، وكانت فرحة جيشنا بها لا توصف . ولكن هذه السعادة تأثرت تأثرا بالغا بنبا الاستيلاء على مالطا الذى وصلنا بعد بضعة أيام . ويقدر ما أعطتنا الأنباء الاولى الأمل ، بقدر ما جعلتنا الأنباء التالية نخشى استحالة عودتنا إلى وطننا . ورحنا نقول لا بد أن الإنجليز يختالون رهوا الآن بهذا الانتصار الجديد ، وإنهم لن يرغبوا فى عقد أية معاهدة . كان هذا الإحساس عاما . ولكن بعد إعادة التفكير فى الأمر بدأ يحدونا أمل مبهم ، يراود القلوب البائسة فيجعلها تنتظر بقدر أكبر من الشجاعة مستقبل غير مضمون . لم تبد لنا مسألة إبرام اتفاقية سلام شامل مشكلة عسيرة الحل ، وكان هذا ما يعطينا الأمل . صحيح أن المعارك استؤنفت ، ولكن الجنرال مورو كان قد استطاع إحراز انتصار مشهود فى

الرين ، حيث استطاع أسر (١) رجالا . والاستيلاء على ٨٠ قطعة مدفعية و ٢٠٠ صندوق من الذخيرة . وعلى صعيد آخر ، دخل جيش هائل إلى إيطاليا واستطاع بالفعل الاستيلاء على توسكانا . وقد استطاعت جيوشنا في كل مكان أن تحقق أفضل الانتصارات غير أن كل هذه المكاسب لم تحيّن من وضعنا في مصر . إذ لم يتم إرسال أية تدعيمات من الرجال لنا ، بينما كان جيشنا في تناقص مستمر يوميا بسبب الأمراض وألف حادث آخر . ولم يكن من العسير التنبؤ بطردها القريب . فقد كنا مهددين بجيش تركي ضخم وبهجوم محتمل من الإنجليز . وبما أن الشدائد تزيد من صلابة الإنسان ، فقد أصابنا التبلد حتى لم نعد نبالي بشيء ولا حتى بالحياة ذاتها ، لكن مع الاستعداد للتضحية بها وبذلها ثمنا غاليا لمن يتورع على مهاجمتنا ، ولم يكن في وسعنا سوى الانتظار وترقب الأحداث .

٢٠ فبراير (١٨٠١م)

الأول من فانتوز عام ٩

رحلت الكتيبة الثانية إلى الإسكندرية وبلغتها في الثاني من فانتوز . وقد تعرضت طوال الليل لعاصفة مخيفة وكأنها نذير بكارثة مشؤومة . وفي الثالث منه وصلنا إلى رشيد حيث أشارت علينا إدارة الصحة بعدة سبل متفردة للوقاية من الطاعون . بلغنا الرحمانية في الخامس منه . وفي الحادي عشر وافانا نبأ ظهور أسطول إنجليزي أمام شواطئ الإسكندرية . كانت مفاجئة ، تلقينا على أثرها أمراً فورياً بالرحيل نفذناه فوراً ، فرجعنا إلى ذلك المسجد في نفس اليوم ، وفي الثالث عشر وصلنا لمركز القسيادة

(١) في الكتاب الأصلي لم يتم توضيح العدد واستعاض عنه الكاتب بنفس العلامات الموضحة . (الترجمة)

لنعاود الرحيل مساء الخامس عشر ، وقمنا بتحركات اقتضتها الظروف وهى من الكثرة بحيث يستحيل سردها ، بل إننى لا أجد فى هذا ضرورة .

فى السابع عشر من فانتور الموافق ٨ مارس (١٨٠١م) حوالى الساعة العاشرة صباحا ، وصل الإنجليز إلى أبى قبير حيث قاموا بعملية إنزال . وقد اشتبكنا معهم ولكن الغلبة كانت للكثرة ، مما دعا الفرنسيين للانسحاب إلى مشارف رشيد بالقرب من البحر . وفى السواحد والعشرين منه (١٢ مارس) قام الأعداء بتحريك ، وهرعنا لملاقاتهم وأعقنا تقدمهم .

فى الثامن والعشرين منه (١٩ مارس) شن الإنجليز هجوماً على ثلاثة محاور ، وقد انقض عليهم الفرنسيون . وعلى الرغم من تفوقهم الشديد علينا فى العدد إلا أننا قاتلنا بشراسة وفعلنا المعجزات حتى اضطروا للتسليم بالأمر الواقع بعد أن ألحقنا بهم خسائر جمة وآثروا الانسحاب إلى مداخل رشيد .

فى التاسع والعشرين (٢٠ مارس) وصل الجيش من القاهرة . وفى الثلاثين منه شن هجوما ، غير أن الإنجليز كانوا قد أقاموا خنادق منيعة فلم نتمكن من اجتيازها ، ورحنا نكرر الهجوم المرة تلو الأخرى دون جدوى . ولجأنا لحيل الحرب جميعها وكل الجهود المتخيلة غير أننا اضطرننا فى نهاية الأمر للانسحاب بعد الخسائر التى لحقت بالجانبين . وتساءلنا إن كان من المجدى معاودة الهجوم بدلا من الانسحاب ، وبعد استعراض جميع الأسباب التى تدعو للقبول أو الرفض تقرر عودتنا إلى القاهرة وأخذ وضع الدفاع . فقد استقر رأى بنا على هذا لما لدينا من مواقع عديدة فى أحيائها يفتقد إليها الإنجليز ، فإن أرادوا أن تكون لهم فليس أمامهم سوى انتزاعها بقبضة الخنجر . فنحن أقوى فى الدفاع عنا فى الهجوم ، وهذا ما نفذناه . إذ عاد جزء من الجيش إلى القاهرة ، بينما بقى الجزء الآخر وأنا معه ، فى بحرى .

اعتقال بعض الجنرالات

بعد أيام اتخذت الخلافات القائمة منذ وقت طويل بين القائد العام والعديد من المنشقين منعطفاً خطيراً فيه ضرر على أمن وسلامة الجيش . فقد احتدمت المناقشات بين الحزبين وجهً خلالها حديث فاحش للجنرال الذي قرر بعد أن أعيتته هذه المتناقضات وضع حد لتجاوزاتهما بموجب سلطاته . وفي الليل ، قام بغتة باعتقال الجنرال رينيه ودوما ، ومساعد الكومندان بوير والمفتش دور والعديد من أنصارهم وأرسلهم بحراً إلى فرنسا . كان رد الفعل على هذا الحزم متبايناً بين العسكريين . فقد أيدى البعض لمعاقبته الجنرالات ، وقالوا : «لقد كانوا وراء ما حاق بنا في الثلاثين من الشهر» ، بينما أضاف البعض أنهم سيخونون أو أنهم خائنوا بالفعل . أما الجانب المعتدل ، فقد اكتفى باتهامهم بالوقاحة وعصيان القائد العام . وعلى الصعيد المضاد اتهم البعض الجنرال بالتمعالي وعدم التبصر والغفلة ، وحجتهم في هذا هي عناده وإصراره على التمسك بهذه المستعمرة . أما أكثر الأحزاب تعقلاً في رأيهم من تركوا للحكومة مهمة الحكم على هذا الخلاف ، ولم يشغلوا بالهم إلا بأداء واجبهم .

خلال شهر جسيمينال ، استولى الإنجليز على رشيد وقطعوا وهدموا سد البسحيرة فانتشرت مياهها في كل الاتجاهات وسرعان ما بلغت بحيرة المريوطية فزاد منسوبها حتى لقد استخدمها الإنجليز خلال شهر فلوريال في تسيير مراكب الجيش - كما فعلنا بالمشل - وقمنا بشن بعض المعارك عليهم وكانت لنا الغلبة في معظمها .

في التاسع عشر من فلوريال الموافق ٩ مايو (١٨٠١م) دارت معركة في الرحمانية ، قمنا على إثرها بإجلاء هذا المكان في الليلة من ١٩ إلى ٢٠ منه .

فى ٢٠ بريريال الموافق ٩ يونيو وصلت السفينة هيليوبوليس إلى ميناء الإسكندرية ، وقد أعلمتنا بقرب وصول تدعيمات من الأميرالاي جانتوم ، وانتظرنا دون طائل .

فى الثلاثين من بريريال الموافق ١٩ يونيو ، لحق بنا فيلق الهجانة وأمدنا بأخبار مطمئنة عن القاهرة . وفى الحادى عشر من ميسيدور ، احتفلنا بذكرى الاستيلاء على الإسكندرية بإطلاق رشقات من المدفعية من جميع القلاع على كافة الجبهات ، وكان هذا للمرة الأخيرة . فى العشرين من ميسيدور الموافق ٩ يوليو ، بدأ الإنجليز فى التفاوض ، وأعلمونا باستسلام جميع القوات الرابضة فى القاهرة والقلاع المتاخمة لها . ولم نكن لنصدق هذا لولا البيان التالى :

مركز القيادة بالإسكندرية

٢٠ ميسودور عام ٩ الموافق ٩ يونيو (١٨٠١ م)

القائد العام إلى جيش الشرق بالإسكندرية :

السادة الجنرالات والضباط وضباط الصف والجنود فى جميع أسلحة الجيش . استسلمت القوات الفرنسية الرابضة فى القاهرة القلاع المجاورة دون مقاومة ودون أن يشن عليها هجوم منتظم . ولن أسمح لنفسى بالخوض فى أى تعليق على هذا الحدث الاستثنائى الذى ربما لم تشهد مثله هذه الحرب خشية أن أصيب بالخزى رجلاً أظهروا حتى الآن من الكرامة ما يجعلهم جديرين بأن يكونوا فرنسيين وجمهوريين .

أعلمكم أننى اجتمعت والليوتنت فريون ورومبون ورؤساء الفرق سونجى وديستان وزايونشيك ورئيس اللواء سامسون وكومندان الفرقة الملقبة بالجينى .

وقد كان رأيهم جميعا أنه لا بد من التصرف مع هذا الموقف مثلما يفعل الرجال الذين لا يعرفون من سبيل إلا الشرف والتعلق بالوطن .

أيها الجنود ، برهتكم حتى الآن على توضيحتكم وصبركم وشجاعتكم ، مما يجعلنى لا أشك لحظة فى رد فعلكم وسلوككم . سوف تثبت للجميع كيف يكون الجنود الشجعان . وسوف ندافع حتى الموت . ولكن ، إن كان بيننا من الفرنسيين من يشعرون أنه لم يعد لديهم الطاقة والعزيمة الكافية لمقاتلة أعداء الجمهورية بعض الوقت من جديد فالأبواب مفتوحة لهم ، وسوف أرسلهم إلى رشيد حيث ستتجمع عما قليل جميع الفرق القادمة من القاهرة .

مينو

هذا البيان وغيره من نفس النوع وإن كانوا مبنيين على الشرف والعقل الرشيد إلا أنهم أشاروا استياء الجنود ، فقد سلبوهم كل أمل لهم فى استتباب الأمور والعودة إلى الوطن ، فراحوا يغبطون مصير إخوانهم فى السلاح الذين سيضطرون تحت أبصارهم الشراع فى طريق عودتهم إلى بلادهم ، بينما ينظرون هم إلى حالهم وهم محاصرون فى الإسكندرية ومعرضون لشتى أنواع المخاطر والحصار ولفظائع المجاعة . فكل ما كانت هذه المدينة المحرومة من أى اتصال بينها وبين بقية المناطق فى مصر تستطيع منحه لسكانها والمدافعين عنها هو شريحة من نوع سيئ من الخبز المالح ، وبعض ملاعق من الأرز أو الفاصولية وست أونصات من اللحم فى بعض الأحيان . كانت هذه هى كل حصتنا من الطعام يوميا . أحيانا ما كان يأتينا البدو ويسمعون لنا بعض القمح ولكنهم كانوا يأخذون وزنه ذهباً . وكنا بالكاد نستطيع شراء لحم الجمال أو الخيول أو الحمير . أضف إلى هذا عذابات العمل المتصل وخدمة لا هواة فيها ونقص النقود والعديد من

الأمراض التي يصعب مداواتها لنقص العقاقير ، كل هذا يعطى فكرة واضحة عن وضعنا . وإن انقلبت بعض الهمهمات من الأفواه أو بعض الشكوى ، كان نداء الشرف يجعلها تموت على الأفواه وكان يوجب شجاعتنا ويهيئنا لتحمل جل التضحيات .

المعارك التي وقعت حول الإسكندرية

منذ خمسة أشهر والجيشان مرابضان حول الإسكندرية دون حدوث أية عمليات عسكرية من الجانبين ، أولا ، لأن الإنجليز كانوا مشغولين بجيش القاهرة ، وثانيا ، لأن عدد الفرنسيين لم يكن كافيا للهجوم . غير أن رحيل زملائنا بالقاهرة هيا الفرصة لأعدائنا كي يوحّدوا جهودهم ضدنا . فبدءوا قرب نهاية شهر تيرميدور فى إرسال كميات مذهلة من السفن الحربية والزوارق المحملة بالمدفعية عبر بحيرة الماريوطية ليتمكنوا من القيام بعملية إنزال بالقرب من المدينة التى غدت منيعة بفعل ما شيدوه من تحصينات .

فى التاسع والعشرين من ترميدور الموافق ١٧ اغسطس (١٨١٠م) قام العدو بشن هجوم على خطوطنا فكانت لهم الغلبة ، لا سيما على الجانب الشمالى من قواتنا وهو موقع مميز غير أن فرقنا تمكنت بعزيمتها من حملهم على الرحيل بعدها بوقت قصير . لم نحقق نفس النتائج على الجانب الأيمن حيث تمكنوا من الاستيلاء على أحد معاقلنا المتقدمة فأحدثوا قلاقل شديدة على طول خطوطنا . وقد حاولت إحدى الكتائب وقوتان من المدفعية استردادها ، بيد أن جهودهم باءت بالفشل . وقد حاول العدو فى نفس اليوم القيام بعدة عمليات إنزال ولكننا كنا لهم بالمرصاد . ومساء الثلاثين منه وصلت الكتيبة الثانية التابعة للفرقة ٧٥ إلى أحد معاقلنا التى كنا نسميها بومبيه لقربها من فرقة بومبيه .

فى صباح الرابع من فروكتيدور تمكن العدو من الاستيلاء على حصن ماريوط بعد قصف عنيف بالمدفعية استمر ثلاثة أيام ، كما أقام جبهة من المرسى وحتى بالقرب من الحصن التركى ، فسبب لنا إزعاجا كبيرا .

فى السابع منه ، شن العدو هجوماً واستطاع الاستيلاء بالقوة على عدة تلال واقعة بالقرب من الحصن التركى ، بعد أن تمكن من أسر كتيبة من الفرقة ١٨ التى تمكن أغلب رجالها من الفرار تحت جنح الليل .

وفى الثامن عشر ، قام العدو بقصف جبهتنا بالمدفعية أمام باب رشيد ، فأصابنا بضرر بالغ ، بينما قسام بنشر عتاد ضخم على خطنا الأيمن مما أثار مخاوفنا بشأن المستقبل ، وحشنا على طلب الهدنة لبضعة أيام ، فمنحت لنا فى الليلة من ٨ إلى ٩ ، وفى مساء الثانى عشر منه أبرمنا اتفاقية استسلام تم التصديق عليها يومى ١٤ و ١٥ ، تنازلنا بمقتضاها عن خطين من خطوط القتال وحصن مثلث وانسحبنا إلى نطاق منطقة العرب . وتعهد الإنجليز بنقلنا إلى الأراضى الفرنسية . وقد وقع على هذا الاستسلام كل من مينو والجنرال الإنجليزي هاتشينسون لتحدد موعد إبحارنا فى اليوم العاشر بعد التصديق ، أى فى الخامس والعشرين من فروكتيدور عام ٩ الموافق ١٢ سبتمبر (١٨٠١ م) .

غير أن ظروف اضطرارية أجبرت الإنجليز على استخدام السفن التى خصصوها لنا لنقل قواتهم لمختلف بقاع أوربا حيث دعت سياساتهم إلى هذا . وبدلاً من الرحيل دفعة واحدة اضطررنا إلى الإقلاع على التوالى بمجرد إصلاح إحدى سفنتنا ، حتى إننا بعد شهر من هذا التاريخ كنا مازلنا فى مصر .

كان من المفترض أن يبدأ إبحارنا الذى راح يتأجل يوماً بعد يوم منذ الأول من فاندмир عام ١٠ الموافق ٢٣ سبتمبر (١٨٠١ م) غير أن بطن القائد العام ، (وهو ما كان يعيبه بطبيعته) جعلنا نتأخر ثمانية أيام أخرى .

أقلعنا بالفعل يوم ٢ فاندмир الموافق ١٢ أكتوبر ، هذا اليوم الذى طالما
انتظرناه ورجبنا فيه بشدة . كان هذا بعد ٤٨ يوم من التصديق على الاتفاقية .
كان اسم السفينة التى أقلتنا «لاساكرا فاميليا»^(١) وهى سفينة تجارية .
وقد غمرتنا سعادة جمّة ونحن نغادر هذا القطر المشؤوم ليس على
الفرنسيين قديما فحسب بل حديثا أيضا ، فهو قسطنطين الذى ألت به جميع آفات
البشر من طاعون وعمى وقطع طريق وفقر وفوق كل هذا استبداد الشرق .
وكم أسفنا لفقد كل هؤلاء الرجال ، ولسكب كل هذه الدماء ولتحمل شتى
صنوف التعب والحرمان ، ولعدم تمكننا من إقامة مستعمرة على
شاكله مستعمرات أخرى كثيرة ، ولكن وقت البعث لم يكن قد
حان بعد .

أما عنى فكم افتقدت العزيزة البائسة رليمة وكم أسفت عليها ، ولم
يكن ثمة ما يشفينى من الجرح الذى ألم بى لفقدائها سوى رؤية وطنى .
كتبت لها رسالة من رشيد بعد استسلام القاهرة ، لأخبرها ، بعد أن تسمع
أنباء الاستسلام بيننا وبين الإنجليز ، على اللحاق بى فى الإسكندرية
لنصحبها معنا إلى فرنسا . وقد تمكنت بالفعل من الهرب من دمياط فى
الخامس والعشرين من فبرواى متخفية فى ملابس فرنسية مع خادمتها
المارسيلية الأمانة غيير أن جماعة من المماليك ألقوا القبض عليها
واستجوبوها واكتشفوا من لهجتها أنها ليست فرنسية . وقد
أخذوها سبية بعد أن رأوا شدة حسنها بينما تركوا المارسيلية تذهب لحال
سبيلها بما أنها تنتمى لدولتنا ، وبالتالي فإن معاهدة الاستسلام تشملها .
ولست أدري ما الذى ألم بزلينا وكيف سارت الأمور بها ، وربما توفاهما
الله من شدة الهم والحزن . وقد علمت بهذه التفاصيل من خادمتها التى

(١) أى العائلة المقدسة (الترجمة) .

تمكنت من اللحاق بنا والرحيل معنا ، وقد أسعدها حظها برؤية ذويها وديارها في مارسيليا .

في الأيام الأولى ، لم تمكننا الرياح غير المواتية من التقدم كثيرا ، بل إن الرياح كانت معاكسة تماما لنا في اليوم السادس حتى إنها قطعت علينا تقدمنا . ولم نتمكن سوى في التاسع والعشرين من السير بمحاذاة رأس «سانت جان» بجزيرة كاندى . ومنذ ذلك الحين أخذت آلهة الرياح تنفخ في قلاعنا وحملتنا إلى شواطئ صقلية بين رأس مورو دى بوركو ولا فينيات الواقعة بعد سيراكوس ، ثم هدأت تماما حتى إنها تركتنا في خطر محقق . وبدلا من الخروج من هذا المكان انصرفنا لندخل ناحية الشاطئ . وقد فقد بحاراتنا صوابهم ، وبعد أن استشاروا دليلهم لم يجدوا أى مخرج لمازقهم سوى الدخول إلى فينيات . وقد فعلوا ما فى وسعهم للرسو فى هذا المرفأ على الرغم من أنه غير آمن . وبينما هم يبدلون قصارى جهدهم إذ بريح لطيفة تتشعلنا من هذا الموقف السيء . وما كدنا نتجاوز رأس مورو دى بوركو التى يرتاد أنحاءها بحارتنا المحنكون منذ أربعين أو خمسين عاما ، حتى انفجرت أساريهم وندت عن سعادة غامرة واعترفوا لنا بأنهم أبدا ما واجهوا خطرا على هذا النحو .

فى نفس اليوم ، اضطررنا أن نرسو فى أوجستا، وهى مدينة صغيرة بصقلية أولاً لإصلاح التلفيات التى لحقت بنا وانتظارا لريح ملائمة كنا نحتاج اليها لاجتياز منار ميسين الخطر . وقد أحسن حاكم هذه البلدة وفادتنا مع اتخاذ جميع الاحتياطات الصحية المتبعة . ومن خلال اتصالاتنا غير المباشرة علمنا أن السلام قد أبرم بين الجمهورية الفرنسية وحكومة سانت جيمس .

٢٨ نوفمبر (١٨٠١م) :

رحلنا عن أوجستا فى الرابع من برومير ولكن المسافة التى قطعنا لم تكن كبيرة بسبب الرياح غير المواتية .

فى الخامس منه أجبرنا هذا السكون على ملازمة سفح بركان إتنا الذى ظل ينفث دخانا كبريتيا من قمة فوهته . وقد رأينا أثناء الليل بعض شرارات اللهب تتطاير منه وتتساقط على الحقول الجميلة والبنات المجاورة . بدأت الرياح تشتد فى ليلة السادس من برومير مما أتاح لنا فرصة متابعة طريقنا ، ورحنا نتأمل مدينة ميسين على ضوء القمر وهى تستحق التأمل بحق ، وهى تقع عند سفح سلسلة من الجبال . وهى ليست فى الواقع سوى براكين تطل على البحر مما يجعلها بهجة للناظرين .

ثم دخلنا إلى المضيق الذى يفصل صقلية عن كسالاير فى مضيق سيلا وشارييد الشهير الذى طالما خشى عقباه خلال العصور الوسطى والذى يطلق عليه اليوم اسم منار ميسين .

لم نتج لنا عتمة الليل تميز أى شئ ومع هدوء الرياح فى السادس منه اضطررنا للرسو بالقرب من سترومبولى . وهو أحد الجبال الواقعة وسط البحر على بعد أربعين ميلاً من المنار ، الذى يشكل خطراً محدقاً بخواره وزئيره وحممه أكثر من جبل إتنا ذاته الذى تفصله عنه عدة جزر لا سيما جزيرتى فولكينو وليبارى . وعند حلول الليل قامت عاصفة امتدت حتى الصباح مما أثار قلقنا . وقد رأى القبطان استحالة الصمود فى البحر دون التعرض للاضطدام بالصخور الواقعة أمام سترومبولى مما دعاه فى السابع منه إلى اتخاذ قرار بالعودة إلى المنار . وقد استطعت حينئذ أن أرى بسهولة عند مدخل كالابر جبل كان يرتفع كثيراً عن سطح المياه ذات يوم ولكنه ذلك عندما وقع زلزال عام (١٧٨٢م) أو (١٧٨٣م) . وفيما يبدو أن

هذا هو المكان الذى كانت تقع فيه سيلا . أما عن شارييد فلم ألحظ شيئا عند الشواطئ المقابلة لصقلية تشبه ما ووى بشأنها فى العصور الوسطى . صحيح أننى لاحظت عن بعد بعض الدوامات التى من شأنها إعاقة الملاحة لا سيما مع ضيق عرض البحر فى هذا المكان . كما لاحظت على طول الشاطئين عند سفح سلسلة من الجبال المتقابلة تلالا منحدره بهيجية وقد أحسنت زراعتها ، وبيوت ريفية جميلة وقرى مشيدة بصورة جيدة ، مما يمنح العين مشهدا جميلا .

بلغنا ميسين عند الظهيرة ، حيث رسونا فى انتظار ربح مواتية . وقد وجدنا فيها عدة سفن بعد عدة أيام مما هون علينا إلى حد ما حظنا السيئ . هناك ، شاهدت بقايا بيوت رائعة وقد اردان بها المرفأ ، وربما شكلت واجهة ضخمة قبل زلزال (١٧٨٢م) الذى ابتلع هذه المدينة البائسة . وقد قام السكان شيئا فشيئا بتشيد البنايات خلف هذا الصف من الأطلال الذى لم يجرو أحد على إزالته خشية حدوث كارثة جديدة .

هذه البنايات التى شيدت لا تشبه القديمة فى شيء ، فهى لا تتعدى الطابقين كما أن معمارها أقل فخامة . وقد أرسل لنا حاكم ميسين عقب وصولنا بقليل بعض العارفين ليعتصرونا بشيء من الموسيقى . وقد نفحنهم ببعض النقود فسعدوا بكرمنا حتى إنهم عادوا مرة أخرى فى صباح اليوم التالى . فكافأناهم بنفس الطريقة . وإن كنا مددنا إقامتنا أكثر من هذا فى تلك الانحاء لكانوا عادوا كل يوم . فالصقليون أشد إلحاحا من باقى الإيطاليين حتى إنه لا يخلجهم مد أيديهم بصفة مستمرة .

وفى هذه المدينة ، عرفنا تفاصيل السلام المبرم بين فرنسا والمجلترا . وقد بقينا فيها حتى الرابع عشر حيث فردنا القلوع . غير أن البحر كان هادئا فاحتجزنا عند مشارف سترومبولى حتى مساء الخامس عشر منه . إلى أن دفعنا ربح طيب مساء التاسع عشر إلى مرسى كولون . وكنا نأمل أن

يتسهي بنا المطاف من حيث بدأنا ، قبل ثلاثة أعوام . ولكن أوامر عليا صدرت لنا بالتوجه إلى مارسيليا وكأنه يشق على فرنسا استقبالنا ، فلم نستطع الرحيل قبل الثاني والعشرين منه .

حينما بلغنا ميناء مارسيليا قرابة الساعة التاسعة مساء ، واتتنا رياح معاكسة وجو فظيع دفعتنا دفعا صوب البحر من جديد . مما اضطرنا لإطلاق مدفع الاستغاثة . وقد هب لنجدتنا أحد البحارين وقادنا إلى مرسى ولكنه كان من السوء بحيث لم نشعر بالارتياح فيه . وقد أبحرنا في الرابع والعشرين إلى حيث الحجر الصحي . وفي الخامس والعشرين من برومير عام ١٠ الموافق ١٦ نوفمبر (١٨٠١م) بدأنا بالفعل فترة الحجر الصحي . وحينما أنهينا هذه الفترة استقبلنا وطننا بين أحضاناه .

المشروع القومى للترجمة

| | | |
|---|------------------------------|------------------------------------|
| ت : أحمد درويش | جون كوين | اللغة العليا (طبعة ثانية) |
| ت : أحمد فؤاد بليغ | ك. مادمو باتيكاك | الوثنية والإسلام |
| ت : شوقي جلال | جورج جيمس | التراث المسروق |
| ت : أحمد الحضري | انجا كاريثنكوفا | كيف تتم كتابة السيناريو |
| ت : محمد علاء الدين منصور | إسماعيل فصيح | ثريا فى غيبوبة |
| ت : سعد مصفرح / وفاء كامل فايد | ميلكا إيفيتش | اتجاهات البحث البشرى |
| ت : يوسف الانطلى | لوسيان غولدمان | العلوم الإنسانية والفلسفة |
| ت : مصطفى حافر | ماكس فريش | مشغلو الحرائق |
| ت : محمود محمد عاشور | أندرو س. جودى | التغيرات البيئية |
| ت : محمد معتمد عبد الجليل الأزدى وعمر حلى | جيرار جينيت | خطاب الحكاية |
| ت : هناء عبد الفتاح | فيسواقا شيمويريسكا | مختارات |
| ت : أحمد محمود | ديفيد براونستون وايرين فرانك | طريق الحرير |
| ت : عبد الوهاب طوب | روبرتسن سميث | ديانة الساميين |
| ت : حسن المودن | جان بيلمان نويل | التحليل النفسى والأدب |
| ت : أشرف رايق عفيفى | إلوارد لويس سميث | الحركات الفنية |
| ت : لطفي عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيوخ / منيرة كروان / عبد الوهاب طوب | مارتن برنال | أثنية السوداء |
| ت : محمد مصطفى بدوى | فيليب لاركين | مختارات |
| ت : طلعت شاهين | مختارات | الشعر البشرى فى أمريكا اللاتينية |
| ت : تميم عطية | جورج سفيريس | الأعمال الشعرية الكاملة |
| ت : يملى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح | ج. ج. كراوثر | قصة العلم |
| ت : ماجدة العناني | صمد بهرنجى | خوخة وألف خوخة |
| ت : سيد أحمد على الناصرى | جون أنتيس | مذكرات رحالة عن المصريين |
| ت : سعيد توفيق | هانز جيورج جادامر | تجلى الجميل |
| ت : بكر عباس | باتريك بارنر | خلال المستقبل |
| ت : إبراهيم النمسوقى شتا | مولانا جلال الدين الرومى | مشوى |
| ت : أحمد محمد حسين هيكى | محمد حسين هيكى | دين عصر العام |
| ت : نذرة | مقالات | التنوع البشرى الخلاق |
| ت : منى أبو سنه | جون لوك | رسالة فى التسامح |
| ت : بدر الديب | جيمس ب. كارس | الموت والوجود |
| ت : أحمد فؤاد بليغ | ك. مادمو باتيكاك | الوثنية والإسلام (٢٤) |
| ت : عبد الستار الحلوى / عبد الوهاب طوب | جان سوفاجيه - كلود كاين | مصادر دراسة التاريخ الإسلامى |
| ت : مصطفى إبراهيم فهمى | ديفيد روس | الانقراض |
| ت : أحمد فؤاد بليغ | أ. ج. هوبكنز | التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية |
| ت : د. حمزة إبراهيم أنثيف | روجر آرن | الرواية العربية |

| | | |
|----------------------------------|--|---|
| الأسطورة والحداثة | بول . ب . ديكسون | ت : خليل كلفت |
| نظريات السرد الحديثة | والاس مارتن | ت : حياة جاسم محمد |
| راحة سيوة وموسيقاها | بريجيت شيفر | ت : جمال عبد الرحيم |
| نقد الحداثة | ألن تورين | ت : أنور مقيث |
| الإغريق والحسد | بيتر والكوت | ت : منيرة كروان |
| قصائد حب | آن سكستون | ت : محمد عبد إبراهيم |
| ما بعد المركزية الأوروبية | بيتر جران | ت : عاطف أحمد / إبراهيم قنص / محمود حجد |
| عالم ماك | بنجامين باربر | ت : أحمد محمود |
| الذهب المزوج | أوكثافيو بات | ت : المهدي أخريف |
| بعد عدة أضياف | ألدوس هكسلي | ت : مارلين تادرس |
| التراث المنفور | روبرت ج نثا - جون ف أ فاين | ت : أحمد محمود |
| عشرون قصيدة حب | بابلو نيرودا | ت : محمود السيد علي |
| تاريخ النقد الأدبي الحديث (١) | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| حضارة مصر الفرعونية | فرانسوا دوما | ت : ماهر جويجاتي |
| الإسلام في البلقان | هـ . ت . نوريس | ت : عبد الوهاب علوب |
| ألف ليلة وليلة أو القول الأسير | جمال الدين بن الشيخ | ت : محمد برادة وعثمان الميولي ويوسف الأشملي |
| مسار الرواية الإسبانية الأمريكية | داويو بيانوييا وخ . م بينياليستي | ت : محمد أبو العطا |
| العلاج النفسي التدميمي | بيتر . ن . نوفياليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل | ت : لطفي لطيف وعادل دمرداش |
| الدراما والتعليم | أ . ف . أنجتون | ت : مرسى سعد الدين |
| المفهوم الإغريقي للمسرح | ج . مايكل والتون | ت : محسن مصيلحي |
| ما وراء العلم | جون بولكنجهوم | ت : علي يوسف علي |
| الأعمال الشعرية الكاملة (١) | فديريكو غرسيه لوركا | ت : محمود علي مكي |
| الأعمال الشعرية الكاملة (٢) | فديريكو غرسيه لوركا | ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي |
| مسرحيتان | فديريكو غرسيه لوركا | ت : محمد أبو العطا |
| المحبرة | كارلوس مونيث | ت : السيد السيد سهيم |
| التصميم والشكل | جوهانز ايتن | ت : صبري محمد عبد المنى |
| موسوعة علم الإنسان | شارلوت سيمور - سميت | مراجعة وإشراف : محمد الجوهري |
| لذة النص | رولان بارت | ت : محمد خير البقاعي . |
| تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢) | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد |
| برتراند راسل (سيرة حياة) | ألان وود | ت : رمسيس عوض . |
| في مدح الكسل ومقالات أخرى | برتراند راسل | ت : رمسيس عوض . |
| خمس مسرحيات أندلسية | أنطونيو جالا | ت : عبد اللطيف عبد الطيم |
| مختارات | فرناندو بيسوا | ت : المهدي أخريف |
| نقاشا العجوز وقصص أخرى | فالتين راسبوتين | ت : أشرف الصباغ |
| العالم الإسلامي في قرون العشرين | عبد الرشيد إبراهيم | ت : أحمد فؤاد حنولي وهويدا محمد فوس |
| ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية | أوخينيو تشاتيج رودريجت | ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد |

| | | |
|--|----------------------------|--------------------------------|
| السيدة لا تصلح إلا لفرسى | دأريو لوف | ت : حسرن محمود |
| السياسى المعجز | ت . س . إتيوت | ت : فؤاد مجلى |
| نقد استجابة القارئ | جيم . ب . توميكنز | ت : حسن ناظم وعلى حاكم |
| صلاح الدين والمالِك فى مصر | ل . ا . سيمينولفا | ت : حسن بيومى |
| فن التراجم والسير الذاتية | أندريا موروا | ت : أحمد نوريش |
| چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى | مجموعة من الكتاب | ت : عبد المقصود عبد الكريم |
| تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٢ | رينيه ويليك | ت : مجاهد عبد المظم مجاهد |
| العولة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية | رونالد روبرتسون | ت : أحمد محمود ونورا أمين |
| شعرية التأليف | يورييس أوسينسكى | ت : سعيد الفاتنى وقاصر حلاوى |
| بوشكين عند منافورة الدموع | ألكسندر بوشكين | ت : مكارم القمري |
| الجماعات المتخيلة | بندكت أندرسن | ت : محمد طارق الشرفاوى |
| مسرح ميغيل | ميغيل دى أوتامونو | ت : محمود السيد على |
| مختارات | غوتفريد بين | ت : خالد العالى |
| موسوعة الأدب والنقد | مجموعة من الكتاب | ت : عبد الحميد شيمسة |
| منصور العلاج (مسرحية) | صلاح زكى أقطاى | ت : عبد الواثق بركات |
| ماوى النيل | جمال مير صابقى | ت : أحمد فتاحى يوسف شتا |
| تون والقلم | جلال آل أحمد | ت : ماجدة العناني |
| الابتلاء بالغرب | جلال آل أحمد | ت : إبراهيم الدسوقي شتا |
| الطريق الثالث | أنتونى جيننز | ت : أحمد زايد ومحمد محبى الدين |
| وسم السيف | ميجل دى توبانس | ت : محمد إبراهيم مبروك |
| المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق | باربر الاسويستكا | ت : محمد هناء عبد الفتاح |
| أساليب ومضامين المسرح | كارلوس ميغل | ت : نادية جمال الدين |
| الإسبانيون أمريكي المعاصر | مايك فينرستون وسكوت لاش | ت : عبد الوهاب غلوب |
| محدثات العولة | صمويل بيكيت | ت : فوزية العشموى |
| العب الأول والصحية | أنطونيو بوورو بايخو | ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف |
| مختارات من المسرح الإسباني | قصص مختارة | ت : إدوار الخراط |
| ثلاث زلاقات ووردة | فرنثان برونيل | ت : بشير السباعى |
| هوية فرنسا | نماذج ومقالات | ت : أشرف الصباغ |
| الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى | ديفيد روبنسون | ت : إبراهيم قنديل |
| تاريخ السينما العالمية | بول هيرست وجراهام تومبسون | ت : إبراهيم فتحى |
| مسألة العولة | بيرنار فاليط | ت : رشيد بنحو |
| النص الروائى (نقائيات ومناهج) | عبد الكريم الخطيبى | ت : عز الدين الكتانى الإبريسى |
| السياسة والتسامح | عبد الوهاب المؤيد | ت : محمد بنيس |
| قبر ابن عربى عليه آباء | برنولت بريشت | ت : عبد القادر مكارى |
| أوبرا ماهوجنى | جيمار جينيت | ت : عبد العزيز شبل |
| مدخل إلى النص الجامع | د . ماريا خيسوس روبيز امتى | ت : د . أشرف على دعور |
| الأدب الأندلسى | | |

| | | |
|----------------------------------|-------------------------|--|
| ت : محمد عبد الله الجميدى | نخبة | صورة الفنان فى الشعر الأمريكى المعاصر |
| ت : محمود على مكى | مجموعة من النقاد | ثلاث دراسات عن الشعر الأثناسى |
| ت : هاشم أحمد محمد | جون بولوك وعادل درويش | حروب المياه |
| ت : منى قطان | حسنة بيجوم | النساء فى العالم النامى |
| ت : ريهام حسين إبراهيم | فرانسيس هيفسون | المرأة والجريمة |
| ت : إكرام يوسف | أرلين علوى ماكليود | الاحتجاج الهادئ |
| ت : أحمد حسان | سادى بلانت | رابية التمرد |
| ت : نسيم مجلى | رول شوينكا | مسرحتنا حصاد كونجى وسكان المستنقع |
| ت : سمية رمضان | فرجينيا وولف | غرفة تخص المرء وحده |
| ت : نهاد أحمد سالم | سينثيا نلسون | امرأة مختلفة (درية شفيق) |
| ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال | ليلى أحمد | المرأة والجنوسة فى الإسلام |
| ت : ليس النقاش | بت بارون | النهضة النسائية فى مصر |
| ت : بإشراف/ رؤوف عباس | أميرة الأزهرى سنبل | النساء والأسرة وقوانين الطلاق |
| ت : نخبة من المترجمين | ليلى أبو لغد | الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط |
| ت : محمد الجنيدى ، وإيزابيل كمال | فاطمة موسى | الدليل الصغير فى كتلية المرأة العربية |
| ت : منيرة كروان | جوزيف فوجت | نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان |
| ت : أنور محمد إبراهيم | نيل الكسندر وفناتولينيا | الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية |
| ت : أحمد فؤاد يليخ | جون جواى | الحجر الكاذب |
| ت : سمحه الخولى | سيدريك ثورپ ديكى | التحليل الموسيقى |
| ت : عبد الوهاب غلوب | فولفغانج إيسو | فعل القراءة |
| ت : بشير السباعى | صفاء فتحي | إرهاب |
| ت : أميرة حسن نويرة | سوزان باستيت | الأدب المقارن |
| ت : محمد أبو العطا وآخرون | ماريا دولورس أسيس جاروت | الرواية الأسبانية المعاصرة |
| ت : شوقي جلال | أنثريه جوندز فرانك | الشرق يصعد ثانية |
| ت : لويس بقطر | مجموعة من المؤلفين | مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى) |
| ت : عبد الوهاب غلوب | مايك فينرستون | ثقافة العولمة |
| ت : طلعت الشايب | طارق على | الخوف من المرايا |
| ت : أحمد محمود | بارى ج. كيمب | تشريح حضارة |
| ت : ماهر شفيق فريد | ت. س. إليوت | المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء) |
| ت : سحر توفيق | كينيث كوانو | فلاحو الباشا |
| ت : كاميليا صبحى | جوزيف مارى مواريه | مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية |
| ت : وجيه سمعان عيد المسيح | إيفالينا تارونى | عالم التليفزيون بين الجمال والعنف |
| ت : أسامة إسبر | عاطف فضول | التفكيرية الشعرية عند إليوت وأونونيس |
| ت : أمل الجبورى | هربرت ميسن | حيث تلقى الأذهار |
| ت : تميم عطية | مجموعة من المؤلفين | اثننا عشرة مسرحية يونانية |
| ت : حسن بيومى | أ. م. فورستر | الإسكندرية : تاريخ ودليل |
| ت : سلامة محمد سليمان | كارلو جولدونى | صاحبة اللوكاتدة |

(نحت الطبع)

| | |
|--|--|
| خطبة الإدارة الطويلة | الشعر الأمريكي المعاصر |
| تاريخ النقد الأدبي الحديث (الجزء الرابع) | الجانب الدينى للفلسفة |
| حكايات ثعلب | الولاية |
| شامبوليون (حياة من نود) | المدارس الجمالية الكبرى |
| العمورية الهلالية | مختارات من الشعر اليونانى الحديث |
| الإسلام فى السودان | بارسيفال |
| العربى فى الأدب الإسرائيلى | العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل |
| آلة الطبيعة | عدالة الهنود |
| ضحايا التنمية | جان كوككر على شاشة السينما |
| المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر | الأرضة |
| أيدولوجى | فرام القراءة |
| تاريخ الكنيسة | نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة |
| فن الرواية | القصة القصيرة (النظرية والتقنية) |
| ما بعد المعلومات | التجربة الإغريقية : حركة الاستعمار والصراع الاجتماعى |
| الورقة الحمراء | العنف والنبوة |
| موت أرتميد كروث | خسرو وشيرين |
| علم الجمالية وعلم اجتماع الفن | العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر) |
| المجلة الأخيرة | وضع حد |
| البيولوجية تصنع علماً جديداً | التليفزيون فى الحياة اليومية |
| قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى | أنطوان تشيخوف |
| مدرسة فرانكفورت نشأتها ومغزاها | من المسرح الإسباني المعاصر |





JOSEPH MAR MOHLE

[illegible]

To: www.al-mostafa.com